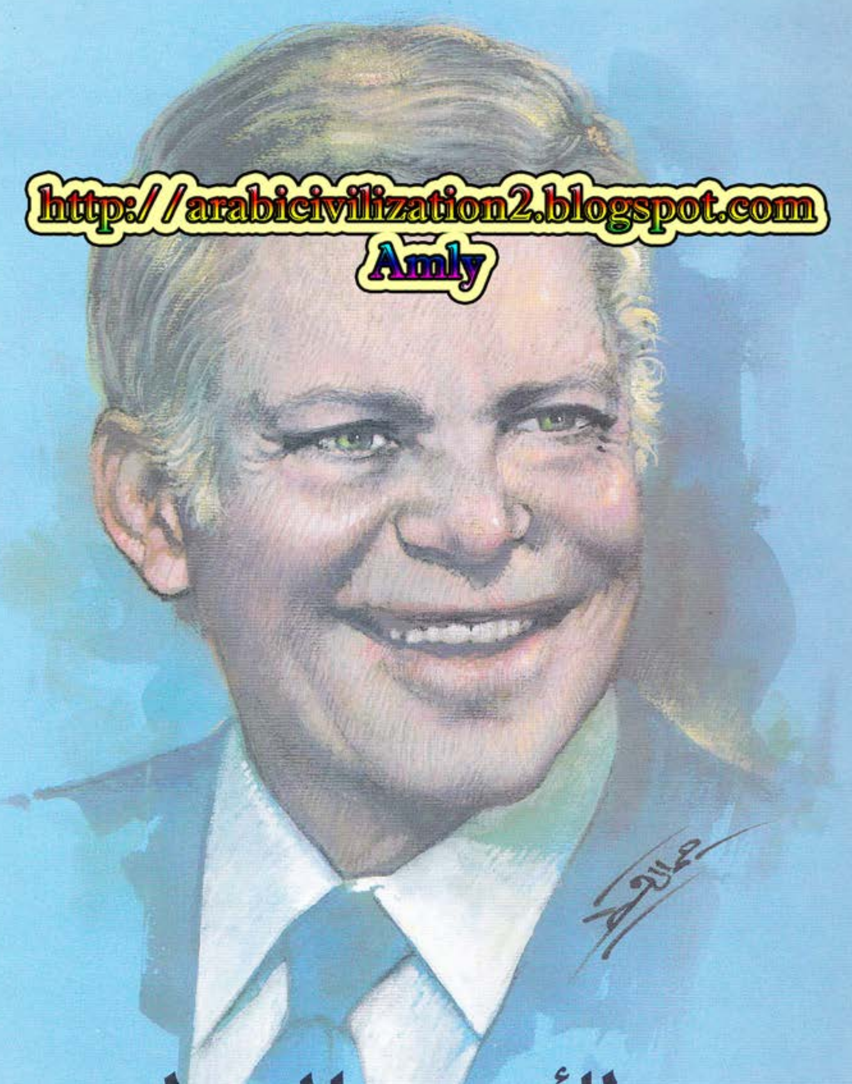
مكتبة مصر

يوسف السباعى



طائر بين المحيطين

يوسف السباعي

طائر بين المحيطين

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

الأهـــــداء .

قال لى الأستاذ توفيق الحكيم ... عندما تكتب فى السياسة لا أقرأ لك ... وأنا هنا أهديه شيئا للقراءة ...

يوسف السباعى

أيام على الأطلنطي

١ ـ ذهن ينبش في طائرة



الأرض الصفراء تنبسط أسفله .

يكرهها ... هذه الأرض الجرداء القفرة القاحلة ... ويكره كساءها من الرمال والحصى ... يكره نبتها من الشوك والحنظل ... يكره الفراغ العريض الذى لا تميز به معالم ولا تبين له حدود ...

وعندما كانت السيارة تشق به الطريق وسط الصحراء إلى الإسكندرية كان يجلس محدقا فى علامات الكيلو ... يخطفها البصر واحدة إثر واحدة .. متطلعا إلى علامات أكبر فى إحدى استراحات الحدود ... أو استراحة شل فى منتصف الطريق .

ولا يحس باستقرار حتى تلوح لعينه نخيلات العامرية بخضرتها الرمادية .. وطرحها الأحمر الأصفر فى موسم الثمر ...

وعندما انطلقت به الطائرة من مطار القاهرة متجهة إلى الجنوب الغربى عابرة الصحراء الغربية .. ألقى نظرة إلى أسفل من النافذة

المستديرة .. فلم يجد سوى فراغ أصفر عريض .. لا تلمح العين فيه بقعة خضراء ، لا حقل ولا نبع ولا نهر ولا مدخنة ولا مئذنة ولا كوخ ولا طريق .. ولا نبضة حياة .

شىء بغيض ... كبير ... أحس أمامه بالعجز ... والكراهية ... وككل عاجز يحاول أن يغلب خصمه بالأوهام ... انطلق ذهنه فى معركة وهمية مع الحصى والرمال ... يقلب ماء المحيط بعد أن يسلبها ملحها فوق التلول الرملية والهضاب المجدبة الصفراء .. لتخضر وتزهر وتثمر ... وتطعم الأفواه الجائعة ... وتنشر الرخاء ... وذكر أولئك الذين يريقون الجهد البشرى فى ابتكار أدوات التدمير وأحس أنه يحيا فى عالم المجانين .

وهز رأسه فى ضيق .

لا فائدة ..

منذ بدأ يفكر ويكتب ... لم يشغله شىء كعجز البشر عن استخراج أفضل ما يمكن لأنفسهم من دنياهم ، شىء خطأ فى تركيبهم يجعلهم لا يذكرون الحقيقة .

لا يدركون أن أرضهم لم تضق بعد بهم . إلى حد التناحر على سبيل العيش ... وأن الجهد الذى يبذل لانتزاع الرزق من أفواه بعضهم البعض ... يكفى جدا ليملأ كل الأفواه بالرزق ...

الذى يفهمه أن المفروض أن جهد المعركة لا يبذل إلا لأنه ليس هناك بديل له لانتزاع الرزق .

شىء محدود .. بينه وبين مخلوق ما .. لا يمكن لأحدهما أن يأخذه إلا إذا قتل الآخر ..

حتم عليه لكى يعيش .. أن يقتل غيره .. أتلك هى الحقيقة فى عالمنا هذا ؟!!

هل حياة جزء من العالم لا تتحقق إلاىالقضاء على الجزء الآخر ؟.

أحقيقة لا تستقر حياة الأمريكان إلا إذا قضوا على الروس .

ولا تستقر حياة الصينيين إلا إذا قضوا على الاثنين معا الأمريكان ... والروس ؟ ..

ألا سبيل إلى حياة أحدهما إلا بشحن السلاح وإعداده للقضاء على الآخرين ..

مطلقا .

لم تصل بعد دنياه .. إلى هذا الحد من الضيق ..

لم تضق بهم الأرض إلى حد ألا يوجد سبيل لعيش البعض إلا بقتل البعض الآخر ...

ما زالت جهود الإنسان يمكن أن تفسح لنا سبيلا فى الأرض بغير قتل الآخرين .

وأى ساذج يمكنه أن يدرك هذا .

ومع ذلك .. العالم فى مجموعه .. أعجز من أن يدرك .

إنه عالم من المجانين .

وهو بحكم وجوده .. وعجزه .. فى هذا العالم .. أحد هؤلاء المجانين الذين يعيشون فيه !

فكفى تفكيراً !.. وكفى قلقا ..

ورفع بصره من النافذة المستديرة المطلة على عالم الجدب المقفر الأصفر .

ونسى العالم المجنون .. كلية .. وراح يحدق فى أكثر أجزاء الطائرة جاذبية للركاب ..

.. المضيفة ...

كان آخر ما منحته .. هو الملبسة .. والابتسامة المشدودة على شفتيها .. والتى شاركه إياها .. السبعون راكبا من مختلف الألوان والأجناس .

وكانت بقايا الملبسة قد أوشكت على الذوبان فى فمه .. والابتسامة ما زالت معلقة على شفتى المضيفة .. وأرخى الحزام حول وسطه.. ونقل عينه من شفتى المضيفة إلى صدرها إلى ساقيها ..

كانت على بعضها جميلة ..

أو هكذا .. كان لابد أن تكون ..

وتناول منها بعض الصحف .. وحاول أن يقول شيئا يضحكها .. فلم يسعفه الذهن .. فقال أى شىء .. وضحكت المضيفة .. ليس لأن ما قاله مضحك بل لأنها فهمت منه أنه يريد أن يضحكها .. فشدت الابتسامة أكثر على شفتيها .. ومنحته ضحكة .. كما تمنحه .. واحد كوكا ..

وقلب فى الصحف .. وكان قد قرأها فى المطار وقرأ فيها أنه سيغادر القاهرة .. إلى أكرا .. وفرح باسمه المنشور .. كما يفرح الناس بأسمائهم وصورهم منشورة فى الصحف .. أيا كانت مناسبة النشر ..

وحاول أن ينام .. أسند رأسه إلى مخدة ألصقها بجدار الطائرة .. وأغمض عينيه .. ولكن ذهنه لم يغمض .. بل أخذ ينبش ما حوله .. كأنه دجاجة قلقة .. تنقر وتقرقر .. وتنبش الأرض بأظافرها .. دون أن تدرى ما تريد ..

وأحس بأن الاسترخاء فى الطائرة ، قد أضحى خير ما ينعم به عليه زمانه والطائرة تنساب فى هدوء كأنها معلقة فى الجو ..

لو أن ذهنه هو الآخر يثبت ويريحه من النبش والتفكير .. وحاول الذهن أن يقنعه .. أنه لاينبش عبثا .. وأنه يمنحه شيئا جميلا ... ذكريات حلوة .. نفض عنها مرارتها .. وأشواكها .. وقدمها له .. عذبة مستساغة ..

غير أنه لم يتركه يلوكها .. أو يذيبها فى قلبه .. كملبسة المضيفة .. بل استمر ينبش .. وينقله .. نقلات عشواء ..

ولم يلبث حتى خطف ملبس الذكريات من فمه .. وقذف إليه بأشياء كثيرة متعاقبة .. لا يربط بينها إلا نهاية أحدها ببداية الآخر .. حتى وجد نفسه من حيث لا يدرى ...

يموت !!

الناس يموتون فى الطائرة .. بالجملة ..

وهو فى طائرة ..

والطائرة أحيانا تنفجر ... ويموت كل من فيها .. وقد تفعلها طائرته ...

وتهدى إلى الصحافة ووكالات الأنباء .. نبأ كارثة ... ويعثر محررو الصحف الساهرون بحثا عن المانشيتات على مانشيت .. مهم محترم ..

ويكتب هو على رأس القائمة .. ومعه بقية المشاهير الذين يجلسون الآن بجواره .. دون أن يدروا شيئا عن المصير الذى دبره لهم ذهنه السخيف ..

ويبدو كأن ذهنه « استحلى » الفكرة .

لم تفزعه بتاتا .. بدليل هذا الاستطراد فى متابعة التفاصيل . بالنسبة إليه لم تكن فكرة الموت مزعجة .. كفكرة عامة .. ولكن التفاصيل .. لا تبدو مريحة .

كفكرة عامة ..

هو سيموت .. ويستريح من أشياء كثيرة .. أولها هذه الكتابة التى تبديه لنفسه وكأنه تلميذ مزمن .. لا يستريح قط من المذاكرة والواجبات .. لا يكاد يفعل الواجب إلا آخر لحظة .. وبعد أن يشبعه ضميره لوما وتقريعا .. وبعد أن يسائل نفسه مائة مرة كيف كتب آلاف الصفحات .. وكيف كانت تهمته الأولى هى الإكثار من الكتابة .. وهو يبدو أمام نفسه مثلا للكسل والهروب من الكتابة ..

وثانيها أنه سيخلص من نفسه ..

ونفسه المتعبة تحتاج إلى شرح يطول .. ليس هناك وقت لذكره .. المهم أنه سيستريح منها .

وثالثها ، هذا السيرك الذى يطوف به عبر القارات ينصبه كل بضعة أشهر .. بمترجميه .. وكتبته .. وأعلامه .. ونشراته .. وصحفه .. وضجيجه ..

بالفكرة العامة .. للموت .. سيخلص من كل هذا .. بطريقة أخاذة مثيرة ، أقل اسم لها .. كارثة ..

ولكن كيف ستحدث الكارثة ..

ما هى تفاصيلها ..

تهتز الطائرة .. وتصيح المضيفة ذات الصدر والساقين والابتسامة المعلقة على الشفتين .. فى الميكروفون .. منذرة الركاب بأن يأخذوا حذرهم ..

لم ؟!! وكيف ؟

حزام النجاة الذى تحاول شرح استعماله قبل كل رحلة .. دون أن ينصت إليها أحد ..

هل يمكن حقا استعماله ...

كلام فارغ .

سيثير إنذار المضيفة هلع الركاب .

وتبدأ الصيحات والصراخ .. والدعوات للّه .. العليم .. البصير ـ وكأن المسألة كلها بغير علمه أو إرادته ـــ .. وطبعا .. لا يستجيب اللّه .. فالمسألة ليست لعبا .. وليس هناك وقت لتبادل الدعوات واستجابتها حتى مع اللّه ..

ثم تنفجر الطائرة .

وتتطاير أجزاؤها ومعها أجزاء الركاب فى الهواء .. ذراع هنا .. وعنق هناك .

وهو ؟ . أين سيكون ..

هو .. من هو .. الرأس .. أم الساقان ؟ .. طبعا الجزء الذى سيميزه ..

ولماذا يميز ؟.

ويرى ذهنه أن التفاصيل خرافة سخيفة فيقلع عنها .. ويحاول أن يترك حانوت الجزارة الذى صوره.. إلى شيء آخر.. أكثر تأثيرا.. وأشد هيبة ..

هذه التفاصيل لم تترك فى نفسه شيئا مروعا .. لقد بدت أشبه بالكاريكاتير منها بالصورة الفوتوغرافية .

هذا هو انعكاس الكارثة فى نفسه .

ولكن كيف سيكون انعكاسها فى نفوس الآخرين ..

فى نفوس من يحبونه ..

وهو يعتقد أن هناك من يحبونه حقا لأنه يحبهم حقا ..

بل أكثر من هذا يعتقد أن كل الناس تحبه ..

لأنه يحب كل الناس ..

وبدأ ذهنه يستعرض وقع موته على هؤلاء الذين يحبونه بطريقة مرتبة دقيقة .. وكأنه مات فعلا ..

وأحس أنه يوشك أن يبكى ليس على نفسه .. بل على محبيه الذين فقدوه ..

ولم يطق التكملة ..

ونهر ذهنه عن هذه التصورات المزعجة ..

وساعدت المضيفة على استعادته من المأساة المروعة التى نسجها ذهنه حوله .. وهى تحاول أن تمد يدها لتجذب لوحة الطعام المثبتة فى المقعد الذى أمامه .

ولم تستطع أن تضع اللوحة فى مكانها ... فقد كان شاغل المقعد

الأمامى أحد هؤلاء الذين يكرهون أن يجلسوا فى وضع رأسى ويعتقد أن الطائرة طائرة أبيه .. وأن راحته هى الشيء الوحيد الذى يهم فى الطائرة فألقى بمقعده إلى الوراء حتى كاد يستقر على صدر صاحبنا المنكمش فى مقعده .

ورجته المضيفة بابتسامتها إياها أن يتفضل .. ويعقل .. ويجلس كبقية خلق اللّه ...

وأفلحت الابتسامة فى قلب الرجل على وجهه .. وأحس صاحبنا بأن عبئا انزاح من على صدره .. وبدا له أن إصرار الذهن على رحلة الموت لم يكن إلا محاولة خلاص من ضغط صاحب المقعد الأمامى على صدره وكتم أنفاسه .

٢ ـ رأس أمينة .. فى مشكلة !!



بـدأت المضيفـة تحمـل صوانـى الأكـل ... وكـانت تتحـرك كالمكوك .. بطريقة معذبة ... وتمنـى أن يعفيهـا مـن ابتسـامتها ولكنـه كان يعرف أنهـا ستأخذ قولـه علـى أنـه إحـدى المحـاولات الفاشـلة لإضحاكها .. فتضحك أكثر .. لا سعادة ولكن لتشعره أنـه ليـس أقـل من بقية السبعين راكبا خفة دم .

ويأكل .. فقد كـان يشـعر أن أكـثر مـا يسـلى فـى الطـائرة .. هـو الأكل .. وحاول أن يأكل ببطء .. لتطـول تسـليته .. ولكـن الأطبـاق الصغيرة البلاستيك فرغت فى بضع ملاعق ... ووجـد محتوياتهـا تنتقـل فى غمضة عين إلى جوفه .

وانتهى الأكل .. ودعا اللّٰه ألا يجعل صاحب المقعد الأمـامى يقـذف بمقعده إلى أقصى الوراء .. حتى لا يكتم أنفاسه .

وحاول من جديد أن ينام .. فلم يفلح .. أو أفلح دون أن يدرى .. فهو لا يعرف أبدا أنه نام عندما ينام .. ولكنه يعرف عندما لا ينام أنه لم ينم . وابتسم حسين رزق فى وجهه وأفهمه أن « سيادته » نام نوم العوافى .

وبدا صلاح عبد المتجلى يرد عليه بعض الأرقام عن الحسابات .. وهو لا يطيق التفاصيل فى الأرقام حتى ولو أضافت شيئا لحسابه .

وأخيرا ضاق بالجلسة فنهض من مقعده.. وسار فى ممر الطائرة .. وكأنه يتمشى فى الممر التجارى .. وجلس برهة بجوار السيدة الرقيقة بهية كرم .. وصالحها .. فهو يعرف أنه لابد أن تكون واخدة على خاطرها من شىء ما ..

ومر بزملاء الرحلة ، وضحك مع سهير وأمينة وخالد وإحسان .. ثم استقر بجوار مختار قطب يجتران الذكرى ..

وأمسك بخريطة فى يده يحاول أن يطابق معالمها على بعض ما بدا له من معالم الأرض .

ولم يفلح .. فقد كانت الأرض بلا معالم .. والخريطة بلا معالم .. وهو يحب قراءة الخرائط وتطبيق معالمها على الأرض .. يحب دائما أن يعرف أين يكون .. وإلى أين يسير ... وماذا يحيط به .. وأين هو من كل ما حوله .

وهبطت الطائرة فى مطار كانو ... إحدى مدن نيجيريا .. ولم يحاول أن يثقل كتفيه بالجاكتة ، ويشد عنقه بالكرافتة .. فقد وجد أن الحياة خير من الوقار والهيبة .. وأن يعيش بالقميص والبنطلون خير من أن يختنق بالجاكتة والكرافتة ..

ولم يطل به الجلوس فى المطار .. شرب شيئا باردا .. وتحدث مع الأصدقاء حديثا معادا .. وتأمل ما حوله .. ومن حوله .. فلم يجد به شيئا يبقى فى الذهن .. يمكن أن يسترجعه عندما ينبش ماضيه ..

ليجتره على الورق ...

وعاد إلى الطائرة .. يستحثها مع بقية الركاب . للصعود إلى السماء .. والنجاة بهم من ألسنة اللهب التى تلاحقهم من جحيم الأرض ..

واتجهت الطائرة إلى مهبطها الثانى فى لاجوس ، ولم تكن المسافة طويلة .. وكانت الخضرة قد أخذت تتكاثر فى الأرض .. تحجبها كتل من سحاب يتكاثف أحيانا حتى يصل إلى السواد .

وكان قد استقر هذه المرة بجوار إحسان .. وتحدثا عن السياسة والصحافة والحب والشيب الذى غزا ليس فقط مفرقيهما ـــ كما قال كامل الشناوى ـ ولكن كل بقعة من رأسيهما ، والذى لا يراه كل منهما إلا فى رأس الآخر .

وقطع حديثهما .. طقطقة فى ميكروفون الطائرة .. ثم صوت المضيفة يرجو من الركاب .. الرجاء التقليدى بشد الأحزمة على الوسط .

ولم يهتم الركاب كثيرا برجاء المضيفة .. ولا سأل أحدهم لماذا ..

ربما لأن شد الحزام على الوسط .. قد تأكد لكل منهم .. أنه أحد المظاهر التى يمارس بها قائد الطائرة سلطانه على الركاب .

وكانت المضيفة ذاتها خير مبرر لعدم إنصات الركاب إلى رجائها .. وهم يرونها تواصل حركتها بينهم فى ثقة بعد أن أطلقت إنذارها بشد الحزام .

ومع ذلك .. رغم استخفاف الركاب .. وجد يديه تمتدان ببساطة لتلبى رجاء المضيفة وتشد الحزام على وسطه ..

ربما لأنه اعتبر عدم شد الحزام استخفافا بالمضيفة .. فأراد أن يشده مجاملة لها .

وربما لأن طبعه يحتم عليه ألا يرفض طلبا .. ما دام يستطيع أن يجيبه ..

وربما لأن مبدأه .. إراحة الناس .. ما دامت راحتهم لا تتعب الغير ..

وربما لأن عشرين عاما فى العسكرية غرست فيه الطاعة التلقائية ..

المهم أنه شد الحزام على وسطه .. رغم يقينه أنه عمل — كثلاثة أرباع الأعمال التى يؤديها ومن بينها الكتابة طبعا — بلا فائدة (الربع الباقى من أعماله لم يستثن لأنه مفيد .. بل لأنه مؤذ .. كالأكل .. ونصح الناس .. ومص الثلج .. والزواج .. وغيرها من الأعمال المؤذية) .

وهكذا شد الحزام على وسطه بلا وعى .. واستمر يتحدث مع إحسان .. ويمارس هوايته المحببة فى مص الثلج ..

وفجأة .. وبغير سابق إنذار (إذا أسقطنا الإنذار الوهمى بشد الحزام) أحس بجوفه يغوص إلى أسفل .

وكلمة يغوص .. كلمة مخففة .. فالغوص .. يحمل معنى البطء .. ولكن ما حدث كان شيئا أشبه بالانتزاع أو الجذب العنيف ..

ولم يدرك حقيقة ما يحدث .. لم يعرف سوى أن جوفه ينتزع إلى أسفل .. وقطع من الثلج وسيل من الماء يتهاوى على رأسه .. وإحسان يتعلق بكلتا يديه فى ذراعه .. وصيحات فى الطائرة ..

وانتظر فى صمت واستسلام توالى الأحداث ..

هذا الشيء العنيف الذى حدث .. لم يحدث له من قبل .. على طول عهده بركوب الطائرة ..

ولم تكن لديه فرصة للتفكير .. فيما يمكن أن يكون حقيقة هذا الشيء .. ولا ما يمكن أن يؤدى إليه ، ولم يمنحه عنف الهزة فرصة توقع عواقب أخطر وأعنف .. ولا دارت بخلده فكرة الموت .. التى يحلو لذهنه أن يلوكها ويتسلى بها فى أوقات الهدوء ..

ومرت برهة .. دون أن يحدث شيء جديد .. وعاد الوعى إلى الأذهان المشدوهة .. ولانت الأجساد المتصلبة فى أماكنها .. وامتدت الأيدى لتتحسس وتحركت العيون لتبحث وتفحص ..

ومست أصابعه .. شعره .. تتحسس بقايا الماء والثلج المتساقطة من سقف الطائرة ..

ولم يستطع أن يدرك لأول وهلة لماذا تسقط الطائرة ثلجا من سقفها .. وعلى رأسه هو بالذات ..

ونظر إلى الكأس الموضوعة على ذراع المقعد بجواره .. فإذا به فارغة .. لا ماء ولا ثلج ..

لابد أن يكون إذن .. هذا الثلج المتساقط على رأسه ... قد انتقل من الكأس إلى السقف ومن السقف إلى رأسه ..

وتبلورت المسألة كلها .. بالنسبة إليه .. فى هذه المشكلة ..

كيف قطع الثلج هذا .. المشوار من جوف الكأس على ذراع المقعد إلى السقف إلى رأسه .. دون أن تغادر الكأس موضعها على ذراع المقعد ؟

ولكن يبدو أن المسألة بالنسبة إلى الغير كانت أعوص من هذا .. بالنسبة لإحسان الذى تشعلق فى ذراعه .. كانت تأكيدا بأن الطائرة ستهوى .. وأننا سنتطاير مع الريح .. وبالنسبة لأمينة السعيد كانت كدمة فى رأسها نتيجة ارتطامها بسقف الطائرة .. ولم يشغلها بالطبع كيف قطعت رأسها المسافة بين ظهر المقعد والسقف ..

ولكن شغلها هل ستواصل رأسها عملها .. بعد هذا المشوار أم لا ؟ ..

أما بالنسبة لمختار قطب.. فلم تكن معضلته كمعضلتى .. أو كمعضلة أمينة ..

كانت معضلة مختار قطب .. هى معضلة جسده كله !!

كيف قطع المسافة من قاعدة الكرسى .. إلى السقف .. إلى أرض الطائرة ..

ومختار قطب من أكفأ المحامين ..

وهو لاعب هوكى قديم .

ولكنه قطعا لم يعمل .. فى سيرك الحلو ..

وأقبلت المضيفة لتدعك رأس أمينة بالكولونيا ولضبطه فى موضعه بعد رحلته الخاطفة .. بين المقعد والسقف .. ولعل أصحاب المشاكل فى المصورلم يلحظوا تغييرا يذكر فى استشاراتها بعد الرحلة .

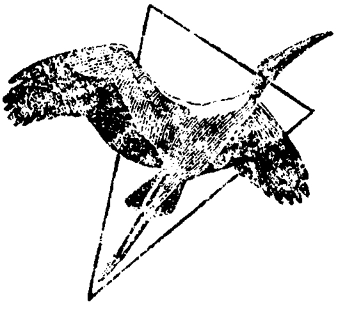
ورفعت المضيفة مختار وأعادته إلى موضعه الأصلى فى المقعد .. وطلبت منه أن « يبطل شقاوة .. ولا يقعدش يتنطط من الكرسى للسقف للأرض » .

ودارت على بقية الركاب ... لتضعهم ـ أو لتضع أجزاءهم ـ فى أماكنهم .

وسألته عما يريد فأشار لها أن تملأ الكوب بالثلج مرة أخرى .. حتى يواصل التنطيط إلى السقف ومنه إلى رأسه .. لأنه منعش ..

وسألها أن تجذب إحسان المعلق فى ذراعه وتخبره أن الطائرة لن تتحطم .. وأنها فقط طبت خمسمائة قدم مرة واحدة .. وأن يشد الحزام جيدا على بطنه لأن أمامها مطبات أخرى ، ولم يكن فى حاجة إلى نصيحة أحد ـ بعدما حدث ـ إلى أن يشد الحزام .. لأنه أقسم أن يشده حتى فى البيت على مائدة الطعام .

٣ - إلى وينبا .. والمرافق على كتفه !



من جديد عادت المضيفة تنذر بشد الحزام ..

وكان فى إنذارها هذه المرة استعدادا للنزول فى لاجوس ..

وفى غمضة عين كان كل الركاب قد شدوا الأحزمة على بطونهم حتى كادوا يفعصونها ..

وهبط من الطائرة فى لاجوس .

وقابلته ألسنة اللهيب .. وأكداس الرطوبة التى تثقل الأنفاس ..

وخرج من وسط النسمات المحرقة .. صديقان يشدان على يديه فى حرارة وترحيب .

خرجا إليه كمصريين .. يتوقان لكل وجه مصرى .

والمصرى فى غربته لا يتوق إلى شىء .. كالمصرى .

جربها فى كل مكان .. مهما نـأى المكـان وطـالت الغربـة .. كـان المصرى يقبل عليه فى لهفة .. ويشد على يديه فى حرارة وكأنـه شـىء له قيمة ..

وجلس إلى الصديقين المصريين فى لاجوس .. أحدهما مسئول عن المركز الثقافى والآخر مسئول عن شركة النصر .. وأحس من الدقائق التى أمضاها معهما ... بأنهما يفعلان شيئا طيبا .. لمصر .. ولإفريقيا .. ويقومان بخير ما يمكن أن يشد شعوب إفريقيا بعضها لبعض .. ثقافيا .. واقتصاديا ..

وعاد يسير إلى الطائرة .. وعادت المضيفة من جديد .. تعلق ابتسامتها على شفتيها .. وتوزع الملبس على الركاب ..

ولم يحاول أحد من الركاب أن يبادلها الابتسام .. ربما لأن كلا منهم .. لم يعد يطمئن لابتسامتها .. بعد أن أدرك أنها لا تحمل شيئا من دلائل الابتسام .. لقد كانت تبتسم قبل الوثبة إياها التى وثبتها الطائرة فى جوف الفراغ .. وكانت تبتسم بعدها .

وأغلب الظن أنه لم يكن لديها الوقت لكى تخلع ابتسامتها خلال الرحلة الداخلية التى بلا جدال قد شاركت الركاب فى القيام بها بين الأرض والسقف .. والسقف والأرض .. وانتهت بها إلى التكوم أسفل المقاعد ..

وبدا الركاب مصلوبين إلى المقاعد .. من فرط شد الأحزمة على بطونهم .. وعندما استقرت الطائرة فى الجو .. وأصدرت المضيفة تعليماتها بفك الأحزمة لم يحاول أحد فكها .. بعد أن أدرك كل منهم أن الاستقرار على مقعد الطائرة .. أكثر وقارا من التسكع بين أرضها وسقفها .

وبدأ هو تطلعه من النافذة ..

ولم يكن يتطلع هذه المرة إلى أسفل .. بل كان تطلعه إلى الأمام .. ولم يحاول أن يقرأ معالم الأرض .. بل انهمك فى قراءة معالم السماء .

لقد عرف الجميع ـ ومن بنيهم هو ـ أن المنطقة القادمة حتى أكرا ملية بالمطبات الهوائية .. تماما كالمنطقة بين كانو ولاجوس .. كما عرفوا أيضا أن هذه المطبات التى عبث بهم أحدها ، ورجهم كزجاجة الدواء المطلوب رجها جيدا قبل الاستعمال .

وعرف هو .. بالإضافة إلى هذه المعلومات العامة غير المريحة .. أن نوع السحاب الذى يهوى هذا العبث بالطائرات .. ويضعها فى مطبات فجائية لا لزوم لها ولا مخرج منها .. هو السحاب العمودى الداكن .

وهكذا وجد نفسه .. يبحث عن السحب العابثة التى تهوى هذ المزاح الثقيل .. الذى لا تحتمله الطائرة .. ولا ركابها .. والذى يمكن ببساطة أن ينقلب جدا .. وتصبح الرحلة الداخلية من أسفل إلى أعلى .. ذهابا وإيابا .. رحلة بلا عودة .. رحلة إلى أعلى فقط .. حيث الطريق إلى الله غير بعيد .. وحيث انطلاقة أعضاء الجسد ، أو أشلائه متفرقة فى الجو .. يجعل استقرار الروح فى الجسد أمرا جد عسير .. ولا تجد أمامها خيرا من الانطلاق متحررة من هذا الجسد الذى طالما أثقلها بمطالبه .. ومتاعبه .. ورغباته المحرمة التى يشكل حصوله عليها خطرا على مصيرها فى الآخرة .

وبدا له أن هناك بعضا من هذه السحب المروعة تلوح من بعيد أمام الطائرة .. وتمنى لو وثب إلى حجرة القيادة ليحذر منها الكابتن .. ويطلب منه أن « يمسك يمينه » حتى تمر السحابة .. وكأنه سائق تاكسى فى شارع رمسيس .

وعبرت الطائرة السحب بسلام .. دون أن تفلح إحداها فى جرها إلى مطب من المطبات .. وبدأ الإحساس بنهاية الرحلة يسود الطائرة ..

وخلعت المضيفة ملابس الخدمة .. وبدأت الطائرة عملية الهبوط فوق أكرا .. ومن جديد عادت المضيفة تطلب شد الأحزمة والامتناع عن التدخين .

واستقرت الطائرة أخيرا فوق الأرض .. وأطلق تنهيدة أنهى بها إحدى مراحل التعب .. واستقبل بها مرحلة جديدة .

وتعب الطائرة تعب غريب ..

عشر ساعات ما بين إغفاء واستلقاء واسترخاء وسرحان وقراءة وأكل وشرب وثرثرة .. وممارسة كل مظاهر العطلة والفراغ .. ومع ذلك لا تكاد تنتهى الرحلة ويهبط الإنسان من الطائرة ويستقر على الأرض .. حتى يشعر بفرط الإرهاق وشدة التعب .. ولا يعود لديه من أمل أكثر من أن يخلع ملابسه ويغتسل ثم يتمدد على فراش .

وبمثل هذ الأمل هبط من الطائرة ، ليلقى مع رفاقه .. مستقبليه المحترمين .. ليقدموا إليه كل شيء إلا هذا الشيء الذى يريد .

أحضان .. وقبلات .. وأسئلة تنهال بلا انتظار لإجابة لا رغبة فيها ، عن الصحة والأحوال والرحلة والدنيا ..

ووجد نفسه ينسى آماله فى الاستحمام والراحة والوحدة .. ويندمج مع رفاقه ومستقبليه .. يحضن هذا .. ويقبل ذاك .. ويستوحش ثالثا .. ويمزح مع الرابع ..

آخر شيء يحب أن يبعده عن نفسه .. هو تلك الآمال الحمقاء .. فى الراحة والاسترخاء .

يجب أن يفكر فى آمال أخرى .. أقل أستحالة ..

آمال يكون لها علاقة بالناس ..

وكان عليه أن يستشعر السعادة ..

الجو .. حار جدا .. رطب جدا .. والعرق يلصق الملابس بجلده .. وضجيج الطائرة ما يزال يطن فى أذنيه وفى رأسه .. ومزيد من الكلام

ينتظره .. وعضلات الضحك فى وجهه .. لم يحن بعد الوقت لإرخائها .. بل عليها أن تنشط وتتحرك .. وتنبسط وتنقبض .. وتدفع الابتسامة إلى شفتيه .. والقهقهة من حنجرته إذا استدعى الأمر .. إذا كان المقصود بالحديث نكتة ..

وأقبل يحيى السفير .. فريد عبد القادر ..

ولم يحمله استقباله كثير مشقة .. إذ لم يجد ما يدعو لتكلف شىء ما لتحيته واستقباله .. فقد كان زميله فى الدراسة .. وهو بسيط .. لم يحاول أن يتكلف مظهرا من المظاهر .. وبالتالى لم يدفعه إلى تكلف مظهر مقابل .. بل رد على تحيته الحارة المخلصة بتحية حارة مخلصة مثلها .. بلا كبير جهد أو مشقة .

ولقى مساعديه كمال ومرسى .. واستطاع أن يلتقط فى دقائق ، خلاصة الحالة .. ولم يستشعر فيها جديدا .. غير الذى تعود أن يجده فى كل رحلاته السابقة ..

وأقبل مع رفاقه على صالة المطار .. ومن جديد أخذ يحيى ويضم ويقبل .. وجوه يعرفها .. ووجوه يذكرها .. ووجوه كأنه يعرفها ..

الجو خانق والزحام شديد ..

وصحفى يسأله عن أهداف المؤتمر ومدى ما ينتظره من نجاح والخلافات المتوقعة .. وأشياء أخرى أصبحت من فرط ما سئل عنها وأجاب عليها كأنها : « ازاى الصحة » أو « سلامو عليكم » ومع ذلك رد باهتمام وكأنه يسأل لأول مرة .. وانسابت الردود من فمه كأنها قطعة محفوظات .. على شفتى التلاميذ .. « الحمد لرب مقتدر » على ألسنة الشحاذين .

ووقف وسط مجموعات للتصوير .. وابتسم فى سعادة .. وشد على ذراع هذا .. وضغط على يد ذاك ..

ولم يستشعر حقيقة أى ضيق ..

وأحس كأنه قد أضحى محترفا ..

محترف سلامات وابتسامات .وأحضان وقبل .. وأحاديث صحفية .. وتصريحات .. وبيانات ..وتصوير ، وحماس .. والتسليم بمعرفة الناس .. كل الناس .. ببساطة .. وبغير محاولة للتذكر .. أو التأكد .

وأخيرا انتهت عملية المطار .. وبدأ الاستعداد لمغادرته .. ومن جديد عاد الأمل الحلو .. فى الاستحمام والاسترخاء يراود نفسه ..

عجيب هذا الآدمى ..

يلف .. ويدور .. ويدوخ ..

ثم يعود مرة أخرى .. إلى أمانيه البسيطة ..

مجرد نومة مريحة .

ولا يكاد يسترخى فى نومته .. حتى يشب .. ليتعب ويشقى .. ويهلك .. ثم يعود من جديد إلى أمنيته .. الأولى :

راحة واسترخاء .. وإغفاء ..

ورغم كل هذا يفزع .. من الإغفاءة الحقيقية .. الإغفاءة الدائمة .. العميقة .. التى لا خوف فيها من أرق .. أو قلق .. بل نوم طويل .. طويل .. عميق .. عميق ..

ولم يشعر أن أمله فى الراحة قريب .

وكان عليه أن يقطع رحلة أخرى بالعربة .. أربعون ميلا .. ولم يكن بد مما ليس منه بد ..

ولم يكن المؤتمر سيعقد فى أكرا .. بل فى بلدة وينبا .. حيث أقيم المعهد الأيدلوجى .. الذى كان سيتخذ مقرا للمؤتمر .

وقيل إن السبب هوامتلاء فنادق أكرا .. وعدم وجود أماكن تتسع للوفود ..

ولم تكن هناك خيرة ..

إذا كانت أكرا قد استعصت .. فلم لا تكون وينبا .. ومن أكـرا .. لوينبا .. أربعون ميلا .. ويا قلبى لا تحزن . وبدأ الرحلة الجديـدة.. فـى ظلمة الليل .. واجتازت العربات طرقات أكرا .. لتخرج من جديد إلى الخلاء .. متجهة إلى وينبا ..

وحملـت حركـة العربـة فـى الطريـق .. نســمة منعشــة .. كـانت حارة .. مشبعة بالرطوبـة .. ولكنهـا مـع ذلـك مـلأت صـدره بـالهواء ولفحت وجهه المتصبب عرقا .. فأحس ببرودة العرق المتبخر مع الهواء .

وجلس فى المقعد الخلفى بين مختار والمرافق الغانى ..

ولم يكن يعرف أول الأمر.. من يكون ولمـاذا وضـع نفسـه ببسـاطة بجواره كأنه صاحب العربة ..

ولم يحاول أن يسأل .. فلم يكـن هنـاك فـائدة مـن السؤال .. لقـد ركب بجواره واستقر بقرب النافذة .. وحشره بينه وبين مختار ..

أيا كان .. لقد وجد .. وسيبقى حتى نهاية الرحلة إلى وينبا .

وتحدث الرجل بعد أن سـارت العربـة بضعـة أميـال .. وعـرف أنـه مرافق له ، وليس صاحب العربة كما توقع .

وصمت المرافق بعد هذا .. لم ينبس بكلمة .. وتبادل هو مـع مختـار بضع كلمات .. بلا هدف .. تبينا بعدها أن الصمت أريـح .. فسـكت كلاهما ..

ولم يبد من معالـم الطريق شىء .

طريق مغرق فى الظلام .. لا يبدو منه إلا ما يقـع فـى دائـرة الضـوء الذى تطلقه فوانيس العربة ..

وخارج مخروط الضوء .. تتكاثف الظلمة .

ظلمة لا تميز مـا بهـا أو مـا وراءهـا ، ولكنهـا توحـى بـأكداس مـن الغابات المتكاثفة ..

وسمع شخيرا بجواره ..

وأدرك أن مرافقه قد استغرق فى النوم .

ولم يعرف لماذا أرهق نفسه فى مرافقته .. وأرهقه فى حشره فى العربة .. إذا كانت مهمته النوم .. لقد كان يستطيع أن يقوم بها فى مكان أهدأ وأوسع .. فيريحه ويريح نفسه ..

وحمد الله على نومه ..

ومثل هذا النوع فى مثل هذا الظرف يكون تشخيره مهما علا شخيره خيرا من أى ثرثرة تتطلب إنصاتا أو إجابة .

ولم يجد فى نفسه رغبة فى النوم أو الاسترخاء .. لقد تعب .. حتى تعود التعب .. ويئس من الراحة حتى صد نفسه عنها .. وأحس بشىء يضغط على جانبيه .. وتبين له أن المرافق النائم قد بدأ يميل ناحيته .. وقذف بثقله عليه .

ولم يدر .. ماذا عليه أن يفعل .. الشخير .. معقول .

فلم يكن يتصور أنه يمكن أن يسمع فى الطريق أصواتا أفضل .

لم يتصور أن يسمع مثلا « أنت الحب » أو « ماذا أقول له » .

والانحشار بين السيد المرافق وبين مختار – أيضا – يمكن أن يحتمل ما دام شيئا لا مفر منه ..

ولكن أن يحمل جسد المرافق النائم على جانبه .. فقد أحس أنه شىء يجب مقاومته .

ومع ذلك تذرع بالصبر .. واستمر يحملق بعينيه من الطريق تارة وفى قفا السائق تارة أخرى .

وفجأة أحس بشىء يسقط على كتفه ..

وكان هذه المرة .. رأس المرافق .

وهدأ المرافق فى نومته واستراح تماما ...

ألقى بجسده على جانبه ... ورأسه على كتفه .. وأطلق تنهيدة ملؤها الراحة ..

ونظر إلى مختار يستشيره .. قائلا :

ـ مختار ...

وأجاب مختار والنعاس يغالبه :

ـ فيه حاجة ؟

ـ أيوه .. الأستاذ المرافق نام .

ـ خليه ينام ..

ـ ده نايم على كتفى ..

وضحك مختار .. وحمد اللّه ... أن ليس له مرافق .. لينام على كتفه .. وأيقظ المرافق فى رفق .. وسأله أن يريح رأسه على الجانب الآخر .. حتى لا يلتوى عنقه ..

ولكنه نظر إليه فى شيء من الدهشة .

ثم أغمض عينيه .. وعاد يسقط رأسه على كتفه ويواصل إغفاءته ..

وأدرك أن عليه أن يقطع المشوار إلى وينبا والمرافق على كتفه .. وأطلق تنهيدة قصيرة .. وقال لنفسه :

ـ يعنى جت على المرافق .. خليه يأخذ راحته .

وأخيرا بدت أنوار وينبا من بعيد .

وحملت الأنوار إلى نفسه الإحساس بقرب تحقق أمله فى الاستحمام والراحة .. وحملت .. أكثر من هذا .. رأس المرافق عن كتفه .

واخترقت العربة شوارع البلدة النائمة .. وأحس بشيء من الراحة وهو يرى بيوتا على جوانب الطريق .. وأضواء تكسر حدة الظلمات المتكاثفة .

ووصلوا إلى مبنى المؤتمر .. معهد الأيدولوجى فى وينبا .. وبدأت عملية البحث عن حجرة .. عن فراش .. عن حتى مجرد مرتبة .. يلقى بجسده عليها .

٤ ـ البحث عن فراش !



أقبل ورفاقه على قاعة الاستقبال .. استقبال الأعضاء الوافدين وتحويلهم إلى حجراتهم ..

والقاعة مليئة بخليط عجيب من الوفود المرهقين .. والمستقبلين المتعبين الضائقين بالوفود .. ومشاكلهم ..

والجو خانق .. والليل .. والبحر .. عاجزان .. عن أن يمنحا الكون نسمة باردة عليلة .. والعرق .. يقطر من الأجساد .

ودورق مياه يبدو فى يد فتاة غانية .. وقد علاه الندى .. وكأن ماءه مثلج ..

وامتدت يده بطلب كوب ماء من الآنية الزجاجية المغبشة .

ومست المياه حلقه فإذا بها ساخنة .. وإذا بالندى فوق الزجاج مجرد رطوبة .

حتى أمله فى كوب ماء بارد قد تبدد .

واستقر على أحد المقاعد يرقب فى استرخاء ..

لم يكن أمامه سوى هذا .

وبدت الأرض مفروشة بالحقائب .. والمقاعد قد استلقى عليها رجال نصف نائمين ينتظرون فراشا يستقرون عليه .

وفتيات غانيات شدت أجسادهن بثيابهن الطويلة ، وأخذن يتحركن رائحات غاديات وكأنهن يفعلن شيئا .

وكانت حركتهن فى نظره .. مجرد عمل .. حتى ولو لم يؤدين عملا .

كانت حركتهن رشيقة .. دون أن يتكلفن جهدا.

كانت مشيتهن بطبيعتها .. شيئا أشبه بالرقص .. وخصورهن الضيقة .. وأردافهن المعلقة فى أجسادهن كما تعلق الثمرة من عنقها فى فرع الشجرة .. تؤرجحها مجرد هبة نسيم .. أو هزة يد ..

ورءوسهن المرفوعة كأنما يحملن عليها جرار ماء يخشين عليها أن تراق .. وصدورهن .. بارزة تتحدى ..

كل هذه الأشياء الموزعة بإحكام على أجسادهن .. جعلت من حركة تلك الأجساد .. وأرجحة الملحقات المعلقة عليها .. عملا فى حد ذاته .. يكاد يشبه الرقص .. إن لم يكنه ..

وأخذ _ بغير وعى _ يرقب تلك الأجساد تروح وتغدو .. تحمل ماء أو لا تحمله .. تفعل شيئا أو لا تفعله .. كان يكفيها مجرد الحركة .. لكى تكون عنصرا جذابا .. فى ذلك الجو الخانق .. المرهق .

وبدا له رجل يقف وراء مكتب .. استطاع أن يجذب نظره .. عن الأجساد الراقصة التى تتحرك فى رشاقة ..

لقد بدأ الرجل شيئا هاما .. ربما كان أهم ما فى القاعة .. فقد كان هو موزع الحجرات .. ومانح فرص الاستقرار فى وينبا ..

كان هو المفوض الإدارى من غانا .. والمسئول عن إقامة الوفود .. وإعاشتها .

وسمع أحد مساعديه يقول :

ـ ولكننا اتفقنا مع مستر ويلبك على أن ...

وقاطعه الرجل فى هدوء :

ـ أنا هنا فى مكان المعركة .. وأعرف أكثر مما يعرف مستر ويلبك .. ولابد أن أنفذ النظام الذى وضعناه .

وأخذ يرقب الرجل ..

وهو يحب أن يرقب الناس .. حتى ليكاد وهو منهمك فى مراقبته .. أن ينسى ما يجب أن يفعله معهم .. أو يشرد عما يمكن أن يسمعه منهم ..

ويحس فجأة بأن عليه أن يجيب على سؤال لم يسمعه .. أو يهز رأسه بالموافقة على شىء لم يفهمه .

وبدا الرجل ممتلىء الجسد .. سمين الوجه .. بانبعاج طبيعى فى بطنه يتلاءم مع جسده الربعة الممتلئ ، وبقسماته معالم طيبة .. يشوبها إصرار على الرأى .. نتيجة قلة الحيلة وحب الرئاسة .

وبعد نقاش بدا أنه لن ينتهى .. بدأت الحركة تجاه أماكن الإقامة .

وكانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل .. ولم يعد أحد من فرط التعب يأبه لشىء سوى أن ينام.. حتى الأجساد الراقصة المتأرجحة قد فقدت تأثيرها .. وأخذت الوفود تغادر القاعة المتسعة ذات السقف العالى والجدران البيضاء السميكة .. متجهة إلى الأبنية المتناثرة وسط الأشجار والظلام .

وقادوه مع زملائه إلى مبنى كبير سموه مبنى إفريقيا ..

وصعد إلى الدور الثالث فى مبنى فخم جديد .. لم يستعمل بعد ..

واستقر بحقائبه أخيرا فى شىء أشبه بشقة صغيرة .. بها حجرة للنوم .. وحجرة للجلوس وحمام نظيف .

واستقر بجواره .. فى الشقة المجاورة .. خالد محيى الدين رئيس الوفد العربى .

واستقرت السيدات الثلاث بهية وسهير وأمينة فى شقة مماثلة فى الجانب الآخر من المبنى .

وكانت الشقة رحبة .. ولم يكن هناك حاجة إلى حجرة جلوس .. كان يكفى جدا .. حجرة نوم .. أو حتى مجرد فراش .

ودعا إحسان لمشاركته الشقة ..

واستقر إحسان فى حجرة النوم بعد أن أصر هو على كرم الضيافة وعلى أن ينام فى حجرة الجلوس .. وذهب هو يبحث عن فراش .. يضعه فى حجرة الجلوس .. ولم يكن هناك خدم .. فانطلق فى المبنى وحده يبحث عن فراش .

ولم يجد فى الأمر مشقة ، فلم يكن هناك فى المبنى أكثر من الأسرة ..

وفى إحدى الحجرات المجاورة عثر على عدة أسرة ذات طابقين .. وبدأ ينفض عنه النعاس .. ويجر السرير من مكانه إلى حجرته بمساعدة كمال بهاء الدين .. محدثا أكبر ما يمكن من الضجيج الناتج من احتكاك عجل السرير بالأرض .

وأدخل الفراش إلى الحجرة ..

وبدأت عملية البحث عن مرتبة .. وحمل المرتبة على كتفه وانطلق يعدو بها إلى حجرته .. وقذف بها على الفراش .

وبقيت بعد ذلـك مشـكلة المخـدات .. واسـتطاع أن يلطـش بضـع مخدات من حجرة أخرى .

وأخيرا أعد الفراش .. ونظر إليه فى سعادة .

يستطيع الآن أن يحقق أمله ... وأن يرقد .

أن يمدد ساقيه ويتمطى .. ويتمرغ على الفراش .

منذ أن ترك القاهرة .. فى الصباح .. البعيد .. البعيد جـدا .. كأنـه من أجيال سحيقة .. وأمنيته هى التمطى على فراش ..

وها هو الفراش قد أصبح أمامه .. وفراش بطابقين ..

سيستعمل بالطبع الطـابق العلـوى حتـى يصبـح علـى وش الدنيـا .. وحتى تجىء رقدته بمستوى حافة النافذة العريضة القائمـة بعـرض الغرفـة وحتى يـرى أمامـه الأرض المتسـعة .. بمـا فيهـا مـن أشـجار وأنـوار .. وينصت إلى صوت البحر يهدر من بعيـد لعـل فـى صوتـه .. بعـض مـا يحمل عنه تلك الحرارة الخانقة ويحمل إليه بعض النسيم الموهوم ..

الفراش أمامه .. بمرتبة وثيرة وملاءة نظيفة .. ومخدة طرية ..

وثبة واحدة يمكن أن تحمل جسده إليه .. وتمنحه حلمه المـأمول فـى الراحة والاسترخاء .. فقط .. لم يبق إلا الاستحمام .

أجـل .. إن الحمـام يبـدو متسـعا .. نظيفـا .. وسـيملأ حـوض المياه .. ويلقى بجسده فيه . ويغمض عينيه .وسرح .. وليكن بعـد هـذا ما يكون .

ليس أجمل فى الحِياة من استلقاء فى الماء فى آخر ليل مرهق .. يغفى خلاله نصف إغفاءة .. ويترك جسده ليسترخى وأنفاسه تتردد فى يسـر وسهولة .

وانطلق إلى الحمام ليفتح الصنبور ، ويستمتع بصوت المياه يتدفق فـى أرض الحوض .

وفتح الصنبور على آخره .. ولكن قطرة واحدة لم تنزل من فتحته ..

وعاد يفتح بقية الصنابير .. وسمع صوت إحسان يأتيه من فراشه :

ــ بتعمل إيه ؟

ــ بملأ البانيو .

ــ بانيو مرة واحدة .. طب قول أغسل وشى ..

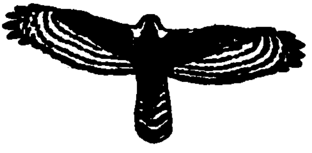
وقال فى يأس :

ــ طب زى بعضه أغسل وشى ..

ولم تكن هناك فائدة .. فقد كانت المياه لم تصل بعد إلى المبنى .

وكان عليه أن يأوى إلى الفراش العلوى .. بكل ما يحمل من أتربة السفر وعرقه ..

٥ - البحث عن ماء المحيط



استيقظ فى الصباح على صوت دقات بالباب ..
ووجد وجه خالد يطل من وراء زجاج النافذة قائلا :
- إيه ده .. احنا حانفضل كده من غير ميه ..
ونهض ببطء فاستوى على الفراش العالى ونظر إلى خالد فى ابتسامة هادئة قائلا :
- هو لسه مافيش ميه ؟
- ولا نقطة ..
ووثب من الفراش فاستقر على الأرض واتجه إلى الباب قائلا :
- تعال ..
- نعمل إيه .. ؟
- نقعد نفكر ..

- ودى عايزه تفكير .. مافيش ميه .. ولازم نحلق ونستحمى .

وكان الجو ما زال رطبا خانقا .. والعرق يتصبب من الأجساد ..

ووقف فى الشرفة العريضة يرقب الخضرة والأشجار المتكاثفة والأبنية المتناثرة هنا وهناك .

ومن وراء الأبنية بدت زرقة المحيط فى الأفق العريض وأحس بحنين مفرط إلى المياه الباردة ، ولم يجد أكبر من المحيط يمكن أن يغرق فيه غبار السفر وعرق الحر والرطوبة .

والتفت إلى خالد قائلا :

- طب ما نروح البحر ناخد غطس .

- والميه المالحة ؟..

- مالها ؟..

- تشيلها أزاى من على جسمك ؟.

- مش ضرورى نشيلها ..

- ازاى بقى .. تفضل بالملح على جسمك طول اليوم .. لازم ناخد دش بعد الحمام ..

- طب معلهش .. خلينا دلوقت نشيل العرق والتراب ونفوق ، وبعدين نفكر فى الملح ..

وهبط الاثنان بالفوط على كتفيهما والتقى بهما على الدرج عبد الخالق علام .. وسار الثلاثة أشباه عرايا متجهين إلى المحيط .

وبدت الوفود كلها منطلقة فى الأرض الخضراء باحثة عن المياه .. عينات من البشر من كافة بقاع الأرض .. شبه عارية .. يابانى بالفانلة والسروال يمسك بفرشاة الحلاقة .. وآخر بفرشاة الأسنان .. وكورى .. يربط وسطه بالفوطة .. ويسأل فى أدب من أين يأتون بالمياه ..

ووسط هذا الخليط الذى يتحول فى الأرض الخضراء بدت نساء مواطنات يحملن جرارا على رءوسهن مليئة بالمياه .. وقد بدت أجسادهن أكثر امتلاء ، وأقل ميلا إلى الرقص .. ولم يعرف أحد من أين يأتين بالمياه ولا إلى أين يذهبن بها ..

وبدا له أن يذهب إلى إحداهن .. ويحتضنها فلعل الجرة تفلت من ذراعيها وتقع بالمياه على رأسه .

وبدأت مشكلة كيفية الذهاب إلى البحر ..

كانت مياهه الزرقاء تبدو فى الأفق من الشرفة .. ولكنها اختفت عند النزول إلى الأرض .. حجبتها الأشجار والأبنية .. ولم يعد هناك طريق إليها ..

وبدا له أن يواصل السير بين الأشجار تجاهها .. ولكنه ليم يعرف على أى بعد تقع .. وإلى متى يمكن أن يظل سائرا ..

وكان الثلاثة قد وصلوا إلى مدخل مبنى المعهد الذى يضم مجموعة الأبنية التى سيعقد فيها المؤتمر .. وبدت بضع عربات تقف أمام مبنى الاستقبال الذى جلسوا فيه ليلة أمس عند وصولهم ..

وسأل أحد السائقين :

ـ أين الطريق إلى البحر !

وأشار السائق بأصبعه إلى طريق يلتوى بين الأشجار المتكاثفة ..

ولم تكن إشارته بالكافية وعاد يسأله :

ـ أهو بعيد ؟..

وهز السائق رأسه قائلا :

ـ أجل ..

ـ أتستطيع أن تحملنا إلى هناك ؟

وتردد السائق برهة ثم قال :

ــ أستطيع أن أذهب بكم ولكن لابد أن أعود هنا بعد ربع ساعة ..

وهز خالد رأسه قائلا :

ــ ربع ساعة لا تكفى ..

سأله فى دهشة :

ــ لماذا ؟ إن الغطس لن يأخذ أكثر من خمس دقائق ..

وقال خالد فى إصرار :

ــ واليوجا ..

ــ يوجا ؟!..

ــ أجل ..

ــ مالها اليوجا ؟..

ــ لن تستغرق أقل من ربع ساعة .

وهز رأسه فى دهشة ..

ــ أى يوجا هذه التى لن تستغرق أقل من ربع ساعة ؟

ــ اليوجا التى سنقوم بها ..

ــ من سيقوم بها ؟..

ــ نحن ..

ــ نحن من ؟..

ــ نحن الثلاثة ..

ــ ولكننى لا أعرف اليوجا ..

ــ سأعلمك ..

وأحس بالعرق يزداد تصببا من جسده .. والأتربة تختلط بالعرق .. ورد على خالد فى رجاء :

ــ نحن نريد غطس .. مجرد غطس فى الماء ..ليس هذا وقت تعليم اليوجا ..

وكان السائق يستمع إلى المناقشة التى تـدور بالعربيـة فـى شـىء من السعادة .

ونظر خالد إلى السائق وهو يرى أن الوقت يمر .. والسائق قد يعـدل عـن عرضـه فـى أن ينقلنـا إلى البحـر إذا مـا مـر ربـع السـاعة المحدد ..

واتجه بسرعة نحو العربة وفتح الباب قائلا فى إصرار .

ـ ياللّه يا جماعة .. ياللّه بينا مفيش وقت ..

وسأله فى دهشة وهو يركب العربة :

ـ وحانرجع ازاى ؟

ـ يا أخى يحلها ربنا ..

وانطلقت العربة فى الأرض الخضراء وسط الأشجار المتكاثفة ، ولـم تكد تسير بضع دقائق حتى بدت عربة قادمة من ناحيـة البحـر وأبصـر كمال بها فأشار إليه موقفا إياه .. وقال خالد وهـم ينتقلـون إلى العربـة الأخرى :

ـ أهو ربنا حلها ..

ثم قال لكمال :

ـ جاى منين ؟.

ـ م البحرٍ ..

ـ طب ياللّه ودينا على هناك ..

وسارت العربة وبعد بضع دقائق أخرى بدت مياه المحيط الزرقاء بين الأشجار ، وعلى مقربة من كشك خشـبى كبـير توقفـت العربـة ونـزل الرفاق الأربعة ..

وبدا المكان ساحرا .. الأرض الخضـراء تنبسـط حتـى تلتقـى برمـال الشـاطىء .. ونخيـل جـوز الهنـد يمتـد علـى طـول الشـاطىء بجذوعـه

الرشيقة وأوراقه الخضر المتهدلة .. وثمار جوز الهند مكدسة فـي نهاية الجذع عند منبت الورق ..

ومن وراء نخيلات جوز الهند تمتد الغابات خضراء متكاثفة .

ومن أمامها تمتد مياه المحيط الزرقاء .. تقذف بالموجات إلى الشاطئ لتتكسر وتنبسط تحت أقدام النخيل .

وأمام الكوخ الخشبى الذى أعد لخلع الملابس بدا حوض كبـير علـى الشاطىء وسط ميـاه المحيـط وقـد بنيـت جدرانـه مـن الأسـمنت لتقـى المستحم فى المحيط لطمات الموج .. وخطر الجذب الناتج عن انحسـاره عن الشاطئ ..

ولقد أحس بقيمة الحـوض المبنى وسـط ميـاه المحيـط عندمـا وقـف خارجه وأحس بالرمال تحت أقدامه تنجذب متهايلة مع شد المياه عندمـا تمتد الموجة إلى الشاطئ ثم تنحسر جاذبة معهـا الأرض أسـفل قدميـه .. وأحـس بميـاه المحيـط وكأنـه وحـش يفغر فـاه ليلتهـم كـل مـا فـوق الأرض ..

وبدأ خالد يمارس تمرينات اليوجا ..

وخالد زميل سـلاح قديـم .. يحـب فيـه طيبتـه وبسـاطته وصراحتـه وبراءته .. وهو يذكر وقفتهما الدائمة أمام مـيزان التعيينـات لكـى يـزن كل منهما جسده ويرى كم كيلـو زاد ، ومراهنتهمـا علـى كـل كيلـو ينقصه أحدهما ..

ولقـد كـان خـالد دائمـا أميـل دائمـا إلى الأمتـلاء .. حتـى وجـده فجأة .. وقد بدا نحيفا رشيقا .. وسأله عما فعله بنفسـه .. فعـرف أنـه يلعب اليوجا ويأكل الخضار المسلوق .. ويضحك من قلبـه .. أو كمـا يقول الشاذلى .. من أطراف أصابع قدميه ..

ووقف خـالد .. موقـف المعلـم .. ووقـف الثلاثـة أمامـه .. موقـف التلاميذ .

وبدا خالد .. مستمتعا .. ليس فقط بممارسة اليوجا بل بتعليمها وإقناع الغير بها .

وأستلقى الأربعة على ظهورهم فوق الرمال .. وهات .. يا يوجا ..

ونظر إليهم السائق الغانى فى دهشة .. وكأنهم أربعة مجانين ..

وزاد العرق المتصيب من أجسادهم .

ورغم رقادهم على شاطئ المحيط بأكمله .. ورغم الأرض الخضراء والشجر المتكاثف .. ورغم كل ما يوحى بالطراوة .. بحر .. وشجر ، وخضرة فى الأرض .. لم تكن هناك نسمة .. والحرارة قاتلة .. والرطوبة خانقة .

وأخيرا انتهى خالد من تمرينات اليوجا التى استطاع الثلاثة أن يجاروه فيها .. ثم بدأ التمرينات التى تحتاج إلى أخصائى فى اليوجا أولها تمرين الشقلبة إياه .. الذى ينقلب فيه الإنسان ويضع رأسه على الأرض ويرفع قدميه إلى السماء .

واندفع هو فى النهاية إلى حوض المياه .. ليقذف بجسده إليه ويخلص من الأتربة ومن عرق الرطوبة وأوجاع اليوجا ..

٦ ـ ديانا ذات الغمازتين



كانت مياه المحيط المالحة .. هى الشىء الوحيد البارد فى غانا .. ولم يضايقه أبدا أن يظل الملح على جسده إلى الأبد ..

لم يضايقه أبدا أن يصبح كالخيارة المخللة أو كالسردينة يتحرك بين الناس .. وهو مغرق فى الملح .. فالماء .. أى ماء ـ حتى ولو ماء نار ـ كان خيرا من خليط العرق والتراب الملتصق بالجسد فى ذلك الجو الخانق الملتهب ..

وعندما عاد إلى الحجرة كانت المياه العذبة قد بدأت ترد إلى الحجرات فى جرادل ..

واغتسل بسرعة فقد كان عليه أن يذهب إلى أكرا قبل العاشرة ليلقى المسئولينّ عن المؤتمر وعلى رأسهم السيد ويلبلك وزير الاستعلامات الغانى وممثل غانا فى مؤتمرات التضامن السابقة ..

وانطلقت العربة فى الطريق ما بين وينبا وأكرا .. الطريق الذى سمى فيما بعد بطريق الموت ..

كان الطريق يخترق الأرض الحمراء التى كانت فيها الشجيرات وبدت بها بيوت النمل كأنها مآذن رملية قصيرة .. تظهر قدرة النمل العجيبة فى هندسة البناء ، عندما يضع الطابق فوق الطابق .. وكلما علا الطابق ازداد نحافة حتى ينتهى بطريقة مدببة تجعله أشبه ما يكون بالمئذنة ..

ولم يكن هناك من آثار للحياة طوال الطريق سوى بضعة بيوت متناثرة ذات سقف من القش أو الصاج ومواطنات غانيات يحملن سباطات الموز فى طشوت على رءوسهن وأولادهن قد شدوا إلى ظهورهن ..

وشارفت العربة مدخل أكرا .. وبدأ التخطيط الجديد للمدينة .. والمبانى الحديثة .. التى تنبئ بأفريقيا الحرة صاحبة السيادة .. وبدأ السوق الوطنى فى مدخل المدينة .. وقد هدأت حركته .. وكان بالليل يمتلئ بالصخب والضجيج .. وتتعالى منه ألسنة النيران .. تحت الشواء .. من اللحم أو من الموز أو من عجينة الطعام الوطنى المغرق بالتوابل ..

وتوقفت العربة أمام مبنى الحزب .. مبنى ضخم أنيق علقت على جدرانه لوحات الدعاية للعمل الوطنى فى غانا .. وللنهضة الغانية .. وأقبل ويلبلك .. المسئول الأول عن الدعاية فى غانا .. يستقبله فى كثير من البشاشة والترحيب وقليل من غرور الرجل الإفريقى الحاكم صاحب العصا يتوكأ عليها فى ثقة والبايب يضعه فى جانب شفتيه فى اعتداد وكبرياء وإحساس بالسعادة ..

وتحدثا عن التخطيط الأولى للمؤتمر .. طريقة سيره .. وبرنامجه الزمنى .. والتيارات السياسية التى تتقاذفه .

ولم يطل الحديث .. إذ لم يكن هناك محل للمناقشة أو الجدل كان هناك التقاء فى الخط الرئيسى للمؤتمر .. ولم يكن الالتقاء بالشيء الجديد .. فما أحس قط بخلاف من قبل بين الإفريقى الوطنى والإفريقى غير وطنى الوطنى .. فى الهدف الرئيسى للمواطن الإفريقى .. وهو التحرر الوطنى من أجل بناء مجتمع قائم على الكفاية والعدل ..

وافترق الاثنان على موعد للقاء فى صباح الغد لعمل مؤتمر صحفى مشترك .

واتجه إلى فندق الأمباسادور ليلتقى ببقية أعضاء الوفد الذين غادروا وينبا للقيام بالاتصال بالتنظيمات المختلفة فى غانا .. ومن أجل البحث عن صنبور للمياه الحلوة ..

والتقى بالمجموعة فى حديقة الفندق القريبة من الشاطئ .. لا يفصل بينهما سوى طريق وغابة صغيرة من الأشجار ونخيل جوز الهند ..

وأحس لأول مرة بنسمة غير محرقة .. لم تكن باردة بالمعنى المريح المنعش .. ولكنها كانت فقط غير محرقة .. فأخذ منها شهيقا طويلا لأول مرة منذ وطأت قدماه أرض غانا ثم أطلقه فى ارتياح .. واسترخى فى المقعد القش مادا ساقيه فوق بلاط الحديقة ..

ومن جديد عاوده الحنين إلى دش بارد .. وسأل من حوله :

ـ ألا يستطيع المرء أن يأخذ حماما ؟

وقال له مرسى ببساطة !

ـ أنت لك حجرة محجوزة هنا .. أنت وخالد ..

وبسرعة البرق وثب من مكانه ..

غير معقول أن يكون له حجرة بحمام .. ثم يجلس هكذا يلعق بقايا ملح البحر من فوق شفتيه ..

وتسلم المفتاح .. واتجه إلى الحجرة .

ولم يكد يخطو فى الممر الطويل حتى هبت عليه نسمة باردة ..

هذه المرة .. باردة حقا .. فقد كان الطابق كله مكيفا .

وفتح باب الحجرة .. وزادت النسمة برودة .. وأحس أن الذى يلفح وجهه لم يكن مجرد هواء .. بل ماء بارد لذيذ ..

وأغلق الباب وأخذ يتجول فى الحجرة التى سرت فيها النسمة الباردة ..

ولم تكن حجرة واحدة .. بل جناحا مكونا من حجرتين .. إحداهما للاستقبال وبها أريكة مريحة للجلوس ومنضدة للطعام وثلاجة كهربائية صغيرة ..

والأخرى للنوم ومن داخلها الحمام .

وكان أول ما فعل .. هو فتح صنبور المياه .. خشية أن يخدع كما خدع فى وينبا .. وأن تكون كل هذه الأحواض والصنابير مجرد أشياء هيكلية .. وهمية .. لا تجرى فيها المياه ..

وتدفقت المياه .. محدثة بارتطامها بالحوض ضجيجا ممتعا ..

وبسرعة البرق .. وقبل أن تقطع المياه .. ويتبدد الحلم الممتع الذى يعيش فيه .. حلم المياه المتدفقة والهواء البارد .. قذف بملابسه على طول ذراعيه وقبل أن يثب فى البانيو .. أسفل الدش .. سمع طرقا على الباب .. وتردد برهة فى مكانه .. ثم لف جسده بالمنشفة الكبيرة .. وخرج ليرى الطارق ..

ولم ينتظر الطارق حتى يفتح الباب .

فقد كان لديه مفتاحه الخاص ..

كانت ديانا ..

ونظر إليها نظرة مستفسرة .. وعلى شفتيه بسمة ..

والبسمة أضحت لازمة لشفتيه عندما يستقبل الناس .. لزوم البسمة لشفتى مضيفة الطائرة .. وقالت الفتاة التى اقتحمت الحجرة وهى تضع المفتاح فى جيبها :

ـ أنا ديانا ..

وأجاب مرحبا :

ـ هاللو .. ديانا ..

وصمت برهة ثم أردف مترددا :

ـ هل أستطيع أن أفعل لك شيئا ؟

وأجابت على الفور :

ـ هل أستطيع أن أفعل لك أنا شيئا ؟

وعاد ينظر إليها من جديد ..

كان جسدها المشدود فى الثياب الوطنية الطويلة الضيقة .. نموذجا لتمثال أبنوس مخروط .. الصدر المرفوع .. والوسط الشديد الضيق والردف الملفوف ، والسيقان الممدودة ..

ولم يدقق كثيرا فى جسدها .. فقد كان جماله طبيعيا .. فما يذكر أنه أبصر فتاة غانية .. غير ذلك ..

ورفع البصر إلى وجهها :

وابتسمت ..

ورسمت ابتسامتها غمازتين أسفل خديها وعلى جانبى شفتيها ..

وانفرجت شفتاها عن أسنان منتظمة ناصعة البياض ...

وبدت عيناها واسعة .. ناصعة البياض .. وشعرها الخشن مشدودا إلى أعلى .. معقوصا فى نهايته بشكل كعكة ..

باختصار .. كانت جميلة ..

وعندما زار إفريقيا أول مرة .. لم يكن يميز بين امرأة ..وامرأة ..

وعندما تكررت الزيارة .. وازدادت المعرفة .. بدأ يحس بوجوههن الجميلة .. وعلق إحسان على إحساسه ذلك مازحا بقوله :

ـ أصل عنيك .. خدت على الضلمة ..

وكانت ديانا من بين الوجوه السوداء الجميلة التى أبصرها ..

وكانت ما تزال تقف فى مكانها .. ووجهها الباسم ذو الغمازتين يتطلع إليه متسائلا ..

وعادت تكرر قولها :

ـ أستطيع أن أفعل لك شيئا ؟

ونظر إليها باسما وهو ينقل البصر بين وجهها وجسدها :

ـ شكرا ..

ـ هل كل شىء فى الحجرة معد !

ـ أعتقد هذا ..

ـ والحمام ؟

ـ لست أظن ينقصه شى ء ..

ـ هل أستطيع أن ألقى نظرة ؟

وقال مرحبا :

ـ بالطبع ..

غير معقول أن يقول لها « لا » ..

لقد بعث مجرد وجودها فى الحجرة .. إحساسا ممتعا .. ولا عليه .. أن تلقى نظرة .. أو نظرتين ..

وقبل أن يفسح لها الطريق لكى تدخل تذكر جسده العارى .. الملفوف بالمنشفة ..

عيب جدا .. أن يقف أمامها هكذا .

ولكن .. أى عيب فى هذا ..

إنها هى نفسها .. لم يبد عليها أى دهشة ..

ودهشة .. لماذا ؟

ألم يلق ويليك نفسه فى مكتبه بالحزب .. وهو أشبه ما يكون به فى وقفته هذه ؟!

ودخلت ديان الحجرة .. وألقت نظرة هنا .. ونظرة هناك ..

ثم دخلت الحمام .. وخرجت لتقول باسمة :

ـ ليس بالحمام صابونة ..

ـ حقيقة !

ـ ألا تريد وحدة ؟

ـ أجل ..

ـ دقيقة واحدة ..

ولم يطل غيابها فعلا أكثر من دقيقة واحدة .. ثم عادت وفى يدها الصابونة .

ومدت يدها إليه بها .. وعلى شفتيها الابتسامة ذات الغمازتين .. وهى تقول :

ـ أتريد شيئا آخر ؟..

ولكنه أطلق تنهيدة .. وهو يذكر أكوام المشاكل التى تنتظره .. وأجابها فى هدوء :

ـ شكرا يا ديانا ..

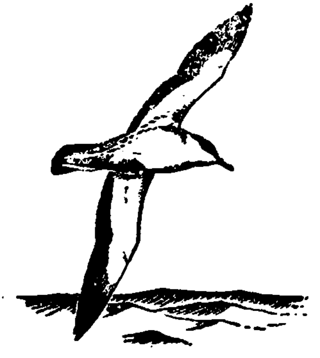
واستدارت ديانا وهى تجيب فى رقة :

ـ سأعود ثانية ..

وذهبت ديانا ..

ولم يعرف ما إذا كانت قد عادت ثانية .. لأنه هو نفسه ذهب إلى وينبا .. ولم يعد ..

٧ ـ ليلة على شاطئ المحيط



انطلقت العربات متلاحقة فى طريق الموت إلى وينبا ..

واستقر هو فى عربته إلى آخر الركب المنطلق من المطار .. حاملا بقية الفرقة التى وصلت أخيرا .. فرقة الكفاح المتنقلة فى ربوع آسيا وإفريقيا .. لتطلق سهامها على قلاع الاستعمار .. ولتعلن آراء المناضلين من أجل استقلالهم .. الصاعدين من بؤر الاستعباد .. إلى قمم الحرية والسيادة فى أوطانهم .

ومرة أخرى عادت العربات تشق الطريق وسط الظلمات .

وكان قد اعتاد الطريق .. وحشته وظلمته .. ولم يشعر هذه المرة بطوله وإرهاقه .

وأخيرا وصلوا إلى وينبا .. ومن جديد وقف يرقب عملية توزيع الحجرات .. وإيواء المسافرين الذين أرهقتهم رحلة طويلة مضنية .. على الطائرة الروسية من القاهرة إلى الجزائر .. إلى أكرا ..

والتقى بصديقه الجزائرى الدكتور التيجانى الهدام ، جراح القلب الذى يعمل وزيرا للأوقاف فى الجزائر .. وقد أعجب به فى كل مرة عمل معه .. كان يحس به عربيا مؤمنا مناضلا وكان وجهه سمحا تبدو فيه الطيبة والإخلاص ..

وأحس بارتياح عندما علم أنه يرأس الوفد الجزائرى .. وأقبل عليه يحييه فى فرحة وشوق .. وصحبه إلى مكتب الإقامة ليعاونه على معرفة محل إقامته .

ومضت به فترة وهو ينتقل معه من مكان إلى مكان والجو ما يزال خانقا .. والفتيات ما زلن يتبخترن فى الصالة فى مشيتهن الراقصة وكأنهن يفعلن شيئا .. والمشرف على الإقامة وراء مكتبه يمارس الإدارة والإمارة فى الوفود المجهدة الدائخة .

وأخيرا استقر الأمر على أن يذهب بصديقه الجزائرى إلى شاليه على شاطئ المحيط خارج منطقة المعهد التى ضمت الأبنية التى استقر فيها المؤتمر .

واستقر الاثنان فى العربة لتحملهما إلى الشاليه .. وانطلقت العربة فى الظلمة بين أشجار جوز الهند والغابات المتكاثفة ، ولم تلبث أمواج المحيط أن بدت على ضوء العربة .. وبدت على الشاطئ مجموعة الكبائن الخشبية ، وقد تناثرت وسط أشجار جوز الهند المتكاثفة على الشاطئ .

ووقفت العربة أمام الكوخ الخشبى وصعد الاثنان يقودهما المرافق الغانى فوق الدرج الخشبى وسمعا صرير الخشب تحت وطأة أقدامهم..

واجتازا الباب ، وبدا أمامهم الفراش فى إحدى زوايا القاعة الخشبية الفسيحة وفى الركن الآخر استقرت المائدة والثلاجة الكهربائية .. وبجوارها باب الحمام .

وعلا صوت الأمواج ترتطم بالشاطئ .. والريح تصفر صفيرا خفيفا مبحوحا .. وبدا المكان موحشا بكل ما فيه .. وما حوله .. ولم يبد أثر للحياة حول المكان .

ووقف الصديق الجزائرى يحمل حقيبته الصغيرة فى يده وينظر إلى المكان فى غير اقتناع .. وتساءل فى أدب :

ـ ولماذا هنا ؟

وأجاب الرفيق الغانى :

ـ هذه الشاليهات مخصصة للوزراء .

ـ إننا سنكون فى عزلة عن المؤتمر .. نحن نريد أن نكون بجوار الوفود .

ولم يجد هوما يبرر إلقاء الوزراء على شاطئ المحيط بعيدا عن المؤتمر .. لمجرد أنهم وزراء .. ونظر إلى صديقه قائلا :

ـ لم لا تعود معى .. إنى أستطيع أن أحضر لك فراشا إضافيا فى حجرتى .

ـ أفضل هذا .. هيا بنا ..

وعاد الاثنان مرة أخرى إلى مبنى إفريقيا حيث يقيم .. وهدير المحيط يعلو وراءهما .

وكان عليه أن يحضر إلى حجرته فراشا آخر .. ولم يكن هناك سوى الفراش الحديدى ذى الطابقين .. وتولى صلاح هذه المرة عملية نقل الفراش .. ولم يكن هناك بد من إحداث الضجة إياها .. ضجة جر الفراش الحديدى فوق البلاط .. يضاف إليها الضجة الطبيعية التى يحدثها صلاح بحنجرته عن غير قصد .. وبمنتهى حسن النية ..

واستقر الوزير الجزائرى على الفراش الخشبى الكبير فى الحجرة الداخلية مكان إحسان .. وخرج إحسان ليشاركه الحجرة الخارجية فوق الفراش الحديدى الجديد .

وترك الصديق الجزائرى منهمكا فى الصلاة .. وعاد هو ليرى كيف استقر بقية الرفاق ..

واتجه إلى المطعم .. حيث يستطيع أن يلتقى بأكبر مجموعة منهم .. وبدت قاعة الطعام الفسيحة .. كأنها مطعم مدرسة .. والوفود مرصوصة على المقاعد كأنهم التلاميذ ..

وبدأ الجرسونات فى حركة دائبة .. يحملون الأوانى الملأى ويعيدون الفارغة .

وبدأ له كل شىء يتحرك .. أفواه الوفود وأذرعتهم .. والملاعق والشوك والسكاكين والطعام ينتقل من الصحاف إلى الأفواه ..

شىء واحد يأبى أن يغير ما به .. شىء ثقيل ثابت لا يتحرك ولا يتغير .. وهو الهواء الساخن الرطب .. وقطرات العرق التى تكون طبقة مستمرة فوق الجلد ..

كان وجهه ، وعنقه وجبينه ، وصدره .. وذراعاه ،، فى حالة ابتلال دائم ، وبدا له أن البشر هناك يمكن أن يكونوا منبعا لا ينضب للمياه ..

وخرجت وفود من المطعم .. ودخلت أخرى ..

وأخذ يشير إلى هذا ويحيى ذاك .. وفى مثل هذا الجو الخانق لم يتوقع أن يرى أحدا يرتدى أكثر من القميص والبنطلون .. والصندل .. شىء أكثر من هذا لم يكن يطاق فوق الأجساد المبتلة عرقا .

ولكنه أيضا لم يكن يتوقع أن يرى أقل من هذا .. فقد كان المكان مطعما للعشاء .. حتى أقبل الزميل محمود السعدنى .. يرتدى جلبابا أبيض .. فضفاضا .. من جلاليب النوم التى يرحرح المرء داخلها فى

ليالى الصيف القائظة .

ورغم إحساسه بأن مثل هذا الجلباب هو أكثر الثياب ملاءمة لمثل هذا الليل الخانق .. ورغم تمتعه لو كان هو نفسه يرفل داخل الجلباب الفضفاض بدل السعدنى .. لم يستطع أن يمنع نفسه من الشعور بالحرج من جلباب السعدنى والدهشة لجرأته على ارتدائه فى قاعة عشاء .

ونظر إلى السعدنى متسائلا فى دهشة :

ـ إيه ده يا محمود اللى أات عامله ده ؟!

ـ أصل مش ممكن .. مش معقول .

ـ إيه ده اللى مش معقول !

ـ مش معقول ألبس حاجة غير كده .. بعدين أموت .. أتخنق ..

ـ لكن احنا فى صالة عشا .. فى مؤتمر .. فى وسط وفود .

ونظر السعدنى حوله وأجاب ببساطة :

ـ طب ما هى الوفود لابسة كده ..

ونظر حوله فوجد معظم الوفود الإفريقية ترتدى الثياب الوطنية .. وهى فى شكلها الفضفاض .. لا تختلف عن الجلباب فى شىء .. اللهم إلا أن بعضها ملون .. وبعضها أكثر عريا .. ومع ذلك كانت تبدو طبيعية .. لأنه اعتاد أن يراهم يرفلون فيها .

ولكن السعدنى لم يكن طبيعيا بالمرة .. كان جسده التحيل فى الجلباب الأبيض الواسع الطويل يبدو كأنه مكوجى .. أو بالكثير صاحب قهوة بلدى ..

وعاد ينظر إليه فى دهشة قائلا :

ـ لكن يا محموود دول وفود إفريقية لابسين اللبس الوطنى .

وبمنتهى البساطة وسرعة الخاطر .. أجاب :

ـ طب مانا كده ..

ـ أنت كده ازاى ؟

وجلس رئيس وفد الجيزة ببساطة أمام المائدة يتناول الطعام بالجلباب الأبيض .. واستمر يرتديه طوال المؤتمر .. واستطاع أن يقاوم به حرارة وينبا .. ورطوبتها .. ويمنح جسده وسيلة للتهوية والخلاص من العرق الذى يلصق الثياب بالجسد .

وانتهى العشاء وعاد إلى حجرته ليمتطى صهوة الفراش الحديدى ذى الطابقين .. ويرقد قريبا من سقف الحجرة .. ويشرد ببصره من خلال النافذة التى بدت منها سماء تبرق فى ظلماتها النجوم وأرض ترتجف بين أشجارها ومبانيها أضواء المصابيح الساهرة .

ومضت فترة وهو يحملق فى رقدته من خلال النافذة .. ليرقب العالم المغرق فى الصمت .

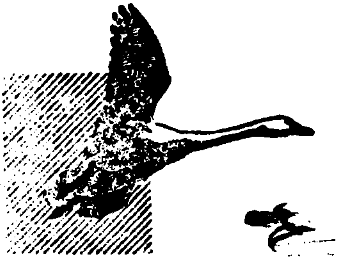
وأخيرا أسبل النعاس عينيه عن الحملقة .. وأوقف النوم ذهنه من التفكير .. ولم يلبث أن شارك ما حوله السكون ..

وفى الصباح فتح عينيه على صوت صفير راقص .. وأبصر باب الغرفة مفتوحا .. ومن خلاله تسربت ثلاث فتيات غانيات .. لم يطرقن الباب .. ولم يستأذن فى الدخول .. وإنما اقتحمن الغرفة ببساطة وعلى شفاههن بسمة سعيدة .. ولم يحاولن التسلل على أطراف أصابعهن حتى لا يوقظن النيام .. فقد كان صفيرهن وغناؤهن أسبق إلى إيقاظه .. وكانت أطراف أصابعهن لا تعرف التسلل .. ولكنها تعرف الرقص .. فكان اقتحامهن الغرفة غناء راقصا صافرا .. وكأنهن يظهرن على خشبة مسرح .. ولا يفتحن غرفة نوم رجل ما زال النعاس يطبق أجفانه .

وتساءل الرجل وهو يفتح عينيه فى دهشة :

ـ إية الحكاية ؟

٨ ـ الثلاثى المرح .. فى صباح المؤتمر



استمر برهة فى فراشه يحملق فى الفتيات الراقصات الصافرات وهـو يتساءل عن سبب وجود هذا الثلاثى المرح فـى حجرتـه فى مثـل هـذه الساعة المبكرة .

واستقرت إحداهن على مقعد مريح .. وبدأت الأخرى تعبث بأشيائه الموضوعة فوق المنضدة .. المحفظة وسلسلة المفاتيح والمنديل والمشط وبضع إشارات للمؤتمـر .. ولوحت له الثالثة محيية بيدها .. قائلة :

ـ صباح الخير ..

ونفض النوم من عينيه والدهشة عن معالم وجهه ورد عليها فى هدوء :

ـ صباح الخير ..

وأمسكت الفتاة بإحدى شارات المؤتمر متسائلة :

ـ أأستطيع أن آخذها .

ونظر إلى الفتاة نظرة فاحصة وبدت عليه الحيرة ..

لقد كانت الشارة بمثابة تصريح دخول إلى قاعة المؤتمر .. وكانت تعلق على الصدر لتمنح صاحبها حق عضوية المؤتمر .

وكان صدر الفتاة ـ بلا جدال ـ يغرى بوضع الشارة عليه .. ولكنه تصور .. لو أن بروز الصدر كان أحد مؤهلات وضع الشارة وبالتالى أحد مؤهلات عضوية المؤتمر .. كيف يمكن أن يصبح المؤتمر .. وكيف يمكن أن تزحم الصدور البارزة قاعته ..

ونظر إلى الفتاة فى هدوء وسحب الشارة من يدها وأعادها إلى موضعها قائلا :

ـ متأسف ..

ـ لماذا ؟..

ـ لأنها خاصة بأعضاء المؤتمر وسأحتاج إلى وضعها عند الدخول إلى المؤتمر ..

ـ وماذا ستفعل بالباقى ؟..

ـ سأضع واحدة على صدر الرئيس نكروما ..

ـ إذن سآخذ الباقية ..

ومدت يدها ببساطة وأخذت الشارة الثالثة وعادت تضعها على صدرها .. وبنفس البساطة مد يده وتناول الشارة من فوق صدرها وأعادها إلى موضعها قائلا :

ـ هذه الشارة لرئيس المؤتمر ..

ولم يبد عليها الضيق بل رسمت ابتسامة واسعة على شفتيها أبدت أسنانها الناصعة البياض ، وعادت تمد يدها إلى المنضدة وكأنها طفلة

تعبث وأمسكت علبة البسكويت قائلة :

ــ أأستطيع أن آخذها ...

ــ خذى ما تشائين..

وكانت المنضدة قد رصت عليها بضع علب للبسكويت وبرطمان مربى وضع على كوب ، والكوب فوق طبق ملىء بالمياه لكى يكون بمثابة جزيرة تمنع وصول النمل إلى المربى .. وبجواره علبة صفيح ملئت ببضع قطع من الجبن منحتها إياه سيدات المؤتمر بهية وسهير وأمينة خوفا عليه من الموت جوعا عندما علمن أنه يفضل أن يقضى ساعات الطعام مستريحا فى غرفته لأنه يحس بحاجته إلى الراحة أكثر من حاجته إلى الطعام ...

ومدت الفتاة الفاتنة يدها فتناولت بضع قطع من البسكويت وضعتها فى جيبها ثم قدمت العلبة إلى زميلتيها اللتين اتكأت إحداهما بكتفها على الحائط واسترخت الأخرى على المقعد الكبير..

وتناولت كل من الفتاتين قطعة من البسكويت وأكلتها ثم دار بين الثلاث حديث لم يفهمه باللغة المحلية .. انطلقت بعده ضحكات عالية وبدا على وجوههن المرح والطرب .

ولم يعرف هو ما قالته .. ولم يشعر أنه حريص على أن يعرف .. كان كل ما يود معرفته .. هو ماذا يفعلن فى حجرته فى هذه الساعة المبكرة .. ولماذا دخلن عليه بمثل هذه البساطة .. وإذا كان هناك ثمة شىء سيفعلنه ــ أيا كان ــ فلماذا لايفعلن .. حتى يرحنه .. بدل هذا الاسترخاء على المقعد .. والاتكاء على الحائط .. والعبث بحاجياته ..

ولم يكن يشعر رغم كل هذه الأشياء العجيبة التى فعلنها .. بضيق منهن .

لقد اقتحمن غرفة نومه .. وأيقظته .. وأكلن بسكويته .. ولعبن بأشيائه .. ومع ذلك لم يغضب ..

شىء وحيد .. أذاب غضبه .. هو ابتسامة لا تفارق شفاههن .. وجو من المرح أشعنه حولهن يمكن أن يبدد كل إحساس بالضيق أو بالغضب ..

وعندما هدأت الضحكات .. ساد الصمت لحظة .. وبدا على سيمائه كأنما ينتظر توضيحا .. للحديث الذى لم يفهمه .. والضحكات العالية التى أعقبت الحديث ..

وقالت الفتاة المسترخية فوق المقعد ببساطة وهى تشير إلى الفتاة التى منحت نفسها حق تفريق البسكويت وكأنها صاحبة البيت ..

ـ إنها تحبك ..

ورفع حاجبيه فى دهشة ولم يعرف بماذا يجيب ..

وقبل أن يفيق من دهشته أشارت الأخرى التى تتكىء على الجدار إلى الفتاة التى أعلنت صاحبتها أنها تحبه وقالت ببساطة أشد :

ـ وتريد أن تتزوجك .

وأمال رأسه .. وابتسم ..

لم يخطر بباله قط .. أن الطقم الثلاثى .. قد أتى .. ليزوجه ..

لماذا كل هذه العجلة .

إذا كانت المسألة .. مسألة زواج .. لماذا لم ينتظرن حتى يستيقظ .. ويفيق .. ويحلق .. ويلعب يوجا مع خالد محيى الدين .. ويتبادل الذكريات مع مختار قطب .. ويقارن بين الشيب الذى فى رأسه والشيب الذى فى رأس إحسان .. ويأخذ غطسا فى حمام المحيط الأطلسى .. ويحضر إزاحة الستار عن تمثال الرئيس نكروما .. ويحتفل بافتتاح المؤتمر .. ويلقى تقريره .. ثم يخوض مغامرات الخلاف بين السوفييت والصين .. ويشاهد مفاجئات مهدى بن بركة .. و .. أشياء كثيرة ما زالت تنتظر .. قبل مسألة الزواج هذه .

ونظر إلى الثلاثى الغانى المرح .. فإذا بالابتسامة ما زالت ترتسم على شفاههن .. وفى عيونهن علامة استفهام وكأنهن ينتظرن الرد على مشروعهن الخطير ..

وتساءل وهو يبادلهن الابتسام ..

ـ يعنى .. ضرورى ..

وقالت الجالسة على المقعد :

ـ ولم لا .. ما دامت تحبك .

ولم تسأل بالطبع ما إذا كان يحبها أم لا ..

وبدا له أن هذه مسألة ليست بذات بال ..

وأجاب وهو يبرز دبلة الزواج فى يده :

ـ وما العمل فى هذه ؟..

ـ وما العمل فى هذه ؟..

وأجابت الماكرة وهى تبرز أصابعها الثلاث ..

ـ ما زال أمامك ثلاث ..

وأجاب وكأنما أسقط فى يده ..

ـ صحيح .. ولكن لابد أن أذهب الآن لافتتاح المؤتمر .. ثم أقرأ التقرير .. وأحضر اللجان ..

وأجابت الفتاة الماكرة وهى تضحك :

ـ يمكنك أن تفعل كل هذا .. إنها تستطيع الانتظار ..

إذن .. فالمسألة ليست مستعجلة ..

وانطلق بسرعة إلى الحمام ليحلق ذقنه ..

ولمح صديقه الجزائرى من باب حجرته قد ركع منهمكا فى أداء الصلاة ..

ولم يعرف ماذا يمكن أن يحدث للدكتور الهدام .. فى محاولاتهن المرحة .. إذا انطلق الثلاثى المرح إلى غرفته للزواج .

وأحس بأنه مسئول عن صديقه .. ما دام قد استضافه فى حجرته ..

ومد يده فأغلق الباب عليه .. إذ لم يتصور قط .. منظر دخول الفتيات الثلاث فى خطواتهن الراقصة .. وصفيرهن .. وغنائهن ، على الرجل الجاد الذى انهمك فى الصلاة ..

وعندما عاد إلى الحجرة .. وبعد كل ما حدث من غناء ورقص وضحك .. واسترخاء على المقاعد .. وعبث بالأشياء .. وأكل للبسكويت ، وحب .. وزواج .. اكتشف .. أن الثلاثى المرح ، قد أتى لترتيب الحجرة .. وتنظيفها .

وبدا له أنهن قد فعلن كل شيء ، إلا هذا ..

كما عرف أيضا .. أن وجوده فى الغرفة .. يقظا أو نائما .. مسألة لا علاقة لها .. بما يمكن أن يفعلنه هن سواء كان فعلهن يدخل فى باب النظافة والترتيب .. أو فى باب الحب والزواج ..

وارتدى ثيابه وانطلق ليؤدى أعماله التىلم يجد الثلاثى المرح مانعا من أن يقوم بها .. قبل الزواج ..

وكان أول ما عليه أن يفعله .. فى صباحه .. هو حضور إزاحة الستار عن تمثال الرئيس نكروما .. أو المخلص .. الذى تقرر أن يقام الاحتفال به قبيل بدء المؤتمر .

واتجه إلى الشاطئ حيث قام التمثال .

وكان يظن أن المهمة .. سهلة .. لم يخطر بباله أبدا .. أنه يمكن أن يلقى مصرعه .. فى مثل هذه العملية البسيطة .. التى لا تزيد عن مجرد الجلوس لمشاهدة إزاحة الستار عن التمثال ..

٩ ـ البحث عن الظل



على شاطئ وينبا .. استقر التمثال .. يعلو كل ما حوله من معالم الشاطئ .. وبدت رأس نكروما على قبضة سيف امتد نصله إلى أسفل حتى أستقر طرفه فى القاعدة ..

وكانت الساعة لم تبلغ بعد الثامنة والنصف .

ساعة صباح .. على شاطيء المحيط ..

والصباح على الشاطئ .. مفروض فيه أن يكون رطبا نديا .. ما زالت تتردد فى جوانحه بقايا من أنفاس الليل الباردة .

ولو قيل له .. إنه سيصحو ذات صباح على شاطئ جهنم .. بفرض أن لجهنم شاطئا .. ولها صباح .. وأنه صائر إلى جهنم ولو كعابر سبيل .. أو ترانزيت .. أو دافع ضرائب عن خطاياه ..

لو تصور صباحا على شاطئ جهنم .. لما عدم خياله .. أن يمنحه .. نسمة .. منعشة .. أو لفحة ـ على الأقل ـ غير محرقة ..

ولكن هناك ... على شاطئ وينبا ... كان الصباح شيئا آخر ..

لقد بدا له كأن أحدا مد يده إلى السماء فجذب قرص الشمس إلى أسفل ..

كان الوقوف فى الشمس .. غير معقول .. وكانت رقعة الظل الوحيدة فى مكان الاحتفال هى ظل التمثال .. الذى امتد أسفله ليفترش شريطا طويلا ضيقا على الأرض الحجرية التى أقيمت فوقها قاعدة التمثال التى رصت مقاعد المدعوين فى جانب منها .. ووضعت منصة الاحتفال التى أعدت للرئيس نكروما فى جانب آخر .

واقترب من مكان الاحتفال .. ليجد المدعوين قد أخذوا يتوافدون إلى المكان .. خليط من رجال الدولة الغانيين ووفود المؤتمر .. والسفراء ، يرتدون كامل ثيابهم .. والمواطنون الغانيون من أهل وينبا قد تزاحموا حول المكان واعتلى بعضهم السور الحجرى ..

وموسيقى تعزف .. ولغط يتعالى .. بكل لغات العالم .. وتحيات تتبادل .. وإيماءات بالرءوس .. وابتسامات وأفكار شاردة فى الأذهان .. لا يلمها رابط .. ولا يحكمها منطق .

ووسط كل هذا الخليط العجيب .. كان شىء واحد يلم الجميع ويدفعهم نحو هدف واحد .. هو البحث عن الظل .

والمكان جميل .. والموسيقى تصدح .. والفتيات الغانيات بثيابهن التى تشد أجسادهن الفارعة يتبخترن حول المكان .

ولكن ..أين الظل ؟..

وكما يتجمع النمل حول قطعة حلوى تجمع المدعوون .. فى ظل التمثال ..

وبدا الشريط الضيق الطويل .. الذى احتشد فيه الناس كأنه قطعة حلوى .. غطاها النمل .

لقد كان التمثال هو الوسيلة الوحيدة .. لإبعاد الشمس التى تركت مكانها فى السماء لتستقر على رءوس المدعوين .

ولم يجد بدا من أن يحشر نفسه مع النمل فوق قطعة الحلوى ، وكان يرتدى ثيابه الكاملة .. ولم يحاول أن يضع الكاسكتة القش على رأسه .. حتى لا يخل برسمية الثياب التى يجب أن تليق برسمية الاحتفال .

واقترب موعد حضور الرئيس نكروما لكى يزيح الستار ولكى تبدأ مراسم الاحتفال .

ويبدو أن منظر النمل على قطعة الحلوى لم يعجب المشرفين على نظام الاحتفال .. فلقد كان المفروض أن يجلسوا على المقاعد المرصوصة ..

ولم تكن المسألة هينة ، فالخروج من منطقة الظل .. كانت عملية قاتلة .

ولقد كان أول من حاولها ..

لم يكن معقولا أن يقف المدعوون فى ظل التمثال .. طوال الاحتفال .. وما دام المسئولون عن الاحتفال .. وهم أناس عقلاء .. وقد وضعوا الكراسى فى الشمس .. ولم يضعوا فوقها مظلة .. فمعنى هذا .. أن جلوس الآدميين فى الشمس شيء غير قاتل .. بل هو فى هذا البلد أمر طبيعى .. فمن غير المعقول .. أن يكون المشرفون على الحفل قد نووا قتل جميع وفود المؤتمر وجميع السفراء .. غير معقول أن يكونوا قد دبروا عملية اغتيال بقرص الشمس ..

وبهذا المنطق اتجه إلى المقاعد .. وجلس فى أحدها ..

وبعد ثوان .. أحس كأنه فى حمام التلات ..

صنابير مياه بدأت تتدفق من جسده .. ودخان بدأ يتصاعد من ساقه .. كأنه مكوجى غشيم يكوى بنطلونه بمكواة محرقة .. بغير فودرة وبغير مياه .

وخلع الجاكتة والكرافتة ..
وأن يحضر الاحتفال .. حيا .. مبهدلا .. خير من أن يحضر .. أنيقا .. ميتا .
شاط البنطلون ..
شاط حقيقة ..
وإلا فما معنى هذا الدخان المتصاعد من ساقه .
ولم يكن معقولا أن يشارك فى الاحتفال بدون بنطلون .. فتركه يدخن .
ولكن رأسه أيضا .. ابتدأ يدخن .
وعندما يدخن رأسه .. فلابد أن شيئا به يحترق .. فلم يكن هناك شيء يقف حائلا بينه وبين قرص الشمس .
هذا الشيء .. لابد أن يكون شعره أو من يدرى .. ربما كان مخه .. فأغلب الظن .. أن الشعر قد احترق ولم يبق منه شيء أكثر من شواشى الذرة المشوى .
ورفع يده .. فمس بها رأسه ..
وجذب أصابعه بسرعة .. فقد لسعه شعره .
وسمع ضجيجا .. وعلت أصوات هتافات .
وكان الزحام قد زاد من حوله .. ورقعة الظل قد تقلصت وبدأت تلفظ المدعوين تجاه المقاعد .. وأحس بأن كثيرين يشاركونه الاستمتاع بقرص الشمس .. وأن رءوسا كثيرة غيره .. تتعرض لعملية الشوى .. والنضج التى يتعرض لها رأسه .
وأقبل الرئيس نكروما ، يتحرك أسفل مظلة كبيرة مزركشة .. وسار حتى بلغ منصة الاحتفال ثم استقر تحت المظلة .
وبدأت المراسم .

ألقيت خطب .. وصدحت موسيقى .. وتعالت صيحات .. ودقت طبول .. وتواثبت رقصات . .

والمعذبون فى الشمس .. يبحثون عن بقعة ظل ..

وطافت بذهنه صورة قديمة .. لصيف قائظ .. كان يرى فيه الماعز ترعى فى الخلاء حول نادى مصر الجديدة وكان يجدها عندما تلسعها الشمس ولا تجد بقعة ظل حولها .. أن تضع رءوسها أسفل بعضها محاولة أن يستظل كل منها بظل الآخر .

ونظر حوله فإذا بالمعذبين فى الشمس .. يمدون أعناقهم ليضع كل منهم رأسه فى ظل الآخر .. لعله يقيه ولو للحظات من لفحات الشمس الملتهبة .

وازدادت حرقة الشمس .

وبدت كأن حركتها .. ليست ناتجة من دوران الأرض حولها .. بل من دورانها حول رأسه .

وتمنى لو يغطى رأسه بأى شيء ..ومد يده فأخرج منديله وفرشه على رأسه .

لم تعد المسألة .. مناظر .. وإنما هى حياة أوموت .. ونظر بجواره فوجد صديقه الجزائرى الدكتور الهدام قد فعل فعلته .

ولم يجده المنديل نفع .. كانت الشمس .. لا تعترف بمثل هذه الحوائل والموانع .. بينها وبين الرءوس ويلتفت حوله مستنجدا ..

فإذا به يجد أنطوانيت التاييست تقبل نحوه وقد أمسكت بالكاسكيت فى إحدى يديها وبالقبعة القش فى اليد الأخرى .

وفى هدوء قالت له :

ـ تفضل .. لقد أحضرتها من غرفتك .

ووضع الكاسكيت على رأسه .. ووضع القبعة على رأس صديقه الجزائرى .. ونظر كل منهما إلى أنطوانيت شاكرا ..

ورفع كل منهما رأسه .. ليرقب مراسم الاحتفال .

وتعالت الصيحات .. وتوالت الرقصات .. واستمرت الطبول تدق ..

وأحس بأنه يستطيع أن يسمع وأن يرى .

غريق فى عرقه .

مختنق من شياط بنطلونه ..

ولكن الفوران الذى يغلى فى رأسه .. قد هدأ نوعا .

وأخيرا .. انتهت المراسم .

وأعلن أن المخلص .. سيتجه إلى القاعة الكبرى ليفتتح المؤتمر ..

وأحس بالخلاص ..

مهما يحدث بعد ذلك .. فإنه محتمل .. رطوبة .. وحر ... وكلام كثير . كثير .. ومناقشات طويلة .. طويلة .

ولكنه .. مهما كان .. سيجلس تحت سقف .. وفى حماية رقعة من الظل .

١٠ ـ الضحية الأولى فى طريق الموت



بدأ المؤتمر ..

لم يكن هناك جديد عليه ..

كان يمارسه بشخصيتين .. الأولى ظاهرة أمام الناس والثانية مختبئة فى باطنه ..

الأولى تعمل .. وتناقش .. وتتحدث .

والثانية ترقب فى صمت ..

ترقب كل شىء .. وكل الناس ..ترقبه حتى هو نفسه ..

أو ترقب على الأصح .. الشىء الظاهر منه أمام الناس .. الصارم الملامح .. الجاد المظهر ... الذى يبدو وكأنه « هو » .. وهو أبعد ما يكون « عنه » .

وتحركت الصورة الجامدة الصارمة .. إلى قاعة المؤتمر .. حارة .. خانقة .. ولكنها ظليلة .. بينها وبين الشمس المحرقة .. سقف .. يقى

الرءوس شر الحريق ..

وارتدى الجاكتة والكرافتة .. وخلع الكاسكتة .. فقد كان عليه أن يستقبل الرئيس نكروما خارج القاعة ويصحبه إلى مكانه على المنصة ..

واطمأن إلى نظام القاعة ..

الأعضاء فى أماكنهم .. والمترجمون داخل كبائن الترجمة .. وأجهزة الترجمة تعمل كما يجب .. والأقراص المضادة للصداع .. معدة فى جيبه .. والأوراق التى سيقرأ منها مرتبة فى الدوسيه الذى فى يده.. خطبة الشكر.. ورسائل التأييد .. وتقرير السكرتير العام ..

كلام كثير سيقرؤه .. لا سيما هذا التقرير الطويل ولكن لابد أن يقرأه ..

لماذا لا يوزعه على الحاضرين .. ويريح نفسه .

إنهم سيسرحون إذا ما قرأه .. وسيطوونه فى جيوبهم إذا ما وزعه ..

والنتيجة فى الحالتين واحدة .. ضائع .. ضائع .

إذا ما تلى ضائع وإذا ما وزع ضائع ..

بعد كل هذا الجهد الذى بذل فى صياغته .. والمعارك التى دارت من أجله .. بين الاتحاد السوفيتى والصين .. بين الصين والهند .. والهند واليابان .. إلخ .. وبعد كل الشطب والإضافة .. وبعد إضافة أمريكا على رأس الاستعمار بين كل سطر وآخر يضيع كل هذا هدرا ..

من يستطيع أن ينصت إلى ستين صفحة تقرأ .

واستقر رأيه على أن يقرأ بضع فقرات .. ثم يخبرهم أن نص التقرير سيوزع عليهم باللغات الثلاث .. ويريحهم من تعب الجلوس .. وملل الإنصات .

واستراح الساحر فى باطنه إلى هذه النتيجة .. إن حنجرته متعبة .. وهو مصاب بنتوء فى الحبال الصوتية .. يسمى Singer's nod يجعله

يفقد صوته .. إذا ما صاح أو أطال الحديث .. ومنذ عشر سنوات نصحه الطبيب بأن يكف عن الحديث لمدة أسبوع ولقد استمرأ نصيحة الطبيب .. فكاد يكف عنه طوال العشر سنوات .. لا سيما عندما أدرك أن وراء كل كلمة خطأ .. ووراء كل صمت .. نجاة من الخطأ ..

وسمع صيحات من الخارج ..

وأقبل عليه ويلبلك .. وقد تلفع بالثياب الوطنية المزركشة وكشف عن كتفه ونصف صدره .. قائلا فى عجلة :

ـ هيا لقد أقبل الرئيس ..

وشدت الشخصية الظاهرة قوامها .. وأبرزت صدرها .. وسارت فى خطى عسكرية إلى خارج القاعة لاستقبال الرئيس .

وأطل هو ..

هو الأصلى .. من فتحة عينيه .. يرقب ما يحدث .. ويشاهد كل ما يدور حوله .. وكأنه مجرد متفرج .

وأقبل الرئيس نكروما فى بذلته المغلقة الياقة .. وشد على يده .. وسار فى خطى متزنة حتى جلس على مقعده فوق المنصة .. بعد أن رد على تحية الأعضاء وتصفيقهم .

ووقف ويلبلك يقدم نكروما ..

وأبرز فى تقديمه كل ما يملك من قدرة على الخطابة بالحديث وبالإشارة .

ولم يبد على الرئيس نكروما أنه سعيد لتقديم ويلبلك ..

وتحفزت الشخصية المختفية لترقب .. وكأن شيئا مثيرا يحدث أمامها .. لم يكن يثيرها المؤتمر نفسه .

فقد تعودته .. حتى كادت تحفظه عن ظهر قلب .. وباتت تستطيع أن تقول فى كل ثانية ماذا سيحدث فى الثانية التى بعدها ..

ولكن .. إن أشياء خاصة كانت تثيرها .

طريقة تقديم ويلبك .. وشكله .
رأسه الحليق المستدير .. ومنظاره يخفى .. عينا أضاعها ـ كما روى ـ تعذيب الاستعمار .
وعصاه فى يده .. وذراعه العارى .. يلوح به فى حماس وعنف ..
والرئيس نكروما يلوى عنقه .. ويشيح برأسه فـى الاتجـاه الآخـر .. وكلما ازداد ويلبك مديحا .. ازدادت ملامحه تجهما .
حتى أحست الشخصية التـى ترقـب فـى دهشـة .. أن رأس ويلبـك سيطر ، فى نهاية التقديم .
وأخيرا .. كف ويلبك عن الحديث ..
وتنفس هو الصعداء .. فقد خشى حقيقةِ عليه من فرطِ ما رأى مـن تجهم الرئيس وإشاحته بوجهه .
ووقف نكروما يخطب :
وحاولت الشخصية الظاهرة الجادة ، أن تتبع خطابه ..
ونجح فعلا فى تتبع الفقرات الأولى .
ولكن الشخصية المستترة .. بدأت تجره بعيدا إلى أشياء لا علاقة لهـا بالمؤتمر .
أشـياء فـى منتهـى السـخافة .. لا تسـتحق حتـى مجـرد الشـرود .. ولكنها .. كانت لعبته المفضلة ..
طابور النمل الذى كان يسير على حائط غرفته ..
من أين أتى وإلى أين يذهب ..
وكيف أستطاع أن يعبر بحيرة الماء التى أحاطت بعلبة المربى ..
هل ذهب إليها سباحة أم وثبا ..
وبدأت الشخصية الجادة تجر نفسها بعيدا عن طابور النمل المتجه إلى المربى .. إلى الوحدة الإفريقية .. والاستعمار الجديد .. وأشـياء أخـرى خطيرة فى خطاب نكروما ..

ومضت برهة وهى منصتة .

ولم تعرف كيف انساقت مرة أخرى وراء .. العابث فى باطنها ..

هذه المرة لم تكن وراء طابوور نمل .

ولكن وراء خالد محيى الدين .. يضع رأسه فى الأرض .. وساقيه فى الهواء ..

لقد حاول هو هذه الحركة بضع مرات .. ولكن فى كل مرة كان يختل توازنه ويهوى على الأرض ..

طول عمره وهو خائب فى هذه الحركات البهلوانيه ..

لم يستطع مرة واحدة وهو طفل أن يصنع حركة القبة ، حيث يثنى جذعه إلى الوراء ويهبط بيديه على الأرض ، بحيث يصنع من جسده قوسا أشبه بكوبرى الجامعة ..

كان الأولاد جميعا يصفرون بأصابعهم .. إلا هو .. وانتقل من خيبته فى الصفير بالأصابع .. ليكتشف خيبته فى تتبع الحديث الهام الذى يلقى أمامه .. والمفروض أنه سيوجه الشكر إلى الرئيس عنه .. ما عليه ..

إن خطبة الشكر جاهزة .. فى الدوسيه .. خطبة قصيرة ، سيقرؤها بسرعة وينتهى .. ثم يتلو خطابات التأييد من رؤساء الحكومات .. ثم يقرأ ما تيسر من التقرير ..

ويذهب إلى حجرته ليأكل الأناناس ، ويشرب ماء مثلجا وضعه فى الترمس .

وأحس بشىء من الارتياح .. عندما وصل إلى هذه النتيجة ..

وانتهى خطاب الرئيس نكروما ..

وأقبل عليه يهنئه ويشد على يده ، ويعلق شارة المؤتمر على صدره ..

ومضت فترة وهو يحاول .. إدخال طرف الدبوس فى صدر الجاكته ، وطرف الدبوس يأبى أن يدخل ..

شىء غير معقول ..

غير معقول أن يظل ممسكا بصدر الرجل محاولا غرس هـذا الدبـوس الأحمق الذى يأبى أن ينفذ فى القماش .

وأخيرا نفذ الدبوس .

وتنفس الصعداء ..

واستقر الرئيس على مقعـده .. وأشـار إليـه كأنمـا يـود أن يقـول لـه شيئا .. ومال نكروما على أذنه هامسا :

ـ يؤسفنى أن أبلغك إصابة الدكتور جونسون رئيس وفد سيراليون فى حادث عربة فى الطريق قضى على حياته ..

وبدا عليه الوجوم ..

لقد كره أن يفتتح المؤتمر .. بموت أحد أعضائه ..

ولـم يعرف ماذا يقول ..

وأحس نكروما بحيرته .. فعاد يقول فى أسى :

ـ لقد كان صديقا شخصيا لى .. لقد صدمت بموته ..

وصمت برهة أردف متسائلا :

ـ هل ستعلن وفاته الآن للمؤتمر ؟

وتردد برهة قبل أن يجيبه :

ـ أفضل أن أعلنه بعد خروجك ..

فلم يكن معقولا أن يودع الرئيس عند خروجه بوجوم الحزن .. ولـم يكـن معقـولا أيضـا أن يشـيع العضـو الراحـل بـالتصفيق والهتـاف .. المفروض أن يودع به الرئيس عند خروجه ..

وخرج الرئيس نكروما ..

ثم أعلن نبأ موت الضحية الأولى فى طريق وينبا .. أو طريق الموت ..

ولـم يكن يدرى وهـو يعلـن وفـاة الضحيـة الأولى أن هنـاك ضحايـا عزيزة أخرى .

١١ ـ صديقى الراحل بلا عودة



انتهى افتتاح المؤتمر ..

وأحس ببعض العبء ينزاح من على كتفيه .. وبدأ يستعد لاستقبال المشاكل الصغرى ..

مشاكل عضوية المؤتمر .. ومشاكل كلمات رؤساء الوفود .. وترجمتها وطباعتها .. ومشاكل اللجان .. ومشاكل الصراع الطبيعى .. التى باتت من فرط ما تعودها وكأنها إحدى الملامح الثابتة للمؤتمر .

وفيما مضى كان يعيش أيام المؤتمرات بأعصاب مشدودة .. وكان يجلس على مقعده محملق العينين مرهف السمع .. وكأنه ينتظر حدوث كارثة بين آونة وأخرى .. ويحس أن عليه أن ينهض ليمنع حدوثها ويوقف مضاعفاتها ..

وهو يذكر كيف كان يجلس فـى أول مؤتمـر علـى حافـة مقعـده .. ينصت بأذن إلى خطب المتحدثين وبالأخرى إلى كل ما يمكـن أن يجـرى خارج القاعة .. وذهنه يحاول أن يبعد عن هـذا وذاك ليشـرد بعيـدا فـى أشياء لا يمكن أن يكون لها علاقة بالمؤتمر ..

يذكر جلسته فى أول مؤتمـر فـى القـاهرة .. عندمـا سـمع ضجيجـا خارج القاعـة وابتلـع ريقـه .. وانتظـر أن يخفـت الضجيـج .. وتـذوب المشكلة من تلقاء نفسها ..

ولكـن الضجيـج ازداد .. وبـدا كـأن هنـاك إنسـانا يتعمـد الصيـاح والشوشرة .. وكأنه يستنجد بأحد .

ولم يعد هناك بد من أن يتحرك هو ليرى السبب ويوقف الضجيج .

وتسلل من مقعده إلى خارج القاعة .. وعبر الممر المفضـى إلى البهـو الطويل الواصل من قاعة مجلس الشيوخ (التى انعقـد فيهـا المؤتمـر) إلى قاعة مجلس النواب ..

وهناك وجد صاحب الصياح .. وكـان صياحـه قـد أخـذ يـزداد .. وبدا عليه منتهى الانفعال .. وعلا الزبد شفتيه من فرط الغضب ..

وعرف من سيمائه أنه لابد أن يكون أحد المندوبين الآسيويين .. من أقصى الشرق .. بعينيه الضيقتين .. وشعره الأسود الناعم ..

وكان يصيح بخليـط مـن الإنجليزيـة ولغـة أخـرى .. لابـد أن تكـون صينية أو يابانية .. ولم يكن هناك وسـيلة لإيقـاف صياحـه إلا الملاطفـة والتهدئة ..

وأقبل عليه يهدىء من روعه .. وحياه بمنتهى الأدب وسأله :

ــ هل أستطيع أن أقوم بأية مساعدة ؟

وانطلق الرجل يهدر بمنتهى الغضب :

ــ هذه مؤامرة مدبرة ضد كوريا ..

ــ مؤامرة ضد كوريا ؟! .. غير معقـول .. إننـا هنـا جميعـا إخـوة ،

وليس هناك من لا يؤيد كوريا ..

لكن الرجل استمر مندفعا فى سبيل غضبه دون أن يكون للحديث المهذب المهدئ أية فائدة فى تهدئته .. وقال مؤكدا :

ـ أجل .. لقد أضاعوا خطبة وفد كوريا عن عمد ومع سبق الإصرار .

وبدت المسألة تتضح له ..

المشكلة إذن .. هى ضياع خطبة أحد الوفود ..

وأحس بنوع من الراحة ..

ليس فى المسألة إذن قتيل أو جريح .. إنها خطبة ضائعة ..

يمكن مع افتراض ضياعها حقا .. أن تكتب مرة أخرى .

وبدا له أن المسألة كلها لا تحتاج إلا إلى مزيد من الأدب والرقة لكى يهدئ الرجل ويريحه ويحاول أن يصل معه إلى حل لمشكلة الخطبة الضائعة ..

وبدأ يسأله :

ـ كيف ضاعت ؟

ـ لقد سلمت النص الإنجليزى للترجمة .. ولكننا لم نجده ..

وأرسل فى طلب المسئول عن قسم الترجمة .. وسأله عن الخطبة .. وأخبره بما أثاره ضياعها من ضجيج .

وقال الرجل ببساطة :

ـ لقد ترجمت الخطبة فعلا .. إلى الفرنسية والعربية .. وأعطيته الترجمة .

وصاح الرجل الكورى هادرا :

ـ ولكن الأصل الإنجليزى .. أين هو ؟

وقال المترجم ببساطة ..

ـ سنبحث عنه ..

ورد الكورى فى انفعال :

- لقد بحثنا عنه فلم نجده ..

وبدت له المسألة أسهل مما تصور .. إذا كان الأصل الإنجليزى قد ضاع بعد أن ترجم إلى الفرنسية والعربية .. فليس هناك أسهل من إعادة ترجمة الترجمة الفرنسية أو العربية مرة أخرى إلى الإنجليزية ..

وبدأ يعرض الحل السعيد على الرجل .

ولكنه صرخ فيه :

- لا .. نحن نريد الأصل الذى كتبناه .. إن هناك مؤامرة مدبرة ضدنا ..

وبدأ صبره ينفد .. فقال له وهو يحاول أن يبدو هادئا :

- أرجوك .. ليس هناك أية مؤامرة ..

- أبدا .. هذا الرجل التركى الذى تسلم الخطبة لابد أن يكون قد أضاعها عن عمد .. لقد حارب الأتراك ضدنا مع الأمريكان .. وهم هنا يدبرون المؤامرات ضدنا ..

ودهش وهو يسمع عن الرجل التركى الذى حارب ضد كوريا مع الأمريكان ، ويحاول هنا أن يدبر المؤامرات ضد كوريا فى القاهرة .

وسأل من حوله :

- أهنا رجل تركى ؟

وضحك المترجم قائلا :

- لابد أنه يقصد الأستاذ زكى حسنى ..

وكان الأستاذ زكى حسنى .. يبدو طويلا أبيض ، أحمر الوجه .. ولابد أن يكون الكورى قد ظنه تركيا .. وظن أن ضياع الخطبة مؤامرة تركية ..

وابتسم قائلا وهو يربت على كتف المندوب الكورى :

- أؤكد لك أن الرجل ليس تركيا ، وأرجوك أن تهدأ .. وسأحل

لك المشكلة ..

والتفت إليه الكورى غاضبا وهو يقول :

- من فضلك لا تقل لى أرجوك اهدأ .. وأنك ستحل لى المشكلة .

ماذا يقول له إذا ؟

هز هو رأسه ورسم على شفتيه ابتسامة واسعة قائلا بمنتهى الهدوء :

- متأسف جدا .. أرجوك ألا تهدأ .. ولن أحل لك المشكلة ..

وتركه وانصرف ..

وعاد إلى مقعده فى المؤتمر .. بعد أن طلب من المترجمين أن يعيدوا ترجمة الخطبة إلى الإنجليزية ويسلموها له .

مشاكل كثيرة .. كان يواجهها .

فى أول الأمر كانت تخيفة وتشد أعصابه .. وعندما تكررت .. بدأ يقابلها بابتسامة .. ويقذف بها من فوق كتفيه ..

ومن بين تلك المشاكل المزمنة .. مشكلة الأعلام ..

فى كل مرة .. يحضر إليه أحد المندوبين صارخا :

- أنا أحتج بشدة .. إن علمى ليس موجودا .. ولقد وضعتم محل العلم الوطنى علم المستعمر .. إن ذلك مؤامرة ..

ويحس هو أن المشكلة لا يمكن أن تكون مؤامرة .. وأنها لا تعدو أن تكون خطأ من محل جيوفانى الذى يصنع الأعلام أو سهو من صلاح عبد المتجلى ، الذى يضع الأعلام ..

وهو يذكر كيف حضر إليه أحد المندوبين مثيرا أزمة .. مهددا بالأنسحاب ، لأن علمه ليس موجودا ..

وطلب صلاح .. وأمره أن يحضر العلم فورا .. ويضعه على المنصة ..

وبدأ افتتاح المؤتمر ..

وأخذ رئيس المؤتمر يلقى خطبته ..

لم يكن يتصور أن صلاح يحضر العلم بمثل هذه السرعة ..

ولكنه فوجئ به يندفع بالعلم ثم يتسلل وراء المنصة وقد أمسك به في يد .. وبشاكوش في اليد الأخرى .. ولم يكن يعرف كيف ينوى دقه وراء المنصة .. ورئيس المؤتمر يخطب ..

ولكنه لمحه يثبت العلم في مكانه بيده ثم يرفع يده الأخرى بالشاكوش .. وينتظر ..

ولا يكاد رئيس المؤتمر يصل إلى فقرة حماسية .. وترتفع أكف الأعضاء بالتصفيق ..حتى يهوى بالشاكوش على رأس أحد المسامير المثبتة للعلم .

وانتهت الفقرات الحماسية .. وانتهى التصفيق ..

ولم تعد هناك فرصة لتثبيت بقية المسامير ..

وأخذت يده ترتفع كل بضع دقائق .. ليدق دقة ثم يصمت .. ورئيس المؤتمر ينظر إلى محاولا أن يفهم ما هذا الذى يدق خلفه بين حين وآخر !

لم تخل المشاكل .. من مشكلة علم غير موجود ..

وكان هذه المرة علم لبنان ..

وأقبل صاحبه يسأل في دهشة :

ــ أين علم لبنان ؟

وأشار إليه رئيس المؤتمر :

ــ سل السكرتير العام ..

وأقبل على ..

ابتسمت في وجهه .. فقد كان إنسانا عزيزا على ..

كان شكيب جابر .. الشاب الوسيم الرقيق ..

سألنى عن علم لبنان ..

وقلت له ..

ـ اسمع .. يا شكيب .. أنا المسئول عن وضعه .. وإذا كان غير موجود .. فلابد أن هناك سهوا .. أو أن العاصفة التى هبت منذ هنيهة قد اقتلعته ..

وضحك الصديق العزيز وقال :

ـ ما دمت أنت مسئولا .. فلابد أن تكون المسألة غير مقصودة ... سأعتبر العلم وكأنه فى موضعه..

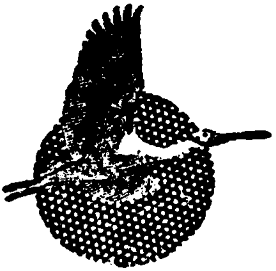
وشد على يدى .. وتركنى ..

ولم أره بعد ذلك ..

لم أره أبدا ..

كيف ؟!

١٢ ـ البرقية .. الأخيرة



اتجهت الوفود إلى قاعة الطعام ..

وعاد هو إلى غرفته فى مبنى إفريقيا ..

كانت حاجته إلى الاسترخاء أكثر كثيرا من حاجته إلى الطعام .. ولم يحس أن وجبة الغذاء التى سيتناولها فى المطعم يمكن أن تكون بحال من الأحوال وجبة شهية بكل ما يصاحبها من مشاكل عليه أن يواجهها فى كل لحظة يجد نفسه وسط الوفود .. حتى ولو كان على مائدة الطعام ..

وسار على الدرب الأخضر الذى تناثرت حوله الأشجار وبدت الأرض مغرقة بالمياه .. وأوراق الشجر خضراء لامعة تتساقط منها قطرات المطر .. ولم يكن الجو خانقا كعادته .. كانت به نسمة مبتلة .. غير تلك التى تفوح منها رائحة الشياط .. كانت العاصفة

الغاضبة هى السبب فى كل هذا ..

لقد بدت نذرها فى سحابة قاتمة تتصاعد من وراء الأفق .. وتنتشر فى السماء كأنها بقعة الحبر الأسود تفرش فى ورقة نشاف .. وأظلم الجو . كان الليل قد ادلهم وسمع فى الهواء فحيح .. تحول إلى صفير .. ولم يلبث حتى انقلب إلى ما يشبه العواء ، فالزئير ، وبدا كأن فى الجو شيئا أكثر من مجرد هواء يهب .. أو ريح تعصف ..

لقد بدا كأن فى كل ذرة من ذرات الهواء .. حيوان يضج فى جنون .. ويندفع فى عنف شديد كأنه يود أن يحطم جدارا يسد طريقه ..

وأغلقت النوافذ .. وسدت الأبواب .. ولكن الزجاج لم يسكت صوت المعركة العنيفة الدائرة فى الخارج بين خصمين لا وجود لهما .. واستمرت الريح الغبية بعصفها الأحمق .. فى معركتها الوهمية مع لا شىء .. أو مع أشياء لم تفعل لها أى شىء ..

اقتلعت صوارى الأعلام .. ولطمت النوافذ والجدران التى لم تغلق فأطبقت أفواهها .. وأخذت تنطح الجدران وتحنى رقاب الأشجار وتلوى أذرعها .

وبدا المنظر غريبا على عينيه ..

بعد كل هذه الشمس المتوهجة .. والهواء الصامت الجامد الخانق ، تختفى الشمس وتسود السماء .. وينطلق الهواء كأنه جواد نائم فاجأه الحوذى بضربة كرباج فانطلق على غير هدى ..

وبدأت قطرات المطر تطرق زجاج النوافذ .. وكأنها تعدو وراء الريح ، ولم تلبث أن تحولت القطرات إلى خيوط متصلة من المياه .. كأن السماء كلها قد تحولت إلى دش كبير يغسل ظهر الأرض ..

وكما حدث كل هذا فجأة .. انتهى فجأة .. اختفى السحاب .. ابتلعته السماء ..

كل هذه الكتل السوداء .. ذابت فى غمضة عين .. كما تذوب قطعة الشيكولاتة فى فم الطفل ..

وسكت الهواء الغبى ..

وكما ثار بلا مبرر .. هدأ بلا سبب ..

وعاد الكون إلى ما كان عليه .. بلا سحب ولا ريح ولا مطر ..

شىء واحد تبقى من كل هذا .. هو البلل .. بكل ما يصحبه من إحساس بالبرودة ..

ليست برودة حقيقية .. وإنما شىء يمكن أن يعبر عنه بالطراوة .. تلك الطراوة التى كانت تبعثها الأرض المبتلة أمام الحوانيت وأبواب البيوت فى قيالة بئونة .. عندما يستعين البؤساء من أصحاب الحوانيت والبيوت على نار جهنم المنبعثة من الأسفلت بالتسلى برش الأرض بالخراطيم ..

وعبر الأرض المبتلة الخضراء وهو يحس بإرهاق شديد .. لم يكن قد ذاق النوم فى الليلة السابقة ..

كان اجتماع اللجنة التنفيذية الذى سبق عقد المؤتمر للبت فى طلبات العضوية قد استغرق طوال الليل .. وكان قد قضى الليلة بطولها جالسا على مقعده .. يستمع إلى المناقشات الطويلة .. الطويلة .. الطويلة ..

وكان ينصت إليها كالغريب ..

ينصت فى دهشة .. ويتساءل ..

لماذا يشغف الإنسان بالكلام كل هذا الشغف .. ؟

لقد أحس أن متعة الكلام عند الإنسان أكبر من أى متعة أخرى ..

أكبر حتى من متعة الآكل أو النوم ..

وإلا لماذا يجلس كل هؤلاء .. طيلة ليلهم لا يفعلون شيئا سوى الكلام ..

والمصيبة أن عليه أن ينصت ..
لأن عليه أن يجيب ..
وعليه أن يصد الهجوم .. إن كان هناك هجوم ..

وكان يذكر توفيق الحكيم .. فى جلسته فى جلسة المحكمة عندما كان يعمل كوكيل نيابة وكيف كان يشرد بذهنه فلا يعى شيئا مما يقال حوله ، حتى صادف دخول أحد رؤساء النيابة الجلسة .. عندما كان المحامى يهاجم النيابة .. وانتظر رئيس النيابة من توفيق الحكيم أن يرد الهجوم ، باعتباره ممثلا للنيابة ..

ولكن توفيق الحكيم .. كان فى واد .. والمحكمة فى واد آخر .. ولم يعرف كيف يمكن أن يرد .. وهو لا يعرف فيم يهاجمه المحامى ..

وكانت ورطة لم ينقذه منها سوى القاضى الذى يعرف أن توفيق الحكيم .. يشرد فى المحكمة .. ولا يعرف شيئا مما يدور فيها ..

وحسد توفيق الحكيم على شجاعته فى الشرود فى المحكمة .. فلم يكن هو يجسر على ذلك .. وكان عليه أن يجلس محملق العينين مرهف السمع طوال الليل ... لأحاديث معادة .. يعرفها هو جيدا .. ويعرف قبل أن يقولها قائلها .. أنه سيقولها .. ويعرف ماذا يمكن أن يدفعه إليها .. وماذا يمكن أن يعنى بها .. وصعد الدرج إلى حجرته..

ثم استقر على المقعد المريح فى الشرفة .. وأخذ يرقب المكان الفسيح الأخضر من عل .. يرقب الوفود الرائحة الغادية .. مقبلين على مكاتب السكرتارية .. ولم يشك فى أنهم يبحثون عنه .. وأحس بمتعة فى أن يرقب الغير .. دون أن يرقبه أحد .. وأن يرى الناس .. ولا يروه .. وأن يحس أنه أفلت منهم .. وأنه يستطيع للحظات أن يسترخى .. دون أن تشد أعصابه مشكلة .. أو يثير انتباهه .. طلب أو سؤال ..

ولم يطل أسترخاؤه .. فقد كان عليه أن يهبط بنفسه لحضور اجتماع بعد الظهر ..

وأقبل على قاعة الاجتماع .. من جديد .. عندما واجهه المدير الفانى الممتلئ .. ليسأله :

ـ هل تعرف رئيس وفد لبنان ؟..

ـ طبعا أعرفه ..

ـ لقد وصلت إشارة إلينا بأن حادثة قد وقعت له فى الطريق ..

وأحس برجفة .. وأقبل على الرجل يسأله فى حدة :

ـ من تقصد ؟..

ـ رئيس وفد لبنان ..

ـ من هو ؟..

وأخذ الرجل يردد بالإنجليزية اسما أدرك من مضمونه أنه شكيب جابر .

وعاد يسأل فى جزع وهو يذكر الحادثة الأولى فى طريق وينبا .. وكيف صرعت رئيس وفد سيراليون .

ـ كيف أصيب ؟

وهز الرجل كتفيه قائلا :

ـ لست أدرى ..

ـ أعنى .. هل ؟!!

وعاد الرجل يهز كتفيه قائلا :

ـ لقد نقلوه إلى المستشفى .. وحالته سيئة .. ولست أعرف أكثر من هذا ..

وسرى النبأ فى الوفود ..

وأمتلأت القاعة بجو من الوجوم .

وبدأ هو يسترجع فى ذهنه .. صورة شكيب جابر .. بقامته الطويلة .. ووجهه الوسيم .. ورقة خلقه .. واتزان تصرفه .. وإخلاصه .. وإيمانه .

وذكر كيف كان وجوده يبعث الطمأنينة فى نفسه .. وكيف كان يقنعه بحقيقة الأخوة العربية .. والثقة المتبادلة .

وانتهى الاجتماع وهو شارد .. عن كل ما حوله .. وأخذ يدعو الله أن ينجى الشاب الطيب الرقيق ..

لقد كره أن يموت ..

لقد أحس بالجزع عليه .. من أجل نفسه ..ومن أجل غيره من الأحياء .. الذين ينتظرهم أناس يحبونهم .. ويتلهفون على عودتهم .. ومن بين هؤلاء الأحياء .. هو نفسه ..

ليس بمستبعد عليه .. أن يكون هو المصاب الراقد فى المستشفى .. بين الموت والحياة .. ينتظر أوبته .. أحباء .. خلا ذهنهم مما يمكن أن يكون هوعليه .. أحباء .. ينتظرون أوبته .. سائرا على قدميه ..

وكان عليه أن يذهب إلى أكرا بعد انتهاء الاجتماع لحضور استقبال أقامه السفير .. وللذهاب إلى المستشفى لزيارة الصديق المصاب .

وكان يرقب الطريق أمامه من خلال الشعاع الذى ألقاه ضوء السيارة .. وكانت الرؤيا محدودة بمدى الضوء .. وكان يحس أن شيئا ما سيقفز من وراء دائرة الضوء .. من الظلمة المعتمة .. ليلطم العربة .. براكبها ..

وانتهت رحلة الطريق .. ووصل إلى بيت السفير فريد عبد القادر ..

وانهمك فى موجة من التحيات والابتسامات .. وفى داخل صدره شىء يثقله .. ويشده إلى أسفل .. وفى ذهنه صورة الصديق اللبنانى .. يسأله عن العلم اللبنانى .. ويؤكد له .. أنه لا يقلق ما دام هو مسئولا عنه .

ولم يطق الوقفة بين الوفود فى الاستقبال وتسلل مع أحد الرفاق ومعه الصديق الجزائرى الدكتور الهدام إلى المستشفى حيث يرقد شكيب .

وانطلقت العربة فى طرقات أكرا.. حتى وصلت إلى المستشفى ..

وأقبل عليه طبيب غانى أشيب الـرأس .. وهـز رأسـه دون أن ينبس بكلمة ..

وأحس هو بالجزع من أن يراه ..

ومع ذلك شيء خفى كان يدفعه إلى أن يقـترب حتـى وقـف بباب الغرفة ..

وأبصره راقدا ..

ورأى جانب وجهه .. وأنبوبـة الأكسـجين بـين شـفتيه .. والدمـاء تلوث الأربطة التى شد بها ..

وزاد ثقل الشيء الذى يحس به ..

وأقبل على صديقه الجزائرى يسأله :

ـ ما رأيك ؟

وبدا اليأس فى معالم وجه الصديق .. وهو يهز رأسه قائلا :

ـ لا فائدة .. لقد أصيب بنزيف فى المخ ..

ـ ألا يمكن عمل شيء ؟..

وعاد يهز رأسه والحزن يقطر من ملابسه :

ـ لا أظن ..

ثم تمتمم قائلا :

ـ إنى على استعداد لأن أقوم بأى شيء ولكنى أعتقد أن اللّٰه وحده هو الذى يملك مصيره ..

وانتظر برهة ليستمع إلى صديقه اللبنانى الذى يستوطن غانـا والـذى صاحبه إلى وينبا :

ـ لقد كان مفروضا أن نعـود سـويا إلى أكـرا .. ولكنـه قـال لى إن عربتى قديمة ولن تسعفه .. لأنه يريد أن يعود بسـرعة إلى وينبـا ليحضـر اجتماع بعد الظهر .. وفضل أن يذهب فى أحد التاكسيات ..

ويضرب الرجل رأسه بقبضة يده ويهتف والدموع ملء عينيه :

ـ ليتنى أجبرته على أن ينزل معى .. لقد لحقت به فى الطريق .. ولكن كان كل شىء قد حدث .

وترك المستشفى ..

وفى اليوم التالى .. أبلغ أنه قد انتهى .. وأن الجثة سترحل إلى بيروت ..

وأحس طوال المؤتمر .. أن عبئا يثقل كاهله ويخنق أنفاسه .

ولم يستطع من أن يمنع نفسه من تصور صاحبه يهبط من الطائرة .. مسجى فى نعشه .

وأن أحباءه سيقفون على شرفة المطار .. لاستقباله محمولا . شىء كريه .. كريه .

وبدا له .. أن عودة إنسان على هذا الحال .. خير منها بكثير عدم عودته .

وفى نهاية المؤتمر .. لم يعد للقاهرة ..

ذهب إلى بيروت ليقول لشخص ما .. حياتكم الباقية .. ويعزى إنسانا ما .. أيا كان .. فى صديقه الراحل .. وصعدت به السيارة تحمله إلى الجبل ..

وهو يحب الجبل فى لبنان .. فى كل وقت .. صيفا .. كان أم شتاء ..

وأقبلت السيارة على عالية .. ولم يحس للمنظر الذى يحبه نفس البهجة .. كان كل شىء قاتما رهيبا ..

وأقبل على البيت ثم وقف أمام أهل الصديق الراحل .. فى حضن الجبل .. ومد يده يشد على أيديهم .. حتى وصل إلى أبيه ونظر إليه.. وعجب كيف استطاع الرجل أن يقف على قدميه .. وكيف استطاع أن يستقبل الناس ويتحدث معهم .

وجلس يستمع إلى حديث الرجل وهو يتحدث عن ابنه .. وبدا كأنه يتحدث عن إنسان حى .. روى عنه أشياء كثيرة وكان آخر ما روى قوله :

ـ طالما تمنيت أن يتزوج .. ولكنه كان يقول لى إن الوقت لم يحن

بعد.. وعندما ألححت عليه وعدنى بأن أول شىء سيفعله بعد العودة هو الزواج ..

وتدمع عيناه وهو يقول :

ـ ولكنه لم يعد ..

ويقلب الرجل برقيات فى يده ثم يواصل الحديث قائلا :

ـ كنت أفتح برقيات العزاء التى انهالت علىّ فوجدت اليوم .. برقية منه .

ويصمت الرجل برهة ثم يعاود الحديث قائلا وهو يقرأ البرقية :

« وصلت إلى وينبا بخير .. أنا بصحة جيدة وكل شىء على ما يرام .. سأعود إليكم لأنفذ وعدى لكم .. أتمنى أن أراكم على خير .. »

ويسود الصمت ..

صمت ثقيل ..

ولا نملك إلا أن ننهض لنشد على يد الرجل .. وشفاهنا تتمتم :

ـ اللهم ساعد الرجل ..

اللهم جنبنا شر التجربة ..

١٣ ـ شرود على شاطئ الأطلنطى

كوناكرى ..

الساعة الرابعة صباحا ..

وقد أصابه القلق الطبيعى الذى يصاب به فى مثل هذا الوقت من الليل .. منذ أن كان ضابطا صغيرا فى الفرسان ، وكان ضرب النار يحتم عليهم الذهاب إلى ميدان الضرب قبل الشروق .

وتقلب فى الفراش برهة ، وأخذ يصغى إلى صوت المحيط وكأنه يمضغ صخور الشاطئ ، ولمح الضوء من الشرفة المتسعة الممتدة بعرض الغرفة .. ضوء هادئ قد غمر الكائنات وبدد ظلام الليل .

وأحس بشىء يجذبه من الفراش إلى الشرفة .. ربما كان النسمة الباردة ، أو الشعاع الفضى ، وربما كان ضيقه بأرق الفراش ، وبالرقدة العاجزة .

وترك الفراش إلى الشرفة ، وتمدد فى مقعد مريح ، ونظر إلى المحيط الممتد على مدى البصر ، غارقا فى ضوء القمر الشاحب .. وبدت له أضواء تتلألأ فى الجزيرة المقابلة ، وسفينة رابضة على مقربة من الشاطئ ، كأنها كلب أغفى .

وتذكر جلسته فى الليل منذ عشرات السنين ، وهو بعد فى الخامسة عشرة .. وأهل البيت قد ضمتهم المضاجع .. وهو يحملق فى السماء ، وفى النجوم ، صامتا شاردا .

لم يحس فى باطنه شيئا قد تغير .. نفس الصبى الجالس على حافة شرفة البيت فى روض الفرج .. هو .. هو ذات الرجل الجالس على حافة شرفة الفندق أمام الأطلنطى فى الجانب الآخر من القارة .

لم يتغير فى باطنه شىء .. حتى ليكاد يستكثر عليه كلمة الرجل ، ويقول ذاك الصبى .

شىء حزين فى باطنه يملؤه بالحيرة والوحدة ، والغربة فى هذه الأرض .

شىء يجذبه نحو السماء والفراغ .. والأفق .. والمحيط الواسع .

شىء يملؤه إحساس .. حمال أثقال على ظهر الأرض .. ينطلق بلا وعى .. وحمله على كتفيه ، وكأنه سعيد ..

وعندما يجلس برهة .. ليسترد أنفاسه .. ويحملق فى السماء .. وفى النجوم .. وفى الفراغ العريض .

لا يملك إلا أن يسأل نفسه .. وبعد ..

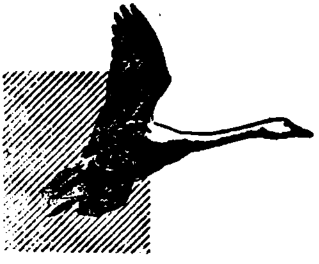
ووسط السكون والوحشة ، لا يكاد يسمع .. حتى صدى صوته ..

وعاد من شروده .. ومن وراء الأفق تنفس الصباح ، وسرت أنفاسه البيض فى الضوء الشاحب :

ونهض ليحمل أثقاله .. ويواصل السير ..

وكأنه .. سعيد .

ذكريات .. من أديس أبابا



الثانية بعد منتصف الليل .. والعربات تتلاحق متزاحمة فى طريق بلا معالم .. وأنا انحدر وحدى أتحسس مواطىء قدمى بين الحجارة على جانب الطريق .. محاولا أن ألتقط عربة تحملنى إلى االفندق .

وبدأت أكتشف غباوتى ـ متأخرا ـ كما هى العادة .. وأنا أجد نفسى ضائعا فى سواد الليل وسط الزحام المجنون . وكل الناس ينطلقون بعد سهرة طويلة مرهقة يتلمسون إغفاءة بعد أيام وليال من الجهد الشاق .

... اكتشفت غباوتى التى جعلتنى أترك الأصدقاء والزملاء من أصحاب العربات ... وأنحدر وحدى فى الطريق باحثا عن تاكسى ...

وأين ؟..

فى أديس أبابا .. التى لا أكاد أعرف فيها طريقا واحدا .

ومتى ؟..

بعد منتصف الليل .. ومؤتمر الوحدة الإفريقية الأول قد انفض .. والعربات المتزاحمة تسير بجوارى دون أن يعبأ بى أحد أو يفكر فى دعوتى إنسان ..

وكل ما فى ذهنى هو اسم الفندق .

أما كيف أعود إليه .. ومن أسأل .. وماذا أركب .. فالله وحده أعلم .

ولم يكن هناك بد من أن أسير فى الطريق المظلم .. إلى أى مكان ..

وأنا فى حالات اليأس أتوكل على اللّه .. وينقلب ضيقى إلى نوع من السعادة المستهترة .. أو اللامبالاة السعيدة .

وبلغ من سعادتى السخيفة التى لا مبرر لها .. أن بدأت أصفر ..

وأحسست بعربة تتمهل بجوارى .

وتملكتنى فرحة .. لابد أن يكون المتسكع بجوارى .. قد أحس بمشكلتى .. فرق لى .. ونوى أن ينقذنى من تشردى ..

وأسرعت الخطى تجاه العربة .. ولكن الخطى بدأت تتثاقل وأنا فى طريقى إليها .

كان وجهها لا أعرفه .

ولم أشك فى أن صاحب العربة .. قد توقف لأى سبب إلا أنا ..

وهممت بالسير فى طريقى .. حتى لا أخذل .. ولكن سمعت صوتا رقيقا ينادى بالعربية :

ــ تفضل ..

وبدأت أحس لسعادتى معنى ..

اقصد سعادتى الغبية التى كنت أشعر بها بلا مبرر وأنا أسير ضائعا فى سواد الليل .. فقد وجدت شيئا يمكن أن يبعث على السعادة .

أولا : صوتا يدعونى للتفضل ولإنهاء حالة التشرد والضياع .. التى لم يكن هناك أمل فى انهائها قبل شروق الشمس .

ثانيا : الصوت حلو .. وصاحبه .. أو بوجه أدق .. وصاحبته حلوة .. ولوحدها فى العربة ..

سوداء .. إفريقية .. حلوة بكل مقاييس الجمال .

لا يعيبها شيء إلا أن عينيها حمراوان جدا !!

وتمنيت لو كانت معى زجاجة قطرة .. أقطر لها فى عينيها حتى يزول الاحمرار .. وتكمل فرحتى بها .. وطمأنينتى إليها .

ولم يكن معى زجاجة القطرة .

ولو كانت معى فما أظن من العقل .. أن أفاجئها بالتقطير فى عينيها .. وهى تدعونى فى الطريق .. بأن أتفضل .

ولكن .. لماذا تتحدث بالعربية ؟.

وقلت لها وأنا أقترب منها :

ـ مساء الخير ..

ـ مساء النور ..

ومرة أخرى أكتشف شيئا جديدا .. لقد كانت لغتها .. شامية .. عجيبة .. هذه الفتاة الحلوة السوداء الشامية .. التى تدعونى بالتفضل لتنقذنى من تشرد الليل .

ما حكايتها ..

وماذا يهم ؟

ما دامت ليست غولة .. فكل شيء يمكن أن ينتهى إلى خير .

وقلت لها فى أدب إنى أبحث عن تاكسى ..

فأجابت بلهجتها الشامية :

ـ بوصلك مطرح ما بتريد .

وأخذت مكانى بجوارها وقلت لها اسم الفندق .

وتحركت العربة .. وقبل أن أدع سيل الأسئلة الحائرة تنطلق من بين شفتى .. عدت أتأملها ..

وجدتها حلوةً .. حقيقة .

أنف دقيق مرفوع .. وشفتان مزمومتان ورموش طويلة .. غطت حمرة العينين ..

وكان أول ما سألتها :

ـ جنسك إيه ؟

ـ حبشية .

ـ وبتتكلمى عربى ليه ؟

ـ لأنى عشت فى فلسطين سنين طويلة .

وعلمت أنها هاجرت من الحبشة وهى طفلة بعد الغزو الإيطالى عندما ترك هيلاسلاسى البلاد واستوطنت فى فلسطين طول مدة الحكم الإيطالى .. ثم عادت إلى الحبشة مع عودة الإمبراطور ..

وفى الطريق الطويل إلى الفندق .. حدثتنى الحسناء الحبشية الحمراء العينين الشامية اللهجة عن صباها بين الحبشة وفلسطين وأحسست بها مؤرجحة الحنين بين فلسطين وإفريقيا ..

وانتهى الحديث عن فلسطين .

وعدنا إلى إفريقيا ..

وهزت الحسناء رأسها وهى تشرد ببصرها فى الطريق الخالى .. قائلة :

ـ ما هو ؟

ـ هذا الاجتماع الذى ضم قواد أفريقيا لأول مرة فى التاريخ .. أكثر من ثلاثين بلدا إفريقيا يجلسون على مائدة واحدة .. ويتخذون قرارات موحدة .. وينشئون منظمة للوحدة الإفريقية ..

ـ رائع حقيقى أن يحدث هذا .. ولكن هل تظنين أنه ستوحد أفريقيا حقيقة .. هل تظنين أنه يمكن أن يذوب التنافر بين التكتلات السياسية داخل أفريقيا .. كتلة الدول الناطقة بالفرنسية .. وكتلة الكومنولث المرتبطة بالسياسة البريطانية فى القارة وكتلة دول شرق أفريقيا الناطقة باالإنجليزية .

إن الشيء الذى لا يمكن إنكاره فى إفريقيا أن هناك صراعا بين تيار تحررى وتيار ممالئ للاستعمار .

وأجابت الحسناء :

ـ لماذا لا نكون متفائلين .. ونؤمن بأن الوحدة الإفريقية يمكن أن تقضى على هذا الصراع وأن تجعل من نقط الالتقاء كالنضال من أجل الحرية والتعاون من أجل البناء ومن أجل تحقيق الرخاء والسلام هدفا موحدا للقارة كلها .

ـ إما أن يحدث هذا .. أو يحدث عكسه .. فيؤدى الصراع بين التيارات المختلفة إلى عجز منظمة الوحدة الإفريقية عن مواجهة المشاكل الخطرة التى تواجهها أفريقيا فى طريقها إلى الحرية والبناء .

واليوم وبعد ثلاث سنوات مضت على المؤتمر الأول فى مايو ١٩٦٣ وبعد أن التقى رؤساء أفريقيا لقاءهم الرابع فى منظمة الوحدة الإفريقية .

ماذا حدث ..

أين تقف منظمة الوحدة الإفريقية التى أقامها الرؤساء من أجل تقوية وحدة الدول االإفريقية وتضامنها . وتنسيق تعاونها ودعم جهودها لتحقيق حياة أفضل لشعوب أفريقيا والدفاع عن سيادتها وسلامة أراضيها واستقلالها والقضاء على الاستعمار فى جميع أشكاله من أفريقيا .

فى الطريق الشاق الذى سلكته المنظمة خلال السنوات الثلاث

الماضية تعثرت خطاها أكثر من مرة .

فى مشكلة روديسيا الجنوبية قرر مجلس وزراء منظمة الوحدة الإفريقية فى ٥ ديسمبر ١٩٦٥ وقف العلاقات الاقتصادية مع روديسيا الجنوبية .. وقطع العلاقات مع المملكة المتحدة .

وبدا واضحا أن دول التيار التحررى وحدها هى التى نفذت القرار منذ قامت بقطع العلاقات مع بريطانيا كل من ج . م . ع . وتنزانيا ومالى والجزائر وغينيا وموريتانيا والكونغو برازافيل وغانا (نكروما) والسودان .

وقد أعادت غانا العلاقات بعد الانقلاب الأخير فى ٢٤ فبراير ١٩٦٦ وأعادت السودان العلاقات فى أبريل ١٩٦٦ .

ولقد بدا واضحا أن الدول الكبرى قد بذلت كل ما تستطيع من أجل الإبقاء على نفوذها داخل القارة واستطاع الاستعمار أن يتسلل إلى المنظمة عن طريق الدول الإفريقية الأعضاء الممالئة له وأن يحاول فرض سياسته بواسطة هذه الدول . وبدا ضعف المنظمة ظاهرا فى الفشل فى اتخاذ الكثير من القرارات التى يجب أن تواجه بها أفريقيا مشاكلها .. أو فى عدم تنفيذ القرارات التى اتخذت من مجموعة كبيرة من الدول الممالئة للاستعمار والتى تجد أن هذه القرارات غير ملزمة لها .

ومع كل ذلك فإن اليقين بأن لدى بلاد أفريقيا ما تتفق عليه وما تتعاون من أجل تحقيقه أكثر كثيرا مما تختلف عليه ..

إن مشكلة أفريقيا الحقيقية هى مع الاستعمار . إن أفريقيا لا يمكن أن تكون إلا وحدة واحدة ضد العدو المشترك الذى استعبدها وما زال يحاول استعبادها ؟

والمشاكل التى بين أعضائها .. كمشاكل الحدود بين السودان وتشاد أو بين الصومال وكينيا أو الصومال وأثيوبيا هى أيضا من صنع الاستعمار ..

ومعركة الحرية تضع أفريقيا كلها فى جانب والاستعمار فى جانب .
ومعركة التنمية أيضا تضع أفريقيا كلها فى جانب والاستعمار الجديد بكل صوره فى جانب آخر .
وما من أحد يمكن أن ينكر أن وحدة أفريقيا فى هذه المرحلة من مراحل التاريخ هى السبيل إلى القضاء على الاستعمار والاستعمار الجديد ومواجهة خطر التخلف وإزالة الفوارق الشاسعة فى مستويات المعيشة بين الشعوب الإفريقية والشعوب المتقدمة ..

***

وبعد .. لست أدرى ماذا يمكن أن تقول الحسناء الحبشية الحمراء العينين الشامية اللهجة فيما فعلت السنون بمنظمة الوحدة .. ولا أدرى أين هى من لقاء أديس أبابا اليوم ..

ولقد ودعتها ليلتذاك أمام الفندق ..

ودعتنى لزيارتها فى دارها .

ولقيتها مع زوجها .. وجلسنا نتناول الشاى .. ونطل من الشرفة على الأرض الجبلية الخضراء الفسيحة .. وقالت لى إن المواطن الحبشى لا يحب أن يبذل جهدا كبيرا فى الأرض . وأن تطوير الزراعة بالآلات قد يغير وجه المجتمع الحبشى . ثم استطردت تقول .. إن المجتمع الحبشى يحتاج إلى تغيير شامل ولكن شيئا لا يمكن أن يحدث فى حياة الإمبراطور .

وتركت الحسناء الحبشية وفى رأسها ثلاث أمنيات .. فى الحرية والرخاء .. وأن ترى الحبشة وقد تطور مجتمعها .. وأن تعود يوما إلى فلسطين الكبيرة .. العربية التى عاشت طفولتها فى رباها .. لتجدها فلسطين العرب ولا تجد بها أثرا لإسرائيل .

حقق اللّه آمالها .. وآمالنا .

طرقات صدق .. على باب الأكاذيب



• قبيل الغروب والقرص الأحمر ينزلق فى الأفق الغربى ساحبا ذيوله الأرجوانية فوق قمم الأشجار المتكاثفة أمام شرفة بيت الحاكم فى أروشة وسط المرتفعات القائمة فى شمال تنجانيقا .. والرجل الممتلئ يجلس أمامى مادا ساقيه ملقيا برأسه على مسند المقعد .. وتناول رشفة من كأس فوق منضدة صغيرة وتساءل ببساطة :

ـ لماذا تضيقون بهم كل هذا الضيق .. إن فلسطين منبت دينهم منذ آلاف السنين .

وهززت رأسى متسائلا فى دهشة :

- ومنذ متى وفى أى مكان من العالم كان منبت الأديان مجمعا للقوميات المتنافرة ومبررا لسرقة الأوطان من شعوبها .

وتردد الرجل برهة ثم قال :

- ولكنهم يزرعون الأرض أحسن من العرب .

- هكذا ؟!

- يقولون هذا .

- وبفرض أنه صحيح .. هل كفاءة الألمان فى الصناعة يمكن أن تكون مبررا .. لطرد شعب تنجانيقا من أرضهم وإحلال الألمان محلهم ؟ إنكم تضيقون بالمستوطنين الهنود لمجرد سيطرتهم على تجارتكم .. فماذا تفعلون لوأنهم فكروا يوما فى طردكم ؟

وقال الرجل فى غضب :

- نبيدهم .

- لماذا إذن تستكثر الإبادة على إسرائيل ؟

وهز الرجل رأسه من الحيرة وأردفت أتساءل :

- هل تعلم أن إسرائيل كان يمكن أن تكون فى قلب إفريقيا .. وأن شعبا من شعوبها كان يمكن أن يكون هو الضحية ؟..

- كيف ؟

- لقد عرضت أوغندا على اليهود لكى تكون وطنا قوميا لهم.. ولكنهم رفضوه وفضلوا عليه إسرائيل .. فما رأيك لو أن مأساة فلسطين .. انتقلت هنا إلى جوارك فى أوغندا .. وما رأيك لو أن شعبا إفريقيا طوته معسكرات اللاجئين فى تلك الأحراش التى أمامك .

وازدرد الرجل ريقه ومضت فترة صمت شرد ببصره وسط الأحراش . ثم قال فى صوت خفيض :

- لم أفكر فى المسأله مطلقا على هذا الوجه الذى قلته .

وتركت الرجل ليلتذاك وأنا أشعر أن الشعب الإفريقى مخدوع مضلل فى حقيقة إسرائيل .. وأن من حقه علينا ومن واجبنا نحوه .. أن نشرح له الحقيقة .. حتى لا نضيق بسوء فهمه لمأساة القرن العشرين .

وبعد بضع سنوات جلست فى قاعة الجامعة العربية حيث اجتمع رؤساء الدول الإفريقية وأخذت أنصت إلى الرئيس عبد الناصر .. وهو يلقى خطبته .. وأذكر أنه ببساطة قال للرؤساء إننا لا نريد أن نحرك أحدا أو نورط أحدا .. ولكن كل ما نبغيه هو أن تفهموا قضية فلسطين على وجهها الصحيح .. أن تفهموا حقيقة مأساة الشعب السليب الطريد .. ونحن بعد ذلك نترك الحكم لضمائركم .

وتحدث الرئيس جمال عن قضية الشعب الفلسطينى .. وكان مجرد شرحها .. والإقناع بحق الشعب الفلسطينى فى وطنه وفى أرضه .. كسبا لإفريقيا المتحررة فى صالح شعب فلسطين .. وكشفا لكل أباطيل إسرائيل وأكاذيبها .

وخلال الأسبوع الماضى جال الرئيس جمال عبد الناصر جولته الطويلة فى ربوع تنزانيا .. ومر بأروشة .. ولعله صادف حاكم أروشة الذى لقيته فى ذلك الحين .. ولست أشك أن خطوات الرئيس فى أحراش أروشة وفى غيرها .. كانت طرقات صدق على باب أكاذيب إسرائيل .. لقد رأى شعب تانزانيا من خلال الحضارة والإنسانية .. والخير والسلام ..

إن مزيدا من اللقاء والترابط يجب أن يقوم بيننا وبين إخواننا الإفريقيين حتى تبدد من إفريقيا غيوم الأكاذيب والأباطيل التى نشرتها إسرائيل فى سماء أذهان الإفريقيين .

علم .. فوق الثلوج



• على خط الاستواء .. في ساعة شروق .. في بلدة موشى .. وأشعة الشمس تداعب الثلوج على قمة كليمنجارو .. والجبل الشاهق يبدو من بعيد ككأس الجلاس .. وقفت والرئيس نيريرى بعد أن استعرض حرس الشرف قبيل افتتاح المؤتمر الثالث للتضامن .. وأشار الرجل النحيف الرشيق ذو الرأس المستدير .. والابتسامة المشرقة والعينين اللتين تشعان ذكاء .. أشار بعصاه إلى قمة الجبل قائلا :

ـــ عندما تبدو قمة الجبل ناصعة واضحة نحس أن يومنا يوم سعيد .. أرجو أن تكون هذه خير بداية للمؤتمر .

وشرد الرجل ببصره بعيدا إلى قمة الجبل الناصعة وأردف يقول :

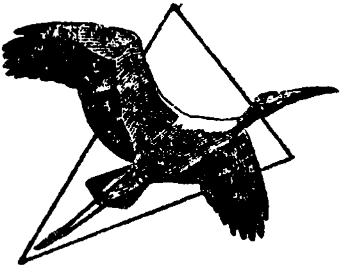
ـ هناك على قمة الجبل وضعنا علم الحرية .. فى يوم الاستقلال .. أرجو أن يظل خفاقا فوق القمة إلى الأبد ..

لقد مرت تنجانيقا بأيام شديدة .. واجتازت زنزبار أياما أشد .. وكنت أذكر دائما كلمات الرجل النحيف الذكى ذى الرأس المستدير والابتسامة المشرقة .. لأشفق على العلم الخفاق فوق قمة الجبل الأبيض .

وخرجت تنجانيقا وزنزبار من الشدة .. بوحدة أشد .. وأصبحت تانزانيا أحد عمد الوحدة والحرية فى القارة المشرقة .

تحية إلى نيريرى .. وكواوا .. وكامبونا .. والأصدقاء الذين يقفون بباب إفريقيا الجنوبى ليحشدوا قوى النضال ضد العنصرية فى جنوب إفريقيا والمستعمرات البرتغالية .

نجفة الست !



• فى فندق مارنجى .. ونسمة باردة تهب من الأحراش الخضر .. والروابى تعلوها أشجار الموز بأوراقها العريضة .. والغابات تتكاثف من حولنا .. وأصوات زئير تعلو من آونة إلى أخرى وقف أوسكار كامبونا رئيس المؤتمر ووزير داخلية تانزانيا منذ بضع سنوات ـ يسائلنى فى دهشة بعد انتهاء المؤتمر .

ـ أمتأكد أنت أنك لا تريد الذهاب إلى نزهة الغد مع بقية الوفود فى زيارة للـ National Parks .

وهززت رأسى مؤكدا :

ـ لا .

ـ إن هذا خير ما لدينا هنا فى منطقة الشمال .. سترى الوحوش فى الغابة على طبيعتها .

ـ لابد أن أتم كتابة السيناريو قبل أن أعود إلى القاهرة وليس أمامى سوى اليوم وغد .

ـ إذن تعال .. هذا خير مكان يمكن أن تسجن فيه نفسك دون أن يزعجك أحد .. حتى تتم كتابة ما تريد .

ووقف أمام مدير الفندق قائلا فى حزم :

ـ خذ هذا السيد وضعه فى مكان لا يزعجه فيه أحد .. أيا كان .

وانصرف كامبونا .. وقادنى الرجل وراءه إلى سلم ضيق وظللت أصعد معه حتى وقفنا أمام باب صغير وانحنى قائلا :

ـ تفضل .. عندما تريد شيئا دق هذا الجرس .

ودخلت إلى حجره متسعة .. تشرف نافذتها على أجمل ما يمكن أن تقع عليه العين من أحراش خضراء مزهرة .. ووجدت بها منضدة صغيرة ومقاعد واطئة .. وفراشا ـ كأنه فراش طفل ـ تصل حافته إلى ركبتى إذا ما حاولت التمدد عليه .

وفى ركن الحجرة صندوق من الصاج .. فى شكل البيانو .. ولم أشك فى أن الحجرة بكل ما فيها .. حجرة أطفال . وهممت بأن أنادى الرجل .. لأطلب منه تغيير الحجرة .. ولكنى كرهت تضييع الوقت فى المناقشة وقلت لنفسى أجلس وأبدأ الكتابة وعندما يجن الليل أتكوم فى الفراش .. وأقضيها ليلة .. كيفما كانت . وخلعت ملابسى .. واتجهت إلى الحوض .. ولم أكد أعبر نصف المسافة إليه حتى صدم رأسى شىء مدلى من السقف ..ثبت بعد أن أخذت اللطمة أنه نجفة .. ودعكت رأسى وتحملت اللطمة .. وأتممت المشوار إلى الحوض ..

وكان على أن أنحنى أمام الحوض حتى كاد وسطى ينكسر . وأخيرا عدت إلى الفراش . وبنفس الغباوة .. لطمتنى النجفة .. فى الإياب

كما لطمتنى فى الذهاب .

ولست أدرى ماذا أصابنى فى ذلك اليوم .. بحيث جعلنى أنسى دائما أن هناك شيئا مدلى من السقف .. رحت أخبطه برأسى فى كل غدوة وروحة ..

وأخيرا .. ومن باب حب الاستطلاع ناديت الرجل مدير الفندق ، وسألته:

ـ أليس لديكم غير هذه الحجرة ؟

وبدت الدهشة على الرجل وتساءل قائلا :

ـ لماذا .. إنها خير حجرة فى الفندق .. إنها حجرة صاحبة الفندق .. السيدة الألمانية التى شيدته .. رحمها اللّٰه .

ومددت يدى أتحسس الكدمات فى جبينى .. وتمتمت متسائلا :

ـ إذن فقد ماتت !

ـ أجل ..

ـ ماتت قتيلة بالطبع !

ـ كيف عرفت ؟

ـ لابد أن تكون النجفة المدلاة من السقف صرعتها .

وضحك الرجل قائلا :

ـ النجفة يا سيدى لم تكن تسبب لها أية مشكلة .

ـ كيف ؟

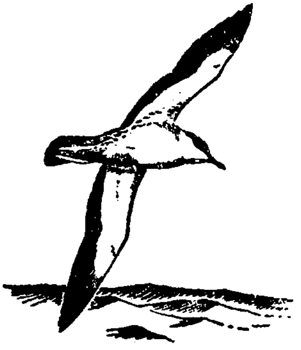
ـ لقد كان طولها ١٢٠ سنتى !

وأدركت سر الحجرة بكل ما فيها .. وقلت للرجل :

ـ لم يكن هناك داع لهذا الإكرام المفرط .. ضعنى فى أية حجرة عادية .. أو انقل النجفة من هنا .

ويبدو أن الرجل خشى أن يلومه كامبونا على أنه قصر فى إكرامى إذا نقلنى من غرفة السيدة صاحبة الفندق .. فجذب النجفة وحملها على كتفه وانصرف .

وداعًا ... كليمنجارو



الثلوج البيضاء تعلو هامة كليمنجارو متحدية شمس الاستواء الصاعدة أشعتها من وراء الأفق .. لتتحسسها فى رفق وتنزلق عليها وكأن أشعتها الملتهبة برد وسلام على قمة الجبل .

وليلى اليونانية تمنحنا ابتسامة رقيقة من مقرها فى استعلامات فندق موشى وقد بدا عليها الإرهاق . وقلت لها ضاحكا :

ـ أتعبناكم ؟

ـ جدا .

ـ كلها يومين ونرحل .

ـ سنفتقدكم .. تعبكم مهما بلغ .. خير من سكون الموت الذى كنا نغرق فيه .

وعبرت باب المطعم لأجلس بين أصدقاء جعلوا من قاعة المطعم الضيقة عالما واسعا بلا حدود .. الياباني بجوار الغينى .. والكينى يمزح مع الهندى .. والمغربى يشد على يد الأوغندى ..

وأقبل على الزميل السوفيتى مقصودوف يهتف ضاحكا :

ـ تصور .. لقد تناولت الشاى بالأمس مع أمريكى !

ـ كيف ؟

ـ دعانى إلى بيته أنا وشو .. ولم يرض شو وذهبت أنا وحدى ..

ـ وماذا فعلت ؟

ـ تحدثنا طويلا ... فى كل شىء .. لأول مرة أزور بيتا أمريكيا وآكل مع أسرة أمريكية .. إن الرجل يعمل مدرسا هنا . ولقد قال لى فى نهاية اللقاء إنه كان يتصور الرجل الروسى شيئا غير ما رآه .. شيئا مخيفا ..

وحدثنا مقصودوف كيف أحس بالرجل وزوجته وأبنائه .. أسرة مسالمة ودود .. لا تفترق فى شىء عن الأسرة الروسية الطيبة .. تعيش فى هدوء وتنشد السلام والمودة ..

وقال الصديق السوفييتى إنه لم يحس أن هناك أبدا ما يوجب العداء أو الكراهية .

وشرد بى الذهن فى جلستى أمام الجبل الأبيض ..

ولم أكن أظن أنا أن هناك ما يوجب الكراهية بين الإنسان الروسى والأمريكى ، أو أى إنسان وآخر فى هذا العالم .. لست أظن أن الكراهية التى استطاعت السياسة الأمريكية أن تبثها فى العالم لأمريكا شىء يستحقه الشعب الأمريكى أو يريده لنفسه أو يشعر به نحو العالم .

إن العزلة التى كانت أمريكا تفرضها على نفسها منذ الحرب للمشاركة فى تقرير مصير العالم وإحساسها بأن الدفاع عن نفسها لا يكون بالانتظار وراء حدود العالم الجديد بل بالخروج من أجل

الاشتراك فى تحديد معالم العالم الآخر .

هذه العزلة التى كانت تلتزمها أمريكا فى أوائل القرن العشرين قد تحولت فى منتصفه إلى شىء مضاد .. قد يكون هو السبب الحقيقى لما يعانيه العالم من المشاكل .

إن خروج أمريكا للدفاع عن نفسها فى العالم الآخر قد جاوز حده بكثير .. حتى تحول إلى محاولات مستمرة لفرض النفس على الغير ..

وأصبح من الأشياء الطبيعية لأمريكا .. التى كانت تفرض على نفسها العزلة فى أوائل القرن العشرين .. أن تخرج فى منتصفه لتسلب الشعوب حريتها دفاعا عن حرية الشعب الأمريكى .

وأصبح منطق السياسة الأمريكية يستسيغ احتلال فيتنام ودكها بالقنابل وقتل شعبها (ومعه ما تيسر من الشعب الأمريكى) من أجل ضمان عدم اختيار الشعب الفيتنامى للشيوعية كنظام للحكم فيه (هذا إذا كان ينوى اختيارها) .

وانتشرت أمريكا .. المعزولة فى أول القرن العشرين .. لتخرج للعالم فى منتصفه .. لا فى محبة ولا مودة ولا صداقة .. ولا لتنشر حضارتها .. وعلومها .. وفنونها .. ولا لتشارك العالم التعس المتخلف المريض المحتاج .. فى إزالة بعض تعاسته .. وفقره ومرضه وحاجته .. بل لتنشر قواعدها وأحلافها العسكرية .. لكى تقى نفسها شر الشيوعية فى بلاد الآخرين .. وتمنح المعونات .. لا لمن يحتاج إليها أولا .. بل لمن يجعل من نفسه ستارا مانعا للشيوعية وتسربها إلى نفسه .. ثم إليها ..

وباتت مشكلة العالم المزمنة هى خروج أمريكا التى كانت معزولة فى أوائل القرن العشرين .. إلى كل أنحاء العالم فى منتصف القرن للدفاع عن نفسها ضد الشيوعية .. واتخاذ العالم الآخر ستارا واقيا لنفسها من هذا الخطر ..

وأصبح على الإنسان أن يتساءل فى عجب .. من البادئ بإثارة المشكلة .. أهو خروج أمريكا .. ونشرها القواعد والأحزمة العسكرية حول الشيوعية .. أم خروج الشيوعية لمهاجمة أمريكا ؟

الشىء الواضح .. جغرافيا .. أن الحزام الأمريكى لحصار الشيوعية .. كان أبدأ .. وخروج الشيوعية للهجوم على أمريكا .. لم يأت إلا كرد فعل لهذا الحصار .. ووجود الشيوعية فى العالم الجديد .. فى كوبا .. لم يحدث إلا بعد أن شبع العالم القديم .. قواعد عسكرية .. وأحلافا أمريكية .. فى كل بقاعه .

بل الشىء العجيب أن دفاع أمريكا عن نفسها ضد الشيوعية .. بات عادة مزمنة وعملا لا إراديا أكثر منه إجراء مبنيا على دراسة وتفكير ..

ولو لم يكن كذلك .. ولو أنه بنى على تفكير سليم .. لتحتم على أمريكا أن تعيد النظر فى سياستها التقليدية نحو الشيوعية .. لسبب بسيط ، هو أن الشيوعية نفسها .. لم تعد الشيوعية التقليدية التى خرجت أمريكا لتقى نفسها شرها فى جميع أنحاء العالم .

والشيوعية .. وغيرها من النظم .. ليست أثوابا حديدية يرتديها البشر كالأحذية الصينية القديمة لتمنع نموهم .. وإنما هى وسائل للنمو .. وللخلاص من العراقيل التى تمنع النمو .. فهى أنظمة إنسانية .. وضعها البشر .. لخدمة البشر .. ولم توضع لتقييد البشر وكتم الأنفاس .. وعندما يحس البشر .. أن الأنظمة لم تعد بشكلها الذى تعودوا عليه صالحة لخدمتهم .. فلابد من تطويرها لكى تلائم احتياجاتهم الجديدة ..

والشيوعية ــ إن لم تكن أمريكا تعلم ــ ككل النظم .. نظام إنسانى احتاجه البشر .. وهو أيضا ــ إن لم تكن تعلم ــ يمر بمرحلة تطور .. لم يعد من المعقول أن يقابل منها بنفس الروح التقليدية العدائية ..

وتطور الشيوعية .. فى معظم البلاد الشيوعية .. لا يحتاج إلى توضيح .. سواء كان داخل البلاد أو فى علاقات البلاد الشيوعية بغيرها من البلاد .

لقد انتهت الشيوعية من مرحلة تضحية جيل من أجل جيل آخر .. وأصبح على الجيل الذى ضحى من أجله .. أن يجنى ثمار التضحية .. ولم يعد معقولا أن تصبح التضحية عادة مزمنة فى الشيوعية .. وأدت مرحلة الستالينية فى تجميع موارد الدولة من أجل الدولة ككل لا من أجل الشعب كأفراد .. دورها كمرحلة لم يكن منها بد من أجل تنمية موارد الدولة وتحقيق الكفاية التى تجعل العدالة التوزيع معنى .. وحتى تجد العدالة ما توزعه .. وإلا كانت عدالة أوهام ..

وفى علاقة الشيوعية بالبلاد الأخرى لم تعد الشيوعية بحاجة إلى التبعية قدر حاجتها إلى الصداقة .. لقد أحس المعسكر الشيوعى .. أن أسلوب التسلل الشيوعى قد بات يثير الكراهية .. وأصبحت الشيوعية فى تطورها الجديد وانتهائها من مرحلة الاستالينية يمكن أن تلتقى فى تفاهم مع بقية النظم الاشتراكية النابعة من الشعوب حسب اختلاف تقاليدها وعاداتها .. وأصبح التعاون القائم على تفهم حاجة الشعوب واحترام إرادتها .. أجدى من التكتل المبنى على السيطرة والتوجيه .

وأمريكا فى خروجها التقليدى للدفاع عن نفسها خارج عالمها الجديد .. تتجاهل كل هذا ..

وتتجاهل أيضا أن الصين الشعبية .. أضخم بلاد العالم .. قد عانت من كل ما عانته البلاد التى وقعت فى براثن الاستعمار .. من تخلف.. وأنها فى وثبتها قد اختارت النظام الذى يخلصها من كل آثار الاستعمار ..ويحقق لها النهضة التى تستحقها والتى تشكل جزءا من حضارة العالم كله .. وأن حصارها بالقواعد الذرية ومحاولة إنكار وجودها .. والأعتراف

بالصين ممثلة فى جزء لا يتجاوز الواحد فى المائة منها .. أمر غير معقول ولا منطقى ..

والإصرار بعد ذلك كله على إيجاد جرح فى الشرق الأوسط .. فى الجسد العربى .. بدفع جسم غريب فى هذه المنطقة .. وتجاهل شعور ملايين العرب من الخليج إلى المحيط ..

والإصرار على تشريد شعب وإحلال خليط من أجناس مختلفة لا يجمعها إلا الدين اليهودى لكى تقيم دولة بالمعونات الأمريكية من أجل التوسع العدوانى .. وتكسب بها كراهية كل العرب لأمريكا أمر عجيب .. غريب .. لا يمكن أن يكون قائما على تفكير منطقى سليم .

كل هذا فعلته أمريكا بالعالم بعد أن خرجت من عزلتها .. فى أوائل القرن العشرين .. لكى تشارك فى تحديد معالم العالم القديم من أجل حماية نفسها .

والنتيجة .. هى اكتساب كراهية العالم كله ..

ولست أظن أن الشعب الأمريكى .. يريد هذا أبدا .. ولا أظنه يهوى كراهية العالم له ..

ولست أدرى .. هل يفهم الشعب الأمريكى .. أم لا يفهم .. أما أنه لا يفهم .. أو أنه لا سلطان له فى إدارة دفة الحكم فى بلده .. وإذا كان لا يحكم بلده .. فكيف يحكم ؟..

وسؤال أخير ..

هل أفادت أمريكا نفسها وأفادت العالم بالخروج من عزلتها ..

أم أنها خرجت عن عزلتها أكثر من اللازم ..

والمطلوب منها .. أن « تلم » .. نفسها بعض الشىء .. وتترك الشعوب فى حالها .. تدافع عن نفسها ضد الشيوعية إذا أرادت .. أو تختارها .. إذا أرادت أيضا .

إن المطلوب من أمريكا .. الغنية القوية المتقدمة ، أن تخرج إلى العالم بخير .. أو تتركه فى خير ..

أن تخرج إلى الشعوب فى صداقة وحب ومودة وتساعد فى إزالة تعاستها إذا استطاعت .

أو تتركها .. تحل مشاكلها بالطريقة التى تحلو لها .

لو أنها فعلت .. لتغيرت أوضاع كثيرة فى هذا العالم .

* * *

وعدت أرقب القمة الثلجية البيضاء تتلألأ فى أشعة شمس الاستواء .. وحاولت أن أوقف الذهن الشارد من الاستطراد فى بحثه عن المشاكل .. وأن أدعه يسترخى فى الأحراش الخضراء .. ويهدأ على القمة الثلجية المتلألئة . ولكنى كنت أحاول عبثا .. هذا الذهن الأحمق .. إما أن تطارده مشاكل المؤتمر فى زحمة المؤتمر .. أو يطارد هو المشاكل عندما يخلو إلى نفسه بعيدا عن المؤتمر .

وعندما وقفنا للرحيل .. وللوداع .. والقمة الثلجية الناصعة تطل علينا . وقفت ليلى تمد يدها للوداع والدموع فى عينيها . وشددنا على يدها فى حرارة . ومن بعيد أبصرنا الفتاة الأخرى الجميلة التى كانت تجلس لترقبنا من بعيد . ووجدنا الدموع فى عينيها ، وسألتنى بهية كرم :

ـ لماذا تبكى الفتاة ؟

وأحسست أن الإنسان يحب الإنسان .. حاولنا أن نوقف دموعا توشك أن تهبط من المقل .. لتنضح حنين الإنسان للإنسان ..

وسرنا فى الطريق والقمة الناصعة تتوارى وراء الأفق .. ودموع الإنسان .. الذى يحب الإنسان .. والذى يؤنس وحشته إنسان .. ويوجعه وداع إنسان .. تبرق كأنها .. الشعاع الهادى .. فى ليل البغضاء والكراهية .. التى يثيرها غباء الإنسان بغير مبرر .. وبلا سبب .

لأ ... فراخ



فى دعوة للغداء فى بكين ..

جسلنا للعشاء حول المائدة ..

وجرى الحديث عن أطعمة الشعوب ، وعن اللحوم المحرمة .

وسأل سائل :

ـ هل ذاق أحدكم لحم الضفدعة ؟

وأبدى البعض امتعاضه ، وأبدى البعض الآخر ممن ذاقها استحسانه لها .

وقال صديقنا الهندى النباتى :

ـ يبدو لى أن الضفادع شيء معقول .. إذا ما قيس بطبق فاخر يقدمونه فى الصين ، يسمى طبق « النمر والفهد » .

وسألته :

ـ أيصنع من لحم النمر والفهد ؟

ـ يا ريت .

ـ مم يصنع إذن ؟

ـ من الكلب والقط .

وسرت موجة اشمئزاز حول المائدة ، وتعالت صيحات « القرف » من جميع الأفواه . إلا فم صديقنا الصينى الذى نظر إلينا فى دهشة متسائلا :

ـ هل ذقتم لحم الكلاب والقطط ؟

وأجبنا جميعا فى صوت واحد .

ـ طبعا لا .

ـ إذن كيف تحكمون عليه ؟ ولماذا تبدون اشمئزازكم منه ! هل ذقتم لحم الثعابين ؟

وصاح أحدنا :

ـ يا ساتر .

واستطرد الصديق الصينى :

ـ إنه من ألذ اللحوم . إن لدينا موسما لأكل الكوبرا . عندما تنمو وتمتلئ .. إننا نأكل أيضا لحم الخيل والحمير .

ونظر إلى وجوهنا المحملقة .. ثم قال ببساطة :

ـ فى كانتون .. بجنوب الصين .. نأكل كل ما قام على أربع .

وصمت لحظة .. ثم قال :

ـ عدا الكراسى .

ثم رفع ذراعيه وهزهما هزة الأجنحة قائلا :

- ونأكل كل ما له جناحان .

ثم أشار بأصابعه إلى الجو ، واستطرد قائلا :

- عدا الطائرات .

ولم يعد عليه بعد ذلك أن يضيف إلى قائمة المأكولات صنفا جديدا .

وفى ذلك الوقت أحسسنا بشىء يلعب فى أقدامنا تحت المنضدة .

وأقبل الجرسون يحمل سرفيس الطعام ، وقد رصت عليه قطع اللحم .

وسحب « مرسى سعد الدين » ساقيه من أسفل المنضدة وهو يحس بشىء يعبث بهما .

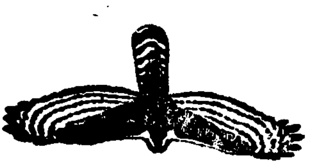
وسأل الجرسون قائلا :

- إيه ده !! قطط ؟

وبمنتهى البساطة أجاب الجرسون ،وهو يمد يده بالسرفيس :

- لا يا بيه .. دا فراخ !!

فى الطريق .. إلى كوبا



فى الطريق إلى كوبا ..

والطريق إلى كوبا .. كما كنت أتصوره فـى الخريطـة عندمـا كنـت ادرس جغرافيا .. يتجه من القـاهرة شـرقا ـــ أو جنوبـا بشـرق ـــ عـبر أفريقيا والأطلنطى .. حتى نصل إلى ما بين الأمريكتين ..

ولم أكن أتصور أن على أن أمد يدى تلـف حـول رأسى لأمسـك أذنـى كجحـا عندمـا سألوه ودنـك منـين يـا جحـا .. وأسـير مـن القاهرة .. شمالا إلى براغ .. ثم شمالا أيضا إلى أيرلندا ثم أعبر المحيط

فى أقصى الشمال حتى أصل إلى قرب ألاسكا ثم أهبط بالطائرة جنوبا كالمتسكعين حتى أصل إلى هافانا بعد طيران ١٧ ساعة متواصلة .

والسبب .. الحصار الأمريكى السخيف .. للغلبانة كوبا .

ما علينا .. ليس هذا وقته !

المهم أنى وصلت إلى براغ ..

وكان علىّ أن أقضى يومين ــ قبل قيام الطائرة إلى هافانا ــ فى البلد الأوربى العريق الذى تبدو أبراج القلاع ممتدة على طول امتداد الجبال فى الأفق .. لترسم فى خط السماء ..آثار حضارة أوربا .. عندما كانت أوربا منبع الحضارة .

وكنت أتصور أنى سأقضى هذين اليومين .. كأى سائح يمر بالبلد الأوروبى العريق .

أصعد هذا الجبل .. وأزور تلك القلعة ..

وأتفرج من وراء زجاج الفترينات .. على بريق الكريستال والمورانو .. الذى تعتبر صناعته .. أحد تخصصات براغ .

ولكن .. الطريقة التى استقبلت بها فى مطار براغ .. نفت من ذهنى كل احتمال فى أن أكون سائحا .. فى المدينة العريقة .. ولم أشك فى أن هم العمل الذى ذهبت من أجله إلى كوبا ... قد بدأ فى براغ ..

لقينى الإخوان التشيكيون أعضاء لجنة التضامن الآسيوى الأفريقى فى تشيكوسلوفاكيا .. وعلى رأسهم الرجل الرشيق الطويل .. (الذى يذكرنى دائما بركس هاريسون فى دور ملك سيام) الصديق سميك سكرتير عام اللجنة .

ومع الشلة تقدم رجل أبيض نحيل يرتدى بدلة سوداء .. عرفنى بنفسه بأنه سفير كوبا فى براغ .

وجلست مع الزملاء فى كافيتيريا المطار الأنيق الجديد .

وبدا سميك يعرض علىّ برنامج اليومين اللذين سأقضيهما فى براغ .

ونصيحتى إلى المستضيفين فى كل بلد ـ بعد ممارستى لبرامج الضيافة القاتلة ـ أن خير طريقة لإكرام الضيوف فى القرن العشرين .. هى أن يتركوهم فى حالهم .. أو على الأقل أن يتركوا لهم فرصة يلتقطون فيها أنفاسهم وسط الانطلاق فى برامج الزيارة .

وأنا أذكر فى زيارة لى لألمانيا الشرقية أن تلقونى منذ أن وطئت قدماى أرض المطار .. وهات يا زيارة .. وهات يا شرح .. يوميا من السابعة صباحا حتى الثانية عشرة مساء .. وكنت أحاول أن أخلو إلى نفسى وأنا أركب العربة فى الطرقات بين زيارة وزيارة .. وأسرح وأسترخى .. ولكن المرافق كان يستخسر فىّ الراحة .. ويصر على شرح معالم الطريق .. حتى أوشكت الزيارة على الانتهاء .. ونظر إلى المرافق سعيدا بما فعل وقال لى باسما :

ـ والآن يا سيدى .. أى شىء أستطيع أن أقدمه إليك ؟

وقلت له فى استعطاف .

ـ أن تصمت قليلا ..

وضحك الرجل وأجاب :

ـ أنا أعرف ماذا فعلت بك ! ولكن ماذا أفعل ؟ .. هذا واجبى ..

ولنعد إلى براغ ..

عرض علىّ البرنامج : زيارة للجنة التضامن فى الصباح .. ولقاء مع لجنة السلام بعد الظهر .. واستقبال فى المساء .. ولقاء فى اتحاد الكتاب التشيكيين فى الصباح التالى .. ومؤتمر صحفى بعد الظهر .. وزيارة لدار الفنانين التشيكيين فى المساء ..وأسف شديد لأن الزيارة قصيرة .. وهم لا يستطيعون أن يفعلوا بى أكثر من ذلك .

الحمد لله ..

ولم يكن أمامى سوى أن أشكر اللجنة التشيكية على كرمها .
وأحمد الله الذى لا يحمد على مكروه سواه ..

ولم يزعجنى الأمر كثيرا .. فقد أصبحت « محترف لقاءات واستقبالات ومؤتمرات من جميع الأنواع » .

ورسمت ابتسامة عريضة على شفتى .

وبدا لى أن الابتسامة لم تعجب سفير كوبا .. فقد وجدت ملامح وجهه لا تنم عن الرضا .

وحولت الابتسامة إلى غيره .. ممن ردها إلىّ بأفضل منه .

ثم عدت إليه لأجده ما زال واجما ..

ولم أعرف ماذا فعلت به .

لقد شددت على يده بحرارة .. وشتمت فى الاستعمار الأمريكى .. وأعجبت بالثورة الكوبية .. والرئيس فيدل .

ماذا أفعل أكثر من هذا ..

ووجدت الرجل يقترب منى .. والوجوم ما زال يشيع فى ملامحه ..

ومال علىّ وهمس فى أذنى « تسمح » .

وجرنى من ذراعى فسرت معه .

واستمر يقول همسا :

ــ لقد فعلنا كل ما نستطيع .. وعليك أن تأخذ بالك من نفسك جيدا ..

ولم أفهم كلمة مما يقول !

ومع كثير من الناس الذين لا أفهمهم .. أهز رأسى وكأنى أفهم ..

ولا تفرق كثيرا .. فقد اتضح لى أن ثلاثة أرباع الكلام الذى يسمعه الإنسان .. لا ضرورة أبدا لفهمه .

وحاولت أن أفعل مع الرجل .. ما أفعله مع غيره ممن لا أفهمهم .. ولا أجد هناك ضرورة لفهمهم .

هززت رأسي ببساطة وكأنى أفهم .

ولكن الرجل عاد يقول :

- لقد نصحنا مهدى بن بركة .. ولكنه لم ينتصح .. والنتيجة كما ترى .

وهنا وجدت أن علىّ أن أفهم .

وإذا كان ثلاثة أرباع ما أسمع لا ضرورة لفهمه فلا جدال فى أن ما يقوله هذا الرجل .. هو من الربع الآخر .. الذى يجب أن أفهمه .

ومددت رأسى إليه دون أن أحاول أن أكتم علامات الدهشة وهتفت به :

- مهدى بن بركة .

- أجل .. لقد كنا نخشى عليه .. وعندما مر بنا بعد عودته من هافانا .. حذرناه .. وقلنا له أن يحتاط جيدا .. ويأخذ باله من نفسه .. لأن الاستعمار وعملاءه .. لن يتركوه .. ومع ذلك ذهب إلى باريس .. والنتيجة .. كما تعلم .

وبرغمى .. وجدت نفسى أبتلع ريقى ..

أنا لم أتعود .. أن أعطى لنفسى - فى قرارة نفسى - أية قيمة .. ولم يخطر ببالى قط .. أنى يمكن أن أكون ذا أهمية خاصة للاستعمار .. أو لغير الاستعمار .

ولكن نظرات الرجل القلقة المنذرة .. ووجهه الواجم الحزين .. جعلا موازين التقدير العادية تختل فى نفسى .

ماذا أفعل إذا كان الاستعمار .. قد نوى أن يمنحنى هذا القدر من الاهتمام .. كما يتوهم هذا الرجل الحزين الجالس أمامى ..

وعاد الرجل يؤكد فى لهجته المنذرة :

- لقد فعلنا كل ما نستطيع ..

ولم أعرف بالطبع .. هذا الذى استطاعوا أن يفعلوه .. ولم أجد فى

نفسى اهتماما بأن أعرف .. المهم .. هو ماذا يريدنى أن أفعل ..

وهززت رأسى مستفسرا :

- وما هو المطلوب ؟

- أن تأخذ بالك من نفسك ..

ولم أعرف بالضبط كيف يمكن أن آخذ بالى من نفسى .

وعدت أتساءل :

- إزاى ..

- إنك ستسافر على الطائرة الكوبية .. وطقم الطائرة مكلف بحراستك ..

وعدت أسأل الرجل :

- طيب وعايز إيه أكثر من كده ؟

- عندما تنزل فى أى مطار .. لا تذهب هنا أو هناك وابق مع الطقم .

- بسيطة ..

- وعندما تصل إلى هافانا .. ستوضع عليك الحراسة الكافية ونكون مسئولين عنك .

وأحسست بشىء من الزهو ..

لأول مرة فى حياتى .. سأحرس ..

ولم أحاول أن أفهم الرجل أنى محدث حراسة .. وكان على أن أسايره فى مسألة حياتى .. وقيمتها ووجوب حراستها .

وقلت له وأنا أهز رأسى :

- بس المهم تكون الحراسة جيدة .

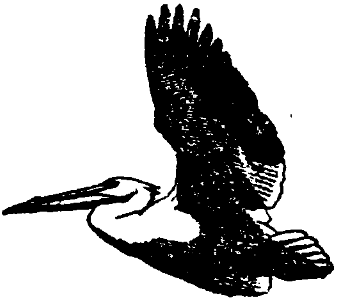
- لا تخش شيئا .. اطمئن .

وفى كوبا اطمأننت أكثر من اللازم .

ثلاثة حراس أشداء .. لا يتركوننى لحظة واحدة .

فى العربة وفى الطريق .. وعلى باب الغرفة طوال الليل .. بالسلاح ..
وإذا وضع فى الحسبان ..
أن أعضاء المؤتمر كانت ترافقهم كوبيات حسناوات .. لخدمتهم وإرشادهم ..
أدركتم ما فعل بى الاستعمار فى هذا المؤتمر ..
كلما نظرت إلى مرافقات الأعضاء (ولا سيما مرافقة وفد الجزيرة العربية) .. وإلى حراسى .. ازداد حماسى ضد الاستعمار .
وهتفت من قلبى .
تسقط الأمبريالية والاستعمار .. والاستعمار الجديد .. وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية .

أحلام الغزو .. فى عصر الحرية !



مياه البحر فى زرقة الفيروز .. وأمواجه الهادئة تتواتر فوق الشاطئ لتذوب على أقدام نخيل جوز الهند السامقة التى تترنح أوراقها العريضة فى نسمة الصباح .. والسهول الخضراء تنبسط لتلتقى مع المياه الزرقاء .. فى مودة وحنان .. وأمن وسلام .

وبدت أقدام الرجل الواقف بجوارى مثبتة فى الحذاء الضخم ذى المقدمة الكروية والعنق الطويل وسيقانه ترتفع بالبنطلون الكاكى وكأنها جذع شجرة ضخمة توطدت جذورها عميقة فى باطن الأرض .

وفوق جذع الشجرة الآدمية .. يستقر صدر عريض ووجه أبيض

ملتح وعينان تبرقان من وراء زجاج النظارة ورأس غطاه الكاكى ..

وقلت للرجل وأنا أرنو إلى المنظر الرائع :

ـ شيء ما هنا .. يملأ القلب إحساسا بالسكينة .

ونفخ الرجل من أنفه وقال فى شيء من السخرية :

ـ يبدو أن بعض الناس .. تضايقهم هذه السكينة .. لقد حاولوا ذات مرة أن يفسدوها .. واندفعوا إلينا مع الموج فى محاولة للغزو فركلناهم فى البحر .

وصمت كاسترو برهة وهو يرنو إلى السهول الخضراء والبحر الأزرق ولمحت عظام صدغه تتلاعب وهو يقول فى إصرار :

ـ لقد خرج إليهم الشعب .. وأسرهم كقطعان الغنم .. لقد قضى الشعب على محاولة الغزو فى بضع ساعات .. وسيقضى على كل محاولة .. تدور بخلدهم .

ذكرت كل هذا وأنا أقرأ حديث الجبهة السورية القادم من الأردن وهو يقول :

ـ أقسم أنى أفعل أى شيء ولا أرى سوريا تتعرض لعملية غزو من نوع ما تعرضت له « كوبا » بواسطة المخابرات الأمريكية المركزية .

ولم يكن ذلك التشبيه من عندى وإنما مدبرو المؤامرة أنفسهم هم الذين كانوا يتمثلون فى تخطيطهم بما حدث فى كوبا بعد تطويره والاستفادة من دروسه . ولقد سمعت من يقول فى صراحة : إن « الجماعة » مصممون وقد فشلوا مرة فى كوبا ،ولكنهم سوف ينجحون هنا فى سوريا ..

****

ذكرت كاسترو وهو يقف ليشرح فى استبسال الشعب الكوبى فى تحطيم محاولة الغزو الاستعمارى الرجعى ..

ولم أدر سر تصميم « الجماعة » وقد فشلوا فى كوبا .. على أنهم سوف ينجحون فى سوريا .

وحاولت أن أعقد مقارنة بين ما كان فى كوبا .. وما يحاولون تدبيره فى سوريا ..

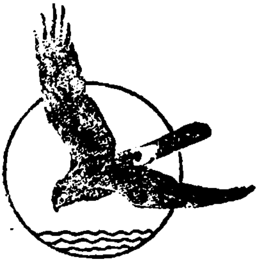
طرفا المعركة فى الحالة الأولى مكونان من المخابرات الأمريكية كمخطط وممول .. ومن مجموعة الساسة القدامى والرأسماليين والعسكريين .. والمطرودين والهاربين من حكام الشعب الكوبى ومستغليه ومحتكرى أرضه وجهده .. ممن قضت عليهم ثورته ..

والطرف الثانى .. الشعب الكوبى ذاته ..

وكانت نتيجة المعركة .. أن « أعطى » الشعب الكوبى الغزاة درسا لن تنساه المخابرات الأمريكية أبدا ..

ولعلها تحاول الاستفادة بالدرس الكوبى .. حتى لا تحاول تكراره فى سوريا . إن اغتيال الشعوب .. ليس أمرا سهلا .. كاغتيال الأفراد الذى يمكن أن تمارسه المخابرات الأمريكية فى يسر وسهولة .

التفاهم على الطريقة الأذربيجانية



هل يستطيع الإنسان أن يتفاهم مع إنسان آخر دون أن يفهم لغته ؟

لو سئلت هذا السؤال قبل تجربتى فى الطائرة التى نقلتنى من باكو إلى موسكو لقلت « قطعا لا » .

وأعنى بالتفاهم .. أن تقضى معه رحلة كاملة .. تعرف عنه كل شىء .. ويعرف عنك كل شىء .. وعندما تختبر معلوماتك عنه .. ويختبر معلوماته عنك .. يتضح أنها كلها صحيحة .. أو على الأقل معظمها صحيح ..

جلست فى الطائرة .. وجلست بجوارى مترجمتى الرقيقة .. آدا.. لم تجلس بجوارى بالضبط فقد كان بيننا مقعد تشغله سيدة أخرى .

ونظرت إلىّ آدا فى شبه اعتذار .. ثم أرخت أهدابها ذات الرموش الطويلة .. وأغفت .

نامت آدا .. وتركتنى بغير لسان .. والإنسان لا يعرف قدر المترجم .. إلا عندما يحاط بمجموعة من الناس لا يعرف أحدهم كلمة مما يعرف .. ولا يعرف هو كلمة مما يعرفون .. ويصبح عليه أن يتفاهم ـــ إذا تحتم عليه التفاهم ـــ كالخرس .. بالإصابع والابتسامات البلهاء .. ولم أكن فى حاجة إلى التفاهم مع أحد فلم يكن هناك ما يدعو لأن أخرج عن وقارى .. لأبدأ بالإشارات والإبتسامات .. حقيقة .. كانت السيدة التى بجوارى جميلة .. وكانت تغرى بأن يتشابك المرء معها بالحديث ليسلى بها رحلته الطويلة .. ولكن ما حيلتى والعين بصيرة واللسان قصير .. وخبرتى فى الغزل بلغة الخرس معدومة .. ولا أجد من الذوق .. أن أوقظ المترجمة النائمة .. أو المتناومة لأوسطها فى غزل جارتى .. وهى أولى بالغزل .. وقلت لنفسى .. رحم اللّه أمرا عرف قدر نفسه .. وأسبلت عينى .. وحاولت أن أنام .

ومضت بضع دقائق وأنا مسبل العينين .. قبل أن أكتشف أنه من الغباء الشديد أن يغمض الإنسان عينيه .. وهو غير نائم .. ولا سيما إذا كانت بجواره .. امرأة جميلة .

وفتحت عينى .. ونظرت إلى جارتى .. متبعا حكمة .. ما لا يؤخذ كله .. لا يترك كله .. وإذا كنت لا أستطيع أن أحدثها .. فعلى الأقل .. أنظر إليها ..

وابتسمت السيدة ابتسامة لطيفة .. وطبعا .. رددت الابتسامة .. بأحسن منها .. وما دامت المسألة لا تتعدى الابتسام .. إلى الكلام ..

فالعاقبة مأمونة .. فالابتسامة بالعربية .. تتساوى مع الابتسامة بالأذربيجانية .

ابتسامة .. بابتسامة .. وكان اللّه يحب المبتسمين .

ولكنى وجدت المسألة فجـأة قد تطـورت .. ووجـدت السـيدة .. ببساطة تتبع الابتسامة بالحديث .

ولم أعرف كيف أتصرف .. وأنا أجد الكلمات تنساب من شـفتيها الرقيقتين .. لتنسكب على الأرض دون أن أفيد منها بكلمـة واحـدة .. ودون أن أميز لها قيمة أو أعرف لها قدرا .

واستمرت تتحدث وكأنى أفهم .. وكان المفروض أن أزغدها حتـى تتوقف وأفهمها بطريقة ما أن توفر كلماتها المراقة بغير فائدة ..

ولكنى تركتها تتحدث حتـى انتهـى الحديـث .. والابتسـامة المعلقـة على شـفتى تغريهـا بـالمزيد مـن الحديـث .. حتـى توقفـت مـن نفسـها وانتظرت الرد ..

وهززت رأسى .. والابتسامة ما زالت على شفتى وبسـطت كفـى فى شبه يأس .

ولا شك أنها أدركت أنى لم أفهم شـيئا ممـا قـالت .. فقـد تحولـت ابتسامتها إلى ضحكة .. واندفعت أنا الاخر أتحدث ..

وما دمت لا أفهمها .. وتتحدث .. فلأ تحدث أنا الآخـر .. وعنهـا ما فهمت ..

وظللنا نتحدث .. هى بلغتها .. وأنا بلغتى .. وكلانـا بلغـة الخـرس المشتركة .

وصمتنا لحظة نسترد أنفاسنا .. ونتبادل .، أسهل وسائل التفـاهم .. الابتسام .

ولمحـت ابتسـامة ثالثة على شـفتى مـترجمتى وهـى تسـترخى فـى مقعدها مسبلة العينين .. أدركت أن الخبيثة غير نائمة .. ولمحتهـا تفتـح عينيها نصف فتحة .. وتقول فى خبث :

ـ يبدو أن التفاهم بينكما على أشده .. إن اللغة لم تعد عقبة أمامك ..

وأجبتها ضاحكا :

ـ أخشى أن يكون ما بيننا سوء تفاهم .. وليس تفاهما .. فلست أدرى هل استطاع كل منا أن يفهم صاحبه ما يريد ..

وأجابت مترجمتي الرقيقة :

ـ لنجر اختبارا .. ماذا عرفت عنها ؟

ـ عرفت أنها مهندسة بترول وأنها زوجة ضابط وأنها حامل فى أول طفل لها .. وأنها ذاهبة إلى موسكو لتمكث أربعة أسابيع .

ولم تملك المترجمة نفسها من الضحك قائلة .. وكل هذا عرفته .. دون أن تعرف لغتها .. دعنى أسألها حتى نعرف مدى صحة معلوماتك .

وكانت السيدة الجالسة بيننا تنتظر نتيجة حديثنا وهى تعرف أنها مدارة .. وتحدثت إليها المترجمة سائلة عن صحة معلوماتى عنها .. ووجدت السيدة الجميلة تغرق فى الضحك ثم ترد عليها ..

ونظرت إلى المترجمة باسمة فى دهشة وهى تقول :

ـ معلوماتك كلها صحيحة فيما عدا شيئين . إنها ليست مهندسة بترول ولكنها مهندسة معمارية تعمل فى المدينة العائمة للبترول .. وقد عملت فى إنشاء مبانيها .والثانى أنها ستمكث فى موسكو أربعة أيام وليس أربعة أسابيع .

ووجدت السيدة تتحدث ثانية إلى المترجمة والمترجمة تهز رأسها موافقة ثم التفتت إلى قائلة فى نفس الدهشة :

ـ تقول إنها تعرف أنك كاتب مصرى وأنك سكرتير التضامن الآسيوى الإفريقى وأنك كنت تشترك فى مؤتمر باكو وأنك ذاهب إلى غينيا وأنك متزوج ولك ابنة وولد .

وضحكت المترجمة وأردفت :

ـ إن معلوماتها صحيحة مائة فى المائة .

ولم أعرف كيف عرفت السيدة ما عرفت ولكنى أعرف كيف عرفت معلوماتى أنا عنها ..

عرفت طبعا أنها حامل .. بغير حاجة إلى ذكاء ولا لغة ، أما أن هذا أول أولادها فقد أشرت إليها بيدى فوق الأرض فهزت رأسها بالنفى فأدركت أنه ليس لديها أولاد ثم أشرت إلى الدبلة فى أصبعها . فوضعت يدها مبسوطة على كتفها فأدركت أن زوجها ضابط . وأشارت إلى نفسها ثم إلى صورة بها مدينة البترول العائمة فى باكو .. فظننت أنها مهندسة بترول ولكن اتضح أنها مهندسة معمارية فى مدينة البترول . وسألتها بالإشارة والكلام كم ستمكث فى موسكو ورفعت أصابعها الأربع وحاولت أن أعرف عبثا .. أربع ماذا ؟ . ساعات .. أيام .. أسابيع .. شهور .. سنوات ..

واستبعدت الساعات والسنوات والشهور .. وتوقعت أن تقضى فى موسكو إجازة أطول من أربعة أيام فلم يبق أمامنا سوى الأسابيع .. ولكن اتضح أنها على عجل .

ونظرت إلى السيدة وقالت شيئا :

وقلت لآدا :

ـ ترجمى .

وأغمضت الخبيثة عينيها . قائلة وهى تضحك :

ـ لست أظنكما فى حاجة إلى .

وانطلقت السيدة الأخرى تتحدث وكأنى أفهمها . وانطلقت أتحدث وكأنها تفهمنى .

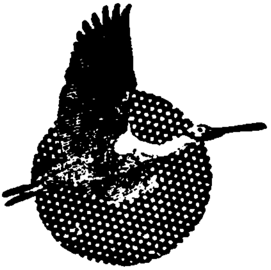
والمترجمة الخبيثة لا تستطيع أن تكتم ضحكتها من آونة لأخرى .

وعندما هبطت الطائرة فى موسكو .. قالت لى آدا ضاحكة :

ـ أنا الوحيدة التى استمتعت بحديثكما .. لأنى فهمته كله .

فى مدينة البترول

ذات الزيتون فى الطرقات والكروم على الشرفات



أمضيت أياما ثلاثة فى مدينة باكو عاصمة أذربيجان إحدى جمهوريات الاتحاد السوفييتى الآسيوية .

وأنا أعرف باكو منذ سنى الدراسة الثانوية عن طريق علم الجغرافيا عندما كنا نحفظها صم بالكلام المنغم . وقد زرت أخيرا كثيرا من البلاد التى لم تكن تعنى فى ذهنى أكثر من محفوظات جغرافية كأومسك تومسك ـ أركوتسك (سكة حديد سيبيريا) وباكو ـ باطوم ـ (مراكز البترول فى آسيا) .. شعرت بنشوة وأنا أخوض فى ثلوج سيبيريا ذات ليلة متجها إلى تومسك والبرودة ٤٠ تحت الصفر .. وشعرت بنفس النشوة وأنا أرقب البحر المعتم من نافذة فى باكو تهب منها ريح رطبة محملة بقطرات المطر .

وجلست أرقب المياه الداكنة من نافذتى .وقد لاحت فى الميناء باخرة

تصفر الريح فى علمها الأحمر .. وبدت على طول الأفق روافع آبار البترول تنتشر كأنها جذوع نخل بلا جريد ولا سعف . وفى نافذة البيت المقابل رأيت سيدة تنشر السجاجيد على حافة الشرفة وتضرب زجاج النافذة بخرقة تنفيض وقد كست وجهها علامات الجد والاهتمام . وتذكرت زوجتى فى مصر .. وهمست لنفسى .. « العالم صغير والإنسان لا يتغير » .

ونقلت بصرى من المنظر التقليدى المألوف فى الشرفة المقابلة عبر الشارع الطويل .. وشعرت بارتياح لمنظر الشارع وملأنى إحساس بالدنيا المريحة القديمة .. التى يتحرك الإنسان فيها بسهولة وارتياح .. وبغير اندفاع ولا هلع ولا صرخات تدفعه وأبواق تفزعه .

رأيت أشجار الزيتون مصطفه على جانب الطرقات .. توحى أغصانها بالسلام .. يتلألأ الندى على أوراقها الصغيرة وتتناثر حبات الزيتون بين فروعها . والكروم تنبت فى أرض الطريق لتعلو متكئة على جدران الدور متسلقة أسوار الشرفات ممتدة على أسقفها بحيث تختلط الأوراق الخضر بالنوافذ والأبواب وترسم الكرمة الخضراء لوحة جميلة على واجهة كل بيت ويبدو الطريق كله كأنه حلم جميل .

والناس مسلمون .. يحيونك فى مودة .. ويؤكدون لك أنهم يحبونك .. لكذا وكذا .. ولكنهم يحبونك أكثر لأنك مسلم مثلهم .

وروى لى صديق عزيز هناك أن أمه سألته فى إلحاح أن يحضر لها تسجيلا للقرآن . قائلة فى شبه لوم :

ـ لم يعد أحد منكم يحفظ القرآن .. وعندما أموت لن أجد من يقرأ على قبرى . أرجوك أحضر لى التسجيل حتى أشعر أنى أستطيع أن أموت مستريحة .

وقال لى الصديق : نحن لا نفهم القرآن .. ولكننا نحس براحة كبرى فى الاستماع إليه .. يملأ نفوسنا شعور بالأمان والسلام .

وفى استقبال على ربوة تطل على البحر وقفنا نرقب رقص الفتيات

وهن يتحركن فى ملابسهن البيضاء كالفراشات .. وفجأة استدارت الفتيات إلى المدعوين وجرت كل واحدة نحو أقرب الواقفين إليها .. وسحبته فى رقة للرقص ..وكان عليه إما أن يرقص .. أو يفر هاربا .. وفضل الصديق خالد محيى الدين .. الرقص على الهروب .

وروى لى صديقى من باكو .. آخر نكتة .. فى باكو .. أن مشكلة الكادرات هى المشكلة التى تشغل بالهم هناك. والصراع بين الشباب الصاعد .. والخبرة المتقاعدة على أشده .. وقف نشال عجوز يناقش نشالا ناشئا ليؤكد له أنه ما زال أمامه وقت طويل حتى يستطيع أن يمارس عمله وأن يحتل مركزه وأكد له الناشئ أنه « راحت عليه » وأن أسلوبه القديم لم يعد ينفع .

وطالت المناقشة . وتراهن الاثنان على أن يخوضا تجربة ليؤكد كل منهما مهارته .

واتفقا على أن يحاول كل منهما أن يسرق بيض النسر من عشه وهو راقد عليه .

وذهب النشال الناشيء يسترق الخطى إلى وكر النسر فى أعلى الجبل .

واستمر يتسلق الجبل صخرة صخرة حتى وصل إلى الوكر . وبدأ يمد يده تحت النسر . وأحس به النسر فنقره فى وحشيه نقرة أدمت يده .

وعاد إلى النشال العجوز وهو يضمد جرحه .. ونظر إليه الرجل الخبير وقال له فى سخرية :

– عضمك طرى ..

ثم خلع نعله وقميصه وسرواله .. ووضع ملابسه جانبا .. وبدأ يزحف فى مهارة نحو الوكر . حتى وصل إليه .. وبمنتهى خفة اليد مد أصابعه وسحب البيض من تحت النسر وعاد يهبط الجبل ..

ووصل .. إلى حيث ترك النشال المبتدئ ..

فلم يجده ..

ولم يجد ملابسه !!

يا جابر .. فى « المآتا » !



مرة أخرى فى الطائرة ذات الطابقين .. الأولى كانت فى الطريق إلى هافانا .. سبع عشرة ساعة فوق السحب . فعلنا فيها كل شيء .. نمنا وأكلنا وشربنا وقرأنا وغازلنا المضيفات . لنجد أنفسنا بعد كل هذا معلقين فى الجو . لا أمل لنا فى شيء سوى أن نسطح أجسادنا على فراش .. مجرد تسطيح .. نترك لأجسادنا فيها نعمة الاسترخاء ومتعة التمرغ .. ولكن هذه المرة لم تزد الرحلة على ست ساعات .. بدأت فى منتصف الليل وانتهت فى السادسة صباحا حسب ساعاتنا .. وفى التاسعة بعد أن دفعنا العقرب ثلاث ساعات

إلى الأمام لنلحق بوقت المدينة التى سنهبط فيها .

لم تكن الرحلة طويلة بالقياس إلى الرحلات التى تعودت أن أعبر به القارات والمحيطات . ولم تكن تحتاج أكثر من مجرد إغفاءة بدأتها حتى قبل أن تترك الطائرة أرض موسكو وأنهتها عندما بدأت تهبط إلى المالآتا عاصمة قازاكستان .

وأنا من محترفى النوم والقراءة فى الطائرة . لم أضق قط برحلة منها مهما طالت . باستثناء رحلة السبع عشرة ساعة إلى هافانا .

وعندما صعدنا إلى الطائرة الضخمة ذات الطابقين ، فى منتصف الليل لم أكن آمل فى أكثر من نومة مريحة .. وسرت أنا والصديق ضياء الدين داود يقودنا مرافقنا الصغير (باشا) .

وباشا صديق قديم من اذربيجان كان يجيد العربية السورية .. واستطاع أن يتخلص بعد طول رفقته لى .. من (شو) و (هيك) .. وقلبت عربيته السورية إلى مصرية عامية .. ومن علاماته المميزة نتوء فى جبينه .. قال لى إن سببه هو أول (كأس) من الفودكا شربها وهو فى الخامسة من عمره .. وكانت نتيجته أن سكر وتطوح فاصطدم جبينه فى طرف المائدة .. وترك فى وجهه بصمة أول كأس تناولها باشا .

المهم .. قادنا باشا عبر الممر الطويل إلى أحد دواوين الطائرة المغلقة كدواوين القطار .. بأريكتين متقابلتين بينهما منضدة تتسع كل منهما لثلاثة ركاب . واحتللنا إحدى الأرائك .ولم أكد أستقر فى مقعدى حتى أسندت رأسى على النافذة واستغرقت فى النوم .

ولم أشعر بقيام الطائرة .. ولا استمعت إلى التنبيه المعتاد .. بأن أشد الحزام على وسطى وأمتنع عن التدخين .لأنى كنت قد شددت الحزام منذ أن جلست على مقعدى .. ولأنى بطبعى لا أمارس التدخين لا فى الطائرة ولا فى غير الطائرة .

ولم أتناول الملبسة إياها التى تمر بها المضيفة على الركاب كلما

قامت الطائرة أو هبطت . لأنى كنت فى سابع نومة .

وأشهد أنى نمت نومة طويلة عميقة . لم يضايقنى خلالها إلا أقدام المسافر الراكب أمامى .

عندما بدأت الركوب كان رجلا طبيعيا عادى الحجم . ولكنى لا أعرف كيف استطالت ساقاه وتضخمت قدماه حتى بت لا أجد مكانا لقدمى خلال نومتى الطويلة .

كنت أحس بأن ركبتى قد أوجعهما طول الثنى وأتمنى لو استطعت أن أفردهما ولكنى لا أكاد أمد ساقى حتى أجد قدمى قد ارتطمتا بحذاءين أسفل المنضدة .

وبدا لى أن الرجل قد أصبح بعشر أقدام. وأنه لم يعد هناك مكان خال أسفل المنضدة .

وخلال النوم مرت المضيفة بصوانى طعام لم أعرف ما إذا كانت عشاء أم إفطارا . ففى الساعة الرابعة بعد منتصف الليل لا تستطيع أن تسمى وجبتك ولا سيما إذا كانت من اللحم البارد والشاى .

وأشرقت الشمس بسرعة . فقد كنا نطير تجاه الشرق . والطائرة والشمس تسرع كلتاهما تجاه الأخرى . وعندما هبطنا إلى المطار فى الساعة السادسة كانت الشمس فى الضحى .. والساعة قد بلغت التاسعة صباحا .

واستقبلتنا الوجوه الباسمة والأيادى الرقيقة تمتد بالورود والروابى الخضر تحيط بالمطار ومن بعيد تبدو الجبال المرتفعة تعلو هاماتها الثلوج الناصعة البياض .

وحملتنا العربة إلى مدينة التفاح . والماآتا معناها (أبو التفاح) وأشجار التفاح تتناثر هناك كما تتناثر هنا أشجار الكافور والجازورينا .. وثمار التفاح تبلغ أحيانا حجم البطيخة الصغيرة أو حجم الرمانة الكبيرة .. ووجوه الفتيات هناك كالتفاح .. مستديرة وجميلة .

وقازاكستان تمتد من بحر قزوين حتى حدود الصين ومساحتها أربع مرات مساحة فرنسا وإحدى عشرة مرة مساحة إنجلترا وعدد سكانها يبلغ حوالى ١٢ مليونا . وأراضيها خصبة صالحة للرعى .

وهى أكبر البلاد المنتجة للقمح ، وثروتها الحيوانية تبلغ ٤٠ مليون رأس غنم وعدد كبير من الخيول . وبها مناجم غنية بالفحم والحديد .

ووسط الجبال الخضر وقفنا نرقب المياه المتدفقة ونستمع إلى خريرها بين الصخور وقال لى الصديق هادى شريف أوف وهو يشير إلى ممر بين الجبال ضاحكا :

ـ هنا آتى لاستعيد الذكريات .. كنا نصعد معا إلى أعلى الجبل .

والصديق شريف يعمل فى قازاكستان رئيسا للجمهورية .. وهو كاتب من كتابها . وفنان رقيق ضحوك .

وعلى إحدى الموائد جلسنا نتناول الطعام .. ومد لنا المضيف يده بزورق به شىء أبيض وملأ كوبى وكوب الصديق ضياء الدين داود .

وقال باعتزاز :

ـ هذا مشروبنا الوطنى .. لبن الخيل .

وشربته برضا .. ووجدت طعمه كاللبن الرايب .. ووجدت ضياء يعيد الكوب بسرعة إلى المنضدة ويهمس لى :

ـ أنا معدتى انقلبت .. مش حقدر أكمل ..

وشربت أنا عنه . فمعدتى على حساسيتها .. قادرة على ابتلاع كل ما يقدمه لها المضيفون فى الرحلات ..

وأذكر أنى الوحيد فى اليمن من الكتاب الذى أكل ما قدم إلينا . رغم أنه كان مجهول المادة والصنعة .

وشربت كوبين من لبن الخيل باستطعام .

وفى نهاية العشاء (لأنه لا يمكن إلا أن يكون عشاء) وجدت

المضيف يقول ببساطة :

ـ والآن لابد أن ننهض بسرعة لأننا مدعوون إلى منزل سكرتير الحزب .

وذهبت إلى هناك لأجد مائدة أخرى .

ولم أعرف .. هل حقيقة سنجلس لنأكل .. أم أن الجلسة مجرد جلسة سمر حول مائدة طعام .

ولكن الموضوع كان جادا .. وبدا أن الجالسين حول المائدة سيأكلون حقيقة .

وقلت لمعدتى (شدى حيلك) .

وكان أول طبق قدم (لحمة رأس) ..

واحد من الأربعين مليونا التى تكون ثروة البلد الحيوانية قد ذبح وقدم رأسه إكراما لى ولحمة الرأس ليست غريبة عنى ..

أعرف جيدا اللسان والجوهرة .. وأعرف القفص المستدير والصينية النحاسية توضع فوقه وصاحبها يصيح مترنما « يا جابر » .

أعرف كل هذا ولكنى لم أمارسه كبائع .

وكان على فى تلك الليلة أن أقوم بدور « يا جابر » نفسه .

قال لى سكرتير الحزب ببشاشة :

ـ إكرام الضيف يحتم علينا أن نقدم له الرأس .. وهو يوزعه على الضيوف .

ووجدتها شغلانة مسلية .. على الأقل توفر على معدتى عملية الأكل .

وقال لى الصديق طورسون زاده .

ـ إن عليك أن تعطى لكل منا ما يحتاج إليه .

ونظرت إلى جارتى .. السيدة الوحيدة التى تشاركنا المائدة . وقلت لها :

ـ قطعا .. لاتحتاجين إلى اللسان .

وقطعت اللسان وأعطيته لرجل بجوارى لم ينطق بحرف منذ أن جلسنا ..

وبدأت توزيع الرأس على الحاضرين ولم يبق منه سوى المخ .. وبدت المسألة محرجة ..

من منهم يعترف أنه يحتاج إلى مخ ؟

ونظرت إلى السيدة استشيرها ، فقالت لى :

ـ أعتقد أن كل الحاضرين .. يحتاج إلى قطعة .. إنها لا شك ستكون ذات فائدة لديه .

وفى مسرح الأوبرا افتتحت ندوة لينين وحركة التحرر . تحدث فيها مناضلون من شتى أنحاء العالم من آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية عن الثورة الاشتراكية التى قادها لينين فى ١٩١٧ .

وهمس الصديق طورسون زاده وهو ينصت مشدوها إلى المغنية الصغيرة الجميلة :

ـ لست أدرى ماذا يجذبنى إليها . أهو الصوت الذى ينطلق من شفتيها .. أم هو شفتاها ذاتهما ..

وكان الرجل على حق .. فقد كان شىء ما فى شفتيها يشغل الناس عن صوتها ..

ولقينا السكرتير الأول للحزب .. أحد المهندسين الممتازين فى قازاكستان ليؤكد لنا أنه لم تعد هناك قطعة أرض فى هذه الرقعة الهائلة لم تستثمر وأن الشعب الذى كان المهندسون يعدون فيه على الأصابع . بات يمتلئ بآلاف المهندسين والعلماء وأن الزراعة قد باتت كلها زراعة آلية . وأبدى استعداد حكومة قازاكستان لتدريب أى عدد من العرب على المهن الزراعية وعلى الصناعات المختلفة .. وفى اتحاد الأدباء أكد الأدباء القازاكستانيون صلتهم الوثيقة بالأدب العربى .

أشياء كثيرة جميلة فى هذه البلدة الخضراء ذات الجبال تعلو هاماتها الثلوج ..

بلد التفاح والوجوه الشبيهة بالتفاح .. ولكنها بعيدة .. ٦ ساعات إلى موسكو .. و ٦ ساعات أخرى إلى بلدة التفاح .

واصطدام الأرجل الطويلة تحت المائدة بأقدام كثيرة تجعل النومة غير مرحة .. لو أنها فقط كانت أقصر .. أو أجمل .. لجعلت الرحلة إلى بلدة التفاح .. كذلك كالتفاح .

خطبة .. فى عيد البطيخ



•• هل ركبت ذات مرة عربة طويلة سوداء .. وأمامها موتوسيكلات تفسح لك الطريق .. هل تعرف ما أعنى ؟ .. هذه العربات التى تنطلق بصفارات تسبقها وتعلن عن مقدمها .. وبوليس يزيح العربات يمنة ويسرة .. ويفسح لها الطريق .. أنا ركبتها .. ليس هنا بالطبع .. وإنما فى مدينة البطيخ .. ولا أقصد كفر البطيخ ..

وإنما أعنى طشقند .. المدينة الجميلة .. ذات الثلثمائة صنف من البطيخ الأبيض ..

كنت أتحرك فيها بموكب ..

عربة تشايكا طويلة سوداء .. وموتوسيكلات .. وأعلام وصفافير ..

وناس يزاحون على الأرصفة ... ليخلو الطريق للعربة المنطلقة .

موكب .. كان يمكن أن يكون .. شيئا فاخرا لولا أن هذه الموتوسيكلات التى كانت تنطلق أمامى لتفسح الطريق كانت موتوسيكلات بسيدكار .

أضاعت بهجة الموكب هذه الموتوسيكلات التى تجر العربات الفارغة بجوارها .. لتضيع من نفسى كل وهم بأنى أتحرك فى موكب رجل مهم .. وتملؤنى إحساسا بأنى أسير فى زحمة العتبة الخضراء أو شارع محمد على بموتوسيكلات البريد والملاحظين والمعلمين تزحم الطريق أمامى .

وكان ثانى فرض من فروض الأهمية التى كان على أن أخضع لها .. غير الموكب الذى أتحرك فيه .. كلما غادرت حجرتى .. هو أنى نزلت فى قصر ضيافة .. ولم أنزل فى فندق ..

واستطاع الصديق مرسى سعد الدين الذى كان ينزل معى .. أن يفهمهم بذكاء .. أنه ليس من الأهمية بحيث ينزل فى قصر الضيافة .. وأنه .. كفاية عليه جدا .. حجرة فى فندق ..

ونجا مرسى من قصر أو على الأصح أسر الضيافة ..

وانطلق فى الفندق الكبير الذى يضم أعضاء المؤتمر .. والمرافقين .. والمرافقات ..

ولم يكن من المعقول أن أبقى وحدى .. وكان على أن أجر شريكا لى فى أسر الضيافة .. وقلت للصديق عظيموف نائب رئيس الوزراء إن الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى واحد من كبار الكتاب العرب وأنه من المستحسن أن ينزل فى قصر الضيافة .

وببساطة سحب عبد الرحمن الشرقاوى من الفندق الكبير .. ليوضع بجوارى فى أسر الضيافة .

وخرجنا من مقر الضيافة لنذهب إلى مقر المؤتمر .. وجلست بجوار

عبد الرحمن الشرقاوى والمرافق الأزبكستانى فى العربة السودا. الكبيرة . وانطلقت العربة .. بالصفافير والموتوسيكلات .

ونظر عبد الرحمن مخضوضا وقال لى هامسا :

ـ إية الحكاية ؟

وقلت له باسما :

ـ ده موكب .

ـ بتاع إيه ؟

ـ بتاعنا ..

ـ ليه ؟

ـ علشان رايحين نفتح المؤتمر .

ولم يبد على عبد الرحمن الشرقاوى الاقتناع . واستمر ينظر إلى الموتوسيكلات فى دهشة وعلامات الجزع تعلو وجهه .

وقلت له هامسا أحاول طمأنته :

ـ إيه يا عبد الرحمن .. مالك ؟

وعاود عبد الرحمن النظر إلى عساكر البوليس ينطلقون بالموتوسيكلات أمام عربتنا ثم أجاب هامسا :

ـ أصل أول مرة البوليس يجرى قدامى .. طول عمره بيجرى ورايا .

وسرنا فى الطرقات المتسعة لمدينة البساتين . المدينة التى ابتلعتها الأرض ذات ليلة .. واستيقظ أهلها الطيبون ليجد من بقى منهم على قيد الحياة نفسه فى العراء .. بلا جدار يأوى إليه .. ولا سقف يستظل به ..

ويقص على عظيموف كيف أصبح أولاده يخشون الليل .. ويهرعون إليه كلما أقبل الظلام .. كأن شبحا سيجثم عليهم ويكتم أنفاسهم .

وفى صباح الزلزال كان قادة الاتحاد السوفيتى الثلاثة يقفون على حطام البلدة .. وفى ثوان .. كان قد تقرر .. أن تعيد جمهوريات

الاتحاد كلها بناء المدينة .. كل مدينة تبنى حيا .. تتكفل فيه بكل شىء .. المواد .. والأيدى العاملة .. بأجورها .. وبكل ما تتكلفه إقامتها .

وبدأت القطارات تحمل العمال والمواد من كل جمهورية .. لبناء الحى الخاص بها .. ورأينا حى أوكرانيا وحى أذربيجان .. وجورجيا .. بعد أن قامت فيها العمارات الحديثة وقد احتلها أهل المدينة .

وخارج المدينة بدت الدور القديمة ..

دور لا أملك وأنا انظر إليها وأسير بينها إلا أن أتذكر ألف ليلة وليلة .. الجدران العالية تعلو وراءها أشجار البساتين تتدلى منها ثمار الفاكهة .. وأبواب خشبية مغلقة .. تنبعث من ورائها أصوات موسيقى .. وأتخيل الأميرة تسير بين الأشجار . والفارس يثب فوق الأسوار .

ودخلت إحدى هذه الدور .. ضيفا على الصديق العزيز عبد الرزاقوف .. وكان أهل طشقند قد خيروا بين أن يقطنوا فى إحدى شقق العمارات أو يأخذوا قطعة أرض خارج المدينة ليبنوا عليها دارا مستقلة .

ـ لقد اختار أبى أن يبنى لنفسه بيتا خارج المدينة .. فأنت تعرف هؤلاء الناس الكبار .. لا يستطيعون بسهولة أن يغيروا نمط حياتهم .. فى آخر عمرهم . لقد تعودوا على الحياة فى بيت مستقل .. ولا يستطيع أن يتصور كيف يسكن فى شقة فى عمارة مع غيره من الأسرات .

والبيت تطل نوافذه على فناء فى الداخل .. كالبيوت العربية القديمة .. وفى وسط البيت حديقة زرعت بها أشجار الفاكهة وتوسطتها أريكة عالية فرشت عليها السجاجيد .. يجلسون عليها فى ليالى الصيف .. يسمرون ويأكلون .

وجلسنا نتناول الأرز الأزبكستانى الشهير .. بالجزر والبصل تختلط به قطع اللحم .. وملئت المنضدة بصحاف الفاكهة .

وكان الرجال وحدهم يجلسون على المائدة والنساء يجلسن بعيدا ..

يجهزن الطعام .. ويتولين الخدمة .. والجو العربى الإسلامى الأصيل يشيع فى أنحاء الدار .

والسيدة الكبيرة .. تتمنى أن يحضر لها ابنها تسجيلا للقرآن قائلة له فى صوت هادىء مليء بالإيمان .

ــ عدنى بأن تحضر لى تسجيلا يشيع روحى بترتيل القرآن عندما أموت .

وتمنى الأب أن يكرمه اللّٰه بالحج وقال له ابنه :

ــ صحتك ضعيفة .. وقد لا تتحمل مشوار الحج .

ــ يكون من نعمة اللّٰه أن أقضى هناك .

انطلقنا من البيت نودع أصحابه الطيبين متجهين إلى المؤتمر .. وأقبل على عظيموف يسألنى :

ــ نريد واحدا من الوفد العربى يلقى بحثا فى الاحتفال بذكرى الشاعر شير آلى نوائى .

وكانت البلدة كلها تحتفل بذكرى شاعرهم الكبير أبو الأدب الأزبكستانى .

وكان صلاح عبد الصبور سيلقى قصيدة فى مهرجان الشعر ومرسى سيلقى بحثا فى الندوة .. وكنت سألقى كلمة فى افتتاح المؤتمر .. ولم أجد أقدر من عبد الرحمن الشرقاوى على عمل البحث .

وقلت لعظيموف على الفور وهو ينتظر إجابتى :

ــ عبد الرحمن الشرقاوى سيلقى البحث المطلوب.

وضحك عظيموف .. وأحس بأنه مقلب جديد لعبد الرحمن .. ولكنه بدا سعيدا به .. وقال لى :

ــ إذن سأذهب لأسأله إياه ..

وبدأ عبد الرحمن يجمع المراجع .. وأغلق على نفسه الحجرة .. ليعد البحث . وعندما التقينا على مائدة الإفطار فى الصباح نظر إلى عبد

الرحمن فى غيظ وسألنى قائلا :

ـ أيه حكاية الشيخ على دى ..

وباستعباط سألته :

ـ شيخ على مين ؟

ـ الشيخ على الشناوى .

ـ مين ده الشيخ على الشناوى ؟

ـ اللى خليتنى أقضى الليل كله سهران .. أقرأ له ..

ـ قصدك .. شير آلى نوائى ..

ـ ما هو الشيخ على الشناوى .

وأصر عبد الرحمن الشرقاوى .. على ألا يسميه فى بحثه بغير الشيخ على الشناوى .. وعلى أن يردد طوال الرحلة حكمة توفيق الحكيم « هو احنا واخدين إيه من يوسف السباعى .. غبر المصايب ووجع الدماغ » .. والمصايب فى نظر عبد الرحمن كانت النزول فى أسر الضيافة والسير فى موكب الموتوسيكلات .. أما وجع الدماغ فكان بحث الشيخ على الشناوى .

وفى رحلة إلى خارج مدينة البساتين الجميلة انطلقنا إلى إحدى المزارع الجماعية .. ركبنا ماكينة جنى القطن .. تسوقها أزبكستانية حسناء موردة الوجنتين .. والماكينة عبارة عن عربة كبيرة تسير بين خطوط القطن بمقدمة ركب فيها أشياء أشبه بالمراوح تنفض الزهر الأبيض لتنطره داخل العربة .. وفى بضعة مشاوير تقوم بما تعمله مئات الأيدى الجامعة لتجمع للاتحاد السوفيتى ما يقرب من مائة مليون قنطار من القطن فى كل عام ..

ولقينا الفلاحون بالموسيقى والرقص .. وكان علينا أن نرقص .. ونظر إلى عبد الرحمن الشرقاوى وهو منهمك فى الرقص بين الفلاحات قائلا :

ـ ما هو ما كانش ناقص غير ترقصنا ..

وأقبلت على شيخ المزرعة .. أحد أبطال الاتحاد السوفيتى رجل يكاد يبلغ الثمانين من عمره وشد على يدى فى حماس .. وحييته فى فرحة .. وأنا أحمل أحد عناقيد العنب الذى لا يقل وزنه عن خمسة كيلو .. وبدأ المصور يلتقط لنا صورة ونحن نقف متجاورين ولكن أحد المرافقين لم تعجبه الصورة وقال :

ـ تحدثوا .. حتى تبدو الصورة طبيعية .

ولم أعرف ماذا أقول له .. فهو لا يعرف غير الأزبكستانية .. والكلمة الوحيدة المشتركة بينها وبين العربية .. هى « السلام عليكم » ولقد قلتها وانتهيت ومن غير المعقول أن أظل أكررها كالأبله .

وقال المصور الغبى :

ـ تكلموا ..

وفجأة فتح على الله بكلمة فقلت للرجل العجوز :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم .

وتهلل وجه الرجل وهتف قائلا لدهشتى الشديدة :

ـ الحمد لله رب العالمين .

ـ الرحمن الرحيم .

واستمر المصور يقول :

ـ تكلموا ..

وعدت أنا أقول .

ـ مالك يوم الدين .

ورد العجوز فى فرحة :

ـ إياك نعبد وإياك نستعين .

وانتهى المصور من صورته .

ولكننا لم نكن قد انتهينا من قراءة الفاتحة .. فظللنا نتحدث والناس في دهشة مما نقول .. ولم أكد أقول للرجل آمين حتى هتف بي « آمين » ثم ضمني إليه وعيناه تنهمران بالدموع ..

وشددت على الرجل في حرارة .

وعدنا في نفس اليوم .. لنحضر عيد البطيخ الأبيض ..

والبطيخ الأبيض .. هو الشمام .. أو بمعنى أدق القاوون .. وأزبكستان تنتج منه ما يقرب من الثلاثمائة نوع .. تصدر إلى جميع أنحاء العالم .. وتصل نسبة السكر في بعضها إلى ٢٠ ٪ .

وكنت أعتقد أن الاحتفال لن يزيد على تذوق البطيخ .. وكنت أشعر بالعطش .. وتذوق البطيخ على عطش من ألذ الواجبات التي يمكن أن يؤديها الإنسان .

ولم أكد أجتاز باب الحديقة حتى وجدت منصة خطابة ووجدت آلافا من المستمعين .. وسمعت مراسل البرافدا الذي كان يرافق المؤتمر يهمس إلى شخص بجواره :

هذه هي الخطبة رقم ٢٧ للسكرتير العام للتضامن .

وعرفت أني سأخطب ..

فبدأت أعد في ذهني شيئا أقوله ..

ماذا أقول عن البطيخ ؟!

حمار وحلاوة ..

لا ينفع .. لأنه بطيخ أبيض .

أأقول .. المعسل ..

ماذا أقول ؟

وقال محافظ المدينة أشياء لم اسمعها .. لأني كنت قد سرحت فيما يمكن أن أقوله ..

وأخيرا حل القضاء ..

وسمعت مقدم الاحتفال يقدم اسمى للجمهور ووقفت أهز رأسى وأقول للناس ببراءة :

« مهما قلت من كلام فلن يكون أحلى من بطيخكم .. وفى انتظارنا ثلثمائة قطعة بطيخ لنأكلها .. لماذا لا ننطلق لأكلها .. بدلا الاستماع إلى الكلمات الفارغة التى سأقولها » .

وضحك الناس ..

وانطلقوا ورائى لأكل البطيخ ..

لم يكن البطيخ فقط ..

بل كانت جميع أنواع المكسرات والفاكهة .. الرائعة حجما وطعما .. الخوخ والتفاح والكمثرى .. واللوز والجوز والبندق .. إلخ .

وأجمل فاكهة أزبكستان من إنتاج وادى فرغانة .

ووادى فرغانة ليس غريبا على العرب ..

وأزبكستان كلها بأهلها ودورها .. وعاداتها ونسماتها .. ليست غريبة على العرب ..

وأهل أزبكستان يعتبرون محنة العرب محنتهم .. ومن قلوبهم يتقدمون لنصرة العرب وتأييدهم .. والتضامن معهم .

ليال جميلة .. كنت أتسلل فيها مع الرفاق عبد الرحمن وإدوار وأحلام بعد العشاء بغير موكب من الموتوسيكلات ذات السيدكار .. نسير على شاطئ النهر .. ورائحة الياسمين تهب علينا من وراء الأسوار .. والورود تملأ الشاطئ .. ونتجول فى الطرقات .. نتسكع .. ونتحدث .. ونضحك ونحاول أن نتلمس طريقنا للعودة .. ونضل الطريق .. ونحتار .. حتى نجد عسكرى بوليس فنحاول أن نفهمه أننا قد ضللنا الطريق .. وأننا نقطن فى مقر الضيافة .

ويرد علينا الشرطى فى رقة .. بشىء لم نفهمه ثم يتقدم أمامنا ..

وبعد برهة نجد أنفسنا مرة أخرى أمام المقر ..

ونشكر الشرطى .. بعد أن كلفناه مشقة المشوار فى الليل .. ونسلم عليه مودعين ..

ننتظر أن يعود أدراجه من حيث أتى .

ولكنه يبتسم فى رقة ويدخل معنا ..

ويتضح ببساطة أنه الشرطى المرافق لنا وأنه مكلف بحراستنا ..

وأنه عاد معنا لأنه كان مفروضا عليه أن يعود إلى مقر عمله ..

وأنه لم يخطر بباله قط أننا ضللنا الطريق ..

لأنه كان معنا دائما ..

إذن لم يكن مشوارنا .. تسكعا .. ولا صرمحة .. كما كنا نظن .. وفقد المشوار متعته .. بعد أن فقد طعم التسكع والصرمحة ..

قطعا .. إن للحياة .. طعما آخر .. بغير مواكب .. وبغير حراسة .. فى كل مكان .. وفى كل زمان .. ليس هناك .. أثمن .. من حرية التسكع .. والصرمحة .. نتسكع ونتحدث ونضحك دون أن نحس أن هناك من يراقبنا أو يحسب علينا حركاتنا .. ليس هناك أجمل من الحرية .. إنها أجمل من الشهرة .. ومن السلطان لو أدرك الإنسان .

أنا وعقرب الساعة .. فى روما



وأنا مخزون فى حجرتى .. لا أكاد أحس من حولى بروما فى قليل ولا كثير !!

والساعة ملقاة أمامى يتحرك عقرب ثوانيها فى دأب وإلحاح ليؤكد لى أن أيامى .. تمر .. هنا أو هناك !!

وأخذت أرقب العقرب .. فى خطواته القصيرة الوئيدة ، المصرة ، وأحسست بنفسى ألاحقه .. هو على الميناء البيضاء وأنا فى خضم الحياة !! وكأننا فى سباق لايمنحنى فيه فرصة ألتقط أنفاسى ..

وكدت أمسك به .. وأوقف خطواته .. وأقطع عليه دقاته ، وأهمس به :

« أيها الدائب المصر .. لماذا تلح فى السير .. قف بنا لحظة .. ودعنا نسترح ونهدأ .. أليس فى طريقك الطويل محط نستقر فيه وإياك ، ونستريح من عناء سباقك ، وتعب ملاحقتك ؟.

لماذا لا تقف بى مرة .. فلا تذكرنى .. بأن الوقت قد فات ، والساعات قد انقضت ، والأيام قد مرت » .

ونظرت إلى الخبيث .. فإذا به يسير ، لم يتوقف حتى يسمعنى ، ولم يتمهل .. حتى أفرغ من كلماتى .

لقد تركنى أهذى ، وسار فى طريقه ..

وبخطواته الوئيدة .. المصرة .. قطع .. من عمرى نصف ساعة ..

وتركته يسير .. وعبرته ببصرى إلى غيره .

زجاجة مياه ، وكوب ، ومحفظة ، وأباجورة ، وكوم الصحف التى أحضرتها معى أول أمس .. ولم أر سواها حتى اليوم .

أحتم على أن أظل فى حجرتى مع هذه الأشياء ، وروما تضج فى الخارج ؟

لماذا لا أفعل مثل ما فعل « توفيق الحكيم » ؟

لقد قذف بالأوراق على طول ذراعه .. وقذف معها بالشيك ذى الخمسمائة جنيه الذى أخذه من أخبار اليوم .. وأقسم ألا يحبس نفسه كالأسير ليكتب والمدينة تضج من حوله .

أنا أجلس أسير القلم والأوراق .. وبلا خمسمائة جنيه ، ولا حتى مائة ، و « توفيق الحكيم » يقذف بها إلى أصحابها .

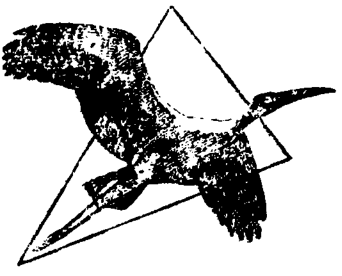
وينطلق بالضجيج والحرية ..

أهذا .. عقل !!

ومع ذلك استمررت أكتب .. كما استمر عقرب الساعة يسير ..

لماذا ألوم عقرب الساعة .. وبى منه شبه كبير ؟

مكاريوس ... ستة أشهر سجن



• الرجل الطويل بقامته المهيبة ووجهه المشرق وسط ملابسه الفضفاضة السوداء وقد علت رأسه قلنسوته العالية وكست لحيته الفضية ذقنه وعنقه وتدلت السلسلة بالميدالية الذهبية على صدره ..

ووسط كل هذه المهابة تلوح على وجهه ابتسامة حلوة كابتسامة طفل برىء يملأ نفسك إحساسا بالراحة والطمأنينة .

وطال بنا الحديث عن السياسة وعن أشياء أخرى كثيرة .

وفجأة وجدت وجهه أشرق بابتسامته الحلوة الطيبة وقال لى :

ـ فى اجتماعنا الأخير فى لندن جلس ويلسون يتحدث عن تصفية

المستعمرات البريطانية .. وكيف يعدون العدة لمنحها الاستقلال الذاتى .. وجدت ذهنى يشرد بعيدا .. فى أيام خلت .. وقلت له فجأة متسائلا :

ـ وسيشيل ؟!!

وكانت سيشيل منفاى .. عندما أبعدنى البريطانيون عن قبرص فى إبان الكفاح ضد استعمارهم .

وبدا التردد على وجه رئيس وزراء بريطانيا ثم قال متسائلا :

ـ ماذا عن سيشيل ؟

ـ متى تنوون منحها حريتها ؟

وفكر ويلسون برهة ثم قال :

ـ سيشيل حالة خاصة .. إننا لا نستطيع منحها حريتها .. لأن ظروفها لا تسمح ..

وصمت برهة ثم أردف :

ـ إننا قد نلحقها بجزر سان موريشيس فى الوقت الحالى .

وضحك الأسقف مكاريوس وهز رأسه وشرد بذهنه قليلا وقال يحدثنى :

ـ إن لى فى سيشيل ذكريات حلوة .. كان معى ألف جنيه .. ووجدت أن خير طريقة لاستثمارها .. هى أن أخصصها لتعليم أطفال الجزيرة .. وقلت لنفسى سيتعلم هؤلاء الأطفال ويكبرون .. ثم يذهبون فى بعثات دراسية إلى خارج الجزيرة ويعودون ليجعلوا منها شيئا آخر ..

وانتشر تعليم الأطفال فى الجزيرة .. وانتشرت معه هواية تسمية المواليد باسم مكاريوس ..

وأضحى مكاريوس رمزا بين الأهالى لشىء ما .. ضد الاستعمار .. شىء يكرهه البريطانيون .. ويكرهون أن يشغل أهل الجزيرة

بالهم به .. وصدر أعجب قانون فى العالم .. هو عقاب من يسمى ابنه باسم مكاريوس .

وضحكت وسألت الرجل المهيب ذا الضحكة الحلوة :

ــ وماذا فعل الأهالى ؟

ــ سمى أحدهم ابنه باسم مكاريوس .

ــ وبعدين ؟

ــ اتلهف ستة أشهر سجن .

ــ وبعدين ؟

ــ اضحى اسم مكاريوس .. يتبادل سرا .. كالمحرمات ..

وقلت مازحا :

ــ عرفت سر اهتمامك باستقلال سيشيل .. لكى تعيد لاسم مكاريوس .. علنيته .

وضحك الرجل وردد شعار المكافحين :

ــ إن الحرية لا تتجزأ .. وحتى تستقل سيشيل .. أصغر بقعة في العالم لن تكون حريتنا كاملة .

بالداكوتا .. إلى تونس



بعد يوم سأطير إلى تونس
والمفروض أن أطير على « الداكوتا » ..
واسم (الداكوتا » ليس غريبا على أذنى .. فقد كنت أسمعه وأنا طالب فى الكلية الحربية .. نسر ضخم كبير .. زود به سلاح الطيران .
ولكننى اليوم أسمع به كشىء هزيل .. يحذروننا من استعماله .
وقد أشاروا لى على « الداكوتا » وأنا أنزل من « الفيكونت » فى مطار روما .
ورأيت طائرة ذات محركين وهي تقف مائلة .. كأنها كلب يقف

على ساقية ، ورأيت بابها فى الجانب المنخفض .. يستطيع الإنسان أن يدخل إليها بلا سلم ، وخيل إلى أن السلم موجود فى الداخل .

وقيل لى إنها تقطع المسافة فى ضعف الزمن ، وأنها تطير طيرانا واطئا ، وعندما يضطرها سوء الجو إلى الارتفاع فعلى الركاب أن يلبسوا كمامة الأكسجين .. لأنها غير مزودة بتكييف الضغط .

كل هذا قيل لى .

ومع ذلك لم يكن هناك مفر من السفر فى هذه الداكوتا ، غير المحترمة .. لأنه ليس أمامنا من وسيلة للسفر غيرها .

وتذكرت رحلتى من القاهرة .

وكيف بدأتها بكل ما يمكن من إزعاج لزوجتى .

فهى لم تستطع أبدا أن تروض نفسها .. على قبول سفرى بالطائرة ببساطة .. كغيرها من بقية خلق اللّٰه .

وأنا أحاول دائما أن أهدئها بالخدع والأكاذيب .. معتمدا فى أكاذيبى على جهلها التام بالجغرافيا .

خرجت ذات مرة ، على أنى ذاهب إلى عملى فى الزمالك ، وبعد ساعتين حدثتها فى التليفون .. من دمشق .

وفى رحلتى إلى غينيا والصين ، قلت لها إنى ذاهب فقط إلى غينيا ، وأفهمتها أن غينيا .. على بعد فركة كعب .. أو على حد قول أهل الريف ، على بعد « نص بريزة » من القاهرة .

.ما فوجئت بخبر سفرى إلى الصين منشورا فى الصحف ، وبدا عليها الانزعاج لم أجد وسيلة لتهدئتها .. إلا أن أقول لها بمنتهى البساطة : « طب ودى فيها إيه .. مانا رايح غينيا عن طريق الصين » .

أما تونس .. فقد أكدت لها .. أن مسافتها لا تبعد بحال من الأحوال عن دمشق .

وأنا أحاول دائما أن أؤجل أخبار سفرى إلى آخر لحظة حتى أقلل أيام انزعاجها ، ومع ذلك تأبى الصحف فى كل مرة إلا أن تفضحنى .

وأحاول أيضا أن أجعل رحلتي .. تمر بأخف ما يمكن من إزعاج .

عندما ذهبت إلى السويد لأحضر مؤتمر السلام .. كانت الدنيا « رايقة بلوزه » ولم يكن هناك أي احتمال لقلاقل أو اضطرابات .. ومع ذلك لم أكد أستقر ، حتى وقعت ثورة العراق ، ثم أنزلت القوات البريطانية فى الأردن والأمريكية في بيروت ،وأصبح العالم كله على شفا حرب .

وكان على السيدة زوجتى أن تحتمل فكرة وجودى فى السويد وحرب عالمية توشك أن تقع !

والثانية فى رحلتى إلى الصين .

الأحوال على ما يرام ، ونحن والصين .. أصحاب .. أربعة وعشرين قيراط ، أو على الأقل .. ثلاثة وعشرين قيراط ، وليس هناك أبدا .. ما يمكن أن يثير المخاوف ، وليس هناك ما يمكن أن ينتظرنا .. غير الترحيب والتكريم .. من إخواننا الصينيين .

ومع ذلك .. لم نكد نضع أقدامنا على أرض الصين ، حتى خطب السيد خالد بكداش رئيس الحزب الشيوعى فى سوريا .. خطبته التى شتم فيها الجمهورية العربية المتحدة ، وهات يا أزمات ، والزوجة العزيزة .. تسمع الأخبار المكهربة وتتوقع فى كل لحظة قطع العلاقات ، وما يتبعه من اعتقالى ، وأسرى .. و .. و ..

وفى هذه الرحلة .

يعلم اللّٰه ماذا يخبئ القدرمن وسائل الإزعاج ، ولكن يخيل إلى أنه قد قام بما يستطيع من إزعاج من أول الرحلة ، وانتهى .

وأنا فى مطار القاهرة ، والطائرة على وشك القيام ، وقد جلست

أتطلع إلى عناوين الصحف .

وبالخط العريض قرأت مانشيت بعنوان « سقوط طائرة ركاب نفاثة كانت فى طريقها إلى القاهرة ، وبالبنط الثقيل قرأت :

« احترقت طائرة ركاب نفاثة من طراز كارافيل تحمل ٢٥ راكبا و٧ وملاحين كانت فى طريقها إلى القاهرة ..

اصطدمت الطائرة بجبل وهى تنزل فى مطار أنقرة فاشتعلت فيها النيران » ..

وفى نفس الصحيفة قرأت خبرا آخر بعنوان :

« مصرع ٤٨ فى سقوط طائرة أمريكية » .

« سقطت إحدى طائرات الفيكونت على مقربة من ريتشموند بولاية فرجينيا ، واحترقت بعد وصولها إلى الأرض » .

حاجة .. مطمئنة خالص !!

وطبعا .. قرأت زوجتى الخبر .

كان اللّه فى عونها .. علينا وعلى أسفارنا .

وكان اللّه فى عوننا .. على الداكوتا ، وعلى محركيها ، وطيرانها المنخفض .. وكمامة الأكسيجين .

فى اليمن .. مع إخوتى .. فى الكاكى



بى حنين إلى البدلة الكاكية ما فى ذلك شك ..

عشرون عاما قضيتها من زهرة العمر .. بين التكنات الصفراء .. والثياب الكاكية .. ليست بالقصيرة ولا الهينة .

ومنذ بضع سنوات .. نزعت عن جسدى البدلة الكاكية .. ولكننى لم أستطع حتى هذه الساعة أن أنزع من نفسى الحنين إليها .. وإلى أصحابها .. ألقاهم فى الطريق .. فتعلو شفتى الابتسامة .. وأحييهم على معرفة وعلى غير معرفة ..

وعندما وقفت على ظهر السفينة مصر فى طريقى إلى اليمن مع إخوة القلم نجيب محفوظ وصالح جودت ومحمود حسن إسماعيل ومهدى علام وأنيس منصور أرقب قبطانها الشاب عادل عبد الرحمن

وأنا أرى اقتران يقظته وثقته بقدرته على السيطرة على طاقم السفينة ، وأحس بفخر يملأ نفسى .. وأنا أقارن بينه وبين قبطان إنجليزى كان يقود السفينة الخديوى إسماعيل منذ ثمانى سنوات وقد ملأنى الشعور بأن السفينة المصرية قد أصبحت مصرية حقا .. وأن القدرة والكفاءة المصرية تفرض نفسها فى كل مجال .. وتملأ النفس ثقة بالمستقبل .

وقفت على ظهر السفينة أحاول التقاط نسمة من هواء راكد معلق .. ونحن نسير فى اتجاه الريح .. والحرارة والرطوبة وركود الهواء .. يكتم الأنفاس ويعتصر العرق .. وتنضح من أجسادنا المياه التى تجرعناها .. بعد ثوان من شربها ..

وقفت على ظهر السفينة أرقب البحر الأحمر الحار كأنه مستنقع ملتهب .. عندما سمعت أصواتا تهتف بى ونظرت أسفلى فإذا بأذرع كاكية تلوح لى .. ووجوه سمر تبتسم لى وسط قطرات العرق ..

وهتف بى أحدهم :

ـ إحنا مدرعات .. كنا معاك فى مركز تدريب المدرعات .. فاكر ..

وابتسمت فى شىء من النشوة .. وصحت بهم وشعور بالحنين والحب يملأ نفسى :

ـ طبعا ..

وأخذنا نتبادل الحديث فى ود وأنا أحس بما يملأ قلبهم من حماس ..

ونظر إلى أنيس منصور متسائلا فى دهشة :

ـ مالهم فرحانين كده زى ما يكونوا رايحين فرح .. مش معركة ..

كان أنيس على حق .. فما كف إخوة الكاكى عن الغناء والتصفيق طوال الرحلة ..

ووصلنا إلى الحديدة ..

الجو ما زال خانقا .. والريح راكدة .. ولكن ابتسامات الوجوه المحبة .. تشرق علينا .. لتملأنا إحساسا بالراحة ..

لقيت عدنان الصلح .. وضباطه .. وامتلأنا إيمانا بمدى إحساسهم بالمسئولية .. الراضية .. الفاهمة .. الواعية ..

كل من لقيناه .. ترك فى أنفسنا هذا الشعور .. إدراك المسئولية .. وحمل تبعتها برحابة ورضاء .. وفهم لقيمة عمله .. وإصرار على أدائه بإتقان حتى النهاية ..

حتى لقد سألنى نجيب محفوظ هامسا فى أذنى :

— هم الجماعة بتوعنا اللى هنا متنقيين ؟ أنا ما شفتش هنا حد مش ممتاز ! ..

ولم أستطع أن أقنع نفسى أنها مسأله نقاوة .. فدقة الاختيار فى حملة كبيرة كهذه تكاد تكون مستحيلة . وإن الأقرب إلى العقل أن يكون التطور قد وقع فى الجيش كله .. وأن ما رأيناه فى اليمن .. لم يكن مجرد « عينات » وإنما هو جزء من أصل .. طيب .

وتركنا الحديدة .. وكانت وسيلة انتقالنا طائرة مقاتلة .. يقودها محب يوسف .. نموذج آخر مفرح .. للشخصية المصرية التى تمتزج فيها القدرة بالمحبة .. والقوة بالطيبة ..

وأضحت طائرة محب كأنها تاكسى للإخوة الكتاب يطوفون بها أرض المعارك .. نلتقى بمحب فجر كل يوم .. لنتخذ أماكننا فى جوف الطائرة .. ويقترض أنيس منصور بالطو العسكرى العامل فى الطائرة ليستدفىء به .. ويغمض صالح جودت عينه .. ويتمتم محمود إسماعيل بكلمات .. يعلم اللّه إن كانت قرآنا أم شعرا .. وينظر إلى نجيب محفوظ فى استسلام .. ويروح الدكتور مهدى علام فى نوم عميق ... حتى تهتز الطائرة وهى تلامس أرض المطار ..

وفى مأرب .. فى قلب الجبال .. لقينا أحباءنا .. المرابطين فى أرض

المعركة ..

أول ما تهز أوتار القلوب .. بسمة حلوة على شفاههم .. ورضاء ملؤه الحماس فى قسماتهم .. ويد قوية تشد على أيدينا فى حرارة وترحيب ..

وقفزنا إلى العربة المدرعة ..لنجول بها بين المرتفعات .. واتجه بنا صاحبها أولا .. إلى خيمة على ربوة تطل على المطار الذى أنشئ فى مأرب .. قائلا فى إصرار :

ـ كباية شاى أولا ..

وجلسنا بين بضعة الضباط والجنود فى انتظار الشاى ..

وأخذنا نلتقط من شفاههم أنباء متقطعة عن معاركهم التى خاضوها .. وما زالوا يخوضونها .. ضد المتسللين .. والمرتشين والمرتزقة ..

ويأتى الشاى فى برطمانات المربى الفارغة .. فنرتشفه بين الوجوه الضاحكة ..

ثم نثب إلى العربة .. لننطلق بين الجبال إلى قلعة مأرب ..

ولقيت قائد القلعة .. وجه أسمر لطيف .. العميد عبد الكريم .. ونظر إلى وتساءل فى ابتسامة متخابثة :

ـ فاكرنى ؟

وقلت له مؤكدا وأنا أذكر وجهه جيدا :

ـ طبعا ..

ووجدته يهز رأسه متسائلا :

ـ أين ؟

وأجبته بسرعة :

ـ كنا مع بعض فى الكلية الحربية .

وهز رأسه وقال ضاحكا :

ـ لأ .. أنت كنت بتدرس لى ..

وقلت مستنكرا فى دهشة :

- يا جدع دانت عميد .. أبقى مدرسك ازاى ؟!

ورد مستغرقا فى الضحك :

- أصلى أخذت ترقية استثنائية ..

وأجبت ضاحكا :

- طب وأنا ذنبى إيه !

ولف بنا فى القلعة .. وحدثنى عن كيفية استيلائهم على القلعة ..

وطفنا بهم .. لنجد نفس الوجوه الباسمة .. المليئة بالحماس والقوة .

يقاتلون .. بابتسامة ..

ويخرجون المياه من جوف الأرض بابتسامة ..

ويخبزون العيش بابتسامة ..

ولقينا الضابط سمير وعرفنا قصته .. كان يقود بضعة جنود فى معركة ضد أحد مواقع المتسللين .. والمرتزقة .. ويصمد أمامهم يوما بليلة .. وهم يظنونه كتيبة بأكملها .. وتنفد منه الذخيرة .. فيلتقط قنابلهم اليدوية التى ألقوها دون أن ينزع عنها طابة الأمان .. ويعيدها بجواره دون أن تنفجر .. ويجمعها واحدة واحدة فى صبر وأناة ، ثم ينزع عنها طابة الأمان .. ويعيدها إليهم لتفتك بهم ..

ويسلمون له فى النهاية ..وهم لا يعرفون أنهم ضربوا بقنابلهم .. لقد فعل المصرى .. كثيرا فى اليمن .

من الناحية الإنسانية .. أمَّن شعبا على حريته وثبت دعائم ثورته .. وهيأ له القدرة على الانطلاق ليأخذ حقه فى الحياة ..

ومن الناحية العربية .. ثبت دعائم المثل الطيبة .. فى بلد عربى سجنته الرجعية دهورا طويلة فى سجون التخلف ..

ولقد ضممت كل من لاقيته هناك .. وددت لو استطعت أن أضم كل ضابط وجندى ، ولست أدرى أهو حنينى الأصيل إلى إخوتى فى الكاكى .. الذين ألقاهم فى الطريق فأحييهم عن معرفة وعن غير معرفة .

أم هو إحساس جديد أنبته لقاء مع أخوة الكاكى فى اليمن ..

لست أظنه مجرد حنين ..

فلقد أحسست بما أحس به .. بقية إخوة القلم ..

ودَّ نجيب محفوظ وصالح جودت ومحمود حسن إسماعيل وأنيس منصور ومهدى علام .. لو عانقوهم جميعا ..

وسيرون أنفسهم فى أدبنا وشعرنا .

وما أظننا .. نستطيع مهما بلغنا من القدرة .. أن نصورهم فى كتاباتنا .. كما رأيناهم فى واقعهم المشرق الباهر ..

عابر سبيل فى بيروت



مررت مرورا خاطفا بلبنان فى فترة ما بين الوزارتين .. وزارة اليافى ووزارة كرامى .. ولقيت من لقيت .. وسمعت من سمعت وقرأت ما قرأت .. ولم أدر بعد ذلك أمن حقى بعد تلك اللحظات الخاطفة التى قضيتها فى لبنان أن أكتب فى سياسة لبنان .

العذر الوحيد الذى ألتمسة لنفسى .. أن ما أكتبه مجرد خواطر عابر سبيل .. محب للبنان .. بكل من فيها من بشر يحبون الحياة .. وسهول تملؤها خضرة الخير .. وجبال تكسو سفوحها النضارة .. وتعلو رءوسها قمم بيضاء كأنها حمامات السلام .

عاصرت بمرورى الخاطف ظروف تشكيل وزارة جديدة فى لبنان .

انتهت مشاورات رئيس الوزارة الجديدة بإخفاقة فى تشكيل وزارة من السياسيين ، وأتم تشكيلها من الخبراء والفنيين .

رفض كمال جنبلاط رئيس الحزب التقدمى الاشتراكى دخول الوزارة إلا بشروط أهمها :

* إسهام الدولة المباشر فى إنقاذ بنك أنترا والشركات ذات النفع العام التى لها أهمية خاصة فى الاقتصاد اللبنانى .

* إنشاء مؤسسة لضمان الودائع فى المصارف الوطنية وتعديل قانون المصرف المركزى لتمكينه من القيام بالرقابة الفعالة على المصارف وإلغاء سرية المصارف الأجنبية ، وإجبار هذه المصارف على توظيف أكثر أموالها وودائعها فى لبنان وإسقاط حقها من عداد المصارف المقبولة لدى الدولة ..

* إسهام الدولة فى أغلبية أسهم الشركات ذات النفع العام كالتلفزيون والطيران وتجفيف وبيع الحليب .. والشركات التعاونية للاستهلاك .. والتسويق .

* وضع خطة للتصنيع والإنماء الزراعى والسياحى والحرفى وإنشاء وزارة للصناعة تؤسس الصناعات الجديدة مباشرة .. وتسهم فى الصناعات القائمة .. وإعادة النظر فى اتفاقيات البترول .. وتوسيع نطاق الرى والبحيرات الصناعية .

* تعديل قانون ضريبة الدخل وقانون العمل وإلغاء الفصل التعسفى .. بناء المساكن الشعبية وسن قانون للإيجارات .

* تعديل الدستور بحيث لا يجوز إسقاط الحكومة إلا بأغلبية ثلثى أصوات مجلس النواب وفرض شروط للأهلية النيابية تستلزم درجة من العلم لا تقل عن مستوى الشهادة التكميلية .

* مراقبة أفلام السينما والتلفزيون ومراقبة الصحف ومصادر تمويلها .. وتحريرها من سيطرة الرأسمالية المباشرة ومن رشوة الإعلان .

* فى السياسة الخارجية .. مقاومة الأحلاف العدوانية وتنمية النهج التحررى فى السياسة العربية والدولية ومساندة الحركات الاستقلالية فى الجنوب العربى وإعادة النظر فى العلاقات مع الدول الأجنبية على ضوء موقفها من فلسطين واعتماد منظمة التحرير الفلسطينية .

والشروط التى عرضها كمال جنبلاط لاشتراكه فى الوزارة ليست جديدة .. ولكن الجديد فيها هو ما لقيته ـ لأول مرة فى تاريخ لبنان ـ من تأييد الأوساط الاقتصادية اللبنانية بسبب ما أحست به الرأسمالية الوطنية من خطورة سيطرة رأس المال الأجنبى على اقتصاد لبنان .. عقب مأساة بنك أنترا .

وأصر كمال جنبلاط ـ إلى جانب شروطه الموضوعية ـ على اشتراك اللواء جميل لحود وزير الشئون الاجتماعية فى وزارة عبد اللّه اليافى والذى استطاع أن يحقق تشكيل النقابات العمالية وجعل ـ كما قال كمال جنبلاط ـ الجماهير الشعبية والعمالية تؤيده فى كل مكان من أرض لبنان :

وقد أدت معارضة الكتل السياسية الأخرى مثل الجبهة الديمقراطية لشروط كمال جنبلاط التى أيدتها جبهة النضال الوطنى إلى الخروج من أزمة تشكيل وزارة برلمانية بتشكيل وزارة أخصائيين وخبراء .

وإذا كانت بعض الأوساط لم ترض عن تشكيل الوزارة ولا سيما الكتل البرلمانية فهناك إحساس عام بالرضا عنها لوزن أعضائها كأفراد .. وسلامة اتجاههم .. والمفهوم أن لكمال جنبلاط رغم عدم اشتراك حزبه فى الوزارة وزيرين أحدهما فؤاد رزق الذى كان نائبا لرئيس الحزب التقدمى الاشتراكى .. كما تضم جورج حكيم الذى

طرد سفير إيران فورا من لبنان عندما أصدر تصريحا جاوز به حدوده الدبلوماسية .

واشتراك كمال جنبلاط فى الوزارة مفيد .. وعدم اشتراكه ـــ كما سمعت ـ أكثر فائدة .. فهو فى داخل الوزارة يستطيع بتأثير مباشر أن يضمن نوعا من التوجيه التقدمى فى السياسة الداخلية والتحررى فى السياسة الخارجية .. وهو فى خارج الوزارة يستطيع أن يكون أكثر تحررا فى مقاومة التيارات الرجعية .. والاستعمارية وأكثر انطلاقا فى تعبئة القوى الشعبية لمقاومة الانحرافات .

ولقد كانت الكتل البرلمانية من العناصر الفعالة فى إسقاط وزارة اليافى حيث غلبت الرغبة فى الاستوزار وضيق اليمينيين بمشروعات الوزارة التقدمية أى تكتل حول مبدأ واحد أو التفاف حول هدف مشترك .

قال النائب سامى البستانى إن وزارة بها وزيران يساريان (يقصد كمال جنبلاط وجميل لحود) يجب ألا تبقى .

لا يبدو أن تشكيل الوزارة بوضعها الحالى الذى أضاع على النواب المستوزرين أملهم فى المقاعد الوزارية وأضاع على اليمينيين فرصة وجود وزارة تريحهم مائة فى المائة .. وتقضى على الخطوات التى اتخذتها الوزارة السابقة فى طريق التقدمية .. لا يبدو أن هذا التشكيل يمكن أن يحوز رضاء الكتل البرلمانية .

والنتيجة إما أن تذهب الوزارة بسرعة أو يحل مجلس النواب قبل موعده الباقى عليه سنتان .

وإذا ما وضع فى الاعتبار ما سمعته من أن السقاف الوزير السعودى قد صرح بأن رصيدا ضخما قد أعد لمعركة الانتخابات القادمة فى لبنان لضمان تأييد البرلمان اللبنانى للسياسة السعودية .. ولا سيما الحلف الإسلامى .

بات واضحا أن من مصلحة القوى الرجعية استمرار القلق وعدم إتاحة الفرصة لحكم يخطو خطوات جادة فى سبيل الإصلاح والتقدم .. وإشاعة الفرقة والفوضى فى مجلس النواب بحيث يصبح أداة لعدم الاستقرار حتى يطاح به هو نفسه .

ويسمع عابر السبيل كل هذا .. وينطلق فى شوارع بيروت التى تتلاحق فيها العربات فى زحام مجنون وتنحدر به العربة فى أحد الطرقات ويبصر على جانب الطريق فى قلب المدينة خرائب تزاحمت بها أكواخ من الصفائح والخرق البالية والعروق المخوخة .. تجثو راكعة أمام ناطحات السحاب التى تقوم بجوارها .. ويقول له صاحبه إن معارك تحدث بين الناس للحصول على مقر فى هذه الأكواخ الكائنة فى الخرائب أو المحشورة أسفل أشجار السرو .

ويحدثه صاحبه عن الذين يبيتون على الطوى والذين يقضون الويك إند فى باريس .. واللواتى يفصلن ثياب السهرة من أجل حفل خاص لا يزيد عن عشرة مدعوين .. واللواتى يدفعن خمسا وسبعين ليرة من أجل ميزامبليه عندكوافير قادم من باريس .

ويستعيد عابر السبيل خواطره عن بعض الشروط المطلوب التزام الحكومة بها والعمل على تحقيقها .. خطة التصنيع والإنماء الزراعى وتوسيع نطاق الرى وبناء المساكن الشعبية تعديل قانون ضرائب الدخل .. وإسهام الدولة فى الشركات والمصانع وإقامة الشركات التعاونية والتسويق التعاونى .. و ..

لمصلحة من .. ألا يمنح حكم ما فرصة استقرار لكى يحقق للشعب هذا ، أو بعضه ؟ .. قطعا ليست لمصلحة لبنان .. كل لبنان .

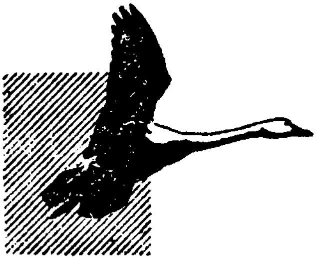
وأولهم .. أولئك الذين يقضون الويك إند فى باريس واللواتى يدفعن فى تصفيف شعورهن ٧٥ ليرة .

وساءل عابر السبيل نفسه .. لماذا لا يسعى القادرون .. إلى نشر العدالة الاجتماعية .. بدل أن يفرضها عليهم .. العاجزون .

وأخذت العربة تصعد بعابر السبيل سفح الجبل.. وهبت عليه نسمة رطبة ندية من السفوح النضرة .. ولاحت له القمم البيضاء كأنها حمامات السلام .. ووجد نفسه يهتف للبنان الحبيب .. أنعم اللّه بالرخاء والسلام على لبنان ..

في فيتنام ....

هانوى بلد المعارك .. والابتسامة والغناء



أعرف فيتنام المقاتلة جيدا .. أعرف منها وجه المعركة .. بكل ما فيه من قتال مرير ومقاومة باسلة .

أعرفه من الوثائق والبيانات والأرقام ..

ولكن الذى لم أكن أعرفه .. هو كيف يعيش الشعب حياته ..

كيف يقضى أيامه ولياليه .. والطائرات تدق أرضه .. وتشيع الخراب فى ربوعه .

وذهبت إلى أرض الجبال الخضراء التى تبدو من نافذة الطائرة وهى تتجاوز حدود لاوس .. وهبطت إليها لأتلقى باقة الزهور الأنيقة من جلاديوس وداليا تمتد بها يد الرجل الرقيق الذى أقبل على يحييني باسما .

وتحركت العربة من المطار لتخوض فى ظلمات ليل حالك السواد ..

لم تكن هناك برقة ضوء .. إلا ارتجافات النجوم فى السماء .. وشممت من الظلمة الدامسة ريح الحرب .. طريق بلا مصابيح .. وأفق بلا أضواء ..

الظلمة تغرق كل شيء .. ووسط السواد الحالك .. لا تعرف أين المدينة .. أين الناس .. وأين البيوت ..

وبين آونة وأخرى .. ينم ضوء العربة عن أحراش تحف بجانب الطريق .. أو جرف فى الجانب الآخر ينحدر إلى مسطح ماء لا تعرف فى الظلام كنهه ولا تدرك حدوده .

وتوقفت العربة ..

وبدت أمامها عربات تنتظر فى الظلمة ..

والليل حار .. والرطوبة ثقيلة تكتم الأنفاس .. والريح راكدة إلا من هبات خفيفة كأنما تحركها مروحة فى يد مسترخية متكاسلة .

ونظر إلىّ محدثى الرقيق وقال كلاما نقله إلى المترجم :

ـ سنضطر إلى التوقف حتى تعبر العربات القادمة من الاتجاه الآخر للكوبرى .. ثم نبدأ نحن فى العبور .

وصمت المترجم حتى ألتقط بقية الحديث وعاد يقول:

ـ لقد دمر الأمريكيون الكوبرى الأصلى .. واضطررنا أن ننشىء بسرعة كوبريا عائما للمرور .

وساد السكون .. وأطبقت الظلمة .. إلا من شمعة صغيرة ترتجف على منضدة على جانب الطريق وضع عليها براد للشاى .. وبضعة فناجين .. وبجوارها طفل صغير ووراءها صبى يسكب الشاى لجندى فى أحد الفناجين ويتناول منه قطعة نقود .

وأخذ الطفل يعبث بما فوق المنضدة .. وكاد يقلب الشمعة .

وسمعت الصبى يصيح به ناهرا .. بكلمات بدت أنها « وبعدين معاك » ..

وبدأت حركة من الجانب الآخر من الطريق ..وتوالت أضواء خافتة للدراجات .. ثم بدت أضواء مزدوجة تنم عن بدء عبور العربات .

واستمر عبور العربات قرابة ساعة وأبصرت بعضها يقف على مقربة منا والناس تندفع لتحتشد فيها ثم تواصل سيرها مليئة بالركاب .

وأبصر محدثى تساؤلا على وجهى فأجابه قائلا :

– لا تستطيع حمولة الكوبرى العائم احتمال سير العربة بركابها ، ومن أجل هذا يعبر الركاب على أقدامهم أولا ثم تعبر العربة خالية بعد ذلك .

وصمت برهة ثم أردف قائلا :

– كثير من العمال يسيرون خمسة عشر ميلا كل صباح للذهاب إلى أعمالهم .

وانتهت عملية العبور ، وسمعنا خبط أبواب العربات وأصوات إدارة الماكينات استعدادا للمسير . وسرنا بضع خطوات ثم وقفنا .

وبعد فترة بدأ العبور ثانية من الاتجاه الآخر ، واستمر ساعة أخرى ونظر إلى مرافقى متمتما فى اعتزار .

وقال المترجم ناقلا اعتذار :

– نحن نأسف لهذه العطلة.. ولكنها جريرة العدوان الأمريكى الذى أبى إلا يدمر كبارينا . لقد حاول بضع مرات أن يدمر الكوبرى الرئيسى الذى تمر عليه السكة الحديدية ولكنه فشل وأخيرا أرسل ما يقرب من خمسين طائرة .. هبطت عليه حتى لامسته .. واستطاعت تدميره .. ولكنها لم تستطع أن تفلت من مدافعنا . لقد قضينا عليها جميعا .

ومر الوقت بطيئا .. والحرارة خانقة .. والرطوبة ثقيلة .. ونظر إلى

مرافقى متمتما وكأنه خشى أن أضيق بطول الوقفة :

– الصبر ينفعنا كثيرا .. إنه أحد أسلحتنا فى الكفاح .

وضحكت قائلا :

– هذا على أية حال .. أخف أنواع الصبر .. إننا نجلس آمنين فى عربة مريحة .. ولست أظن هناك ما يجعلنا فى حاجة إليه .

وأخيرا تحركت العربة وبعد دقائق كنا نعلو مطلعا لنجد أنفسنا والعربة تتأرجح بنا فوق خشب الكوبرى العائم .

ونظرت من نافذة العربة أفحص الكوبرى على ضوء المشاعل المثبتة عليه .. ووجدت الفلنكات الخشبية تشدها الحبال إلى العروق المثبتة على عوامات الصلب . ومياه النهر الأحمر ، تتدفق فى عنف حول العوامات .

وبدا النهر عريضا .. عريضا .. لا يكاد يبين له شاطئ آخر والمياه الحمراء صاخبة هادرة .

وعلى إحدى العوامات أبصرت فتاة تجلس وقد ثنت ساقيها واسندت رأسها إلى ركبتيها وظهرها المنحنى لنا ووجهها للنهر الهادر المتدفق فى الفراغ المظلم .

وأصدرت عجلات العربة فرقعة وهى تعبر إحدى الفلنكات الخشبية المزحزحة عن موضعها . واستدارت الفتاة برأسها نحونا .. وعلت شفتيها ابتسامة رقيقة حلوة .. بدت كإشراقة غريبة وسط الظلمة والوحشة .. وأنفاس الحرب التى تتردد حولنا .

بعثت الابتسامة العريضة الحلوة .. فى نفسى إحساسا بالطمأنينة .. والارتياح .. عقب ساعات طويلة من الإجهاد والتوتر ..

وبعد دقائق .. سمعت صوت موسيقى يتردد لم أعرف من أين .. ولكن صداها كان يصل إلى الآذن ناعما رقيقا .. ليست بها تلك

الرتابة التى تتميز بها موسيقى الشرق الأقصى .. ولكن بها نغمة تجعل أذننا تألفها وتأنس إليها .

وأحسست من الابتسامة الحلوة والنغمة الرقيقة .. يبدا تربتنى فى رفق وحنان .. وتشيع فى نفسى الألفة والمودة والسكينة .

وعبرنا النهر الأحمر العريض .. فى فترة خلتها دهرا .. لبطء السير وطول المعبر ..

ووصلنا إلى الشاطئ الآخر .. لتبدو المدينة أمامنا .. واضحة المعالم تضئ المصابيح طرقها وميادينها وتبدو الأنوار فى نوافذها .. وتتعالى الموسيقى فى أرجائها .

واستقررت فى الفندق سواد الليل .

وكان موعدنا للقاء فى الصباح المبكر .. فى السادسة .

ولم أشك فى أن اللقاء المبكر قد حتمه نوع من الزيارات يحتاج إلى التبكير .. كالرحيل خارج هانوى .

ولكنى عرفت ببساطة أنهم يبدأون عملهم فى السادسة حتى العاشرة صباحا .. ثم يستريحون إلى الثانية ظهرا ثم يواصلون العمل حتى السادسة .

ورأيت الموظفين فى الدواوين (فى وزارة الداخلية التى تقع أمام الفندق) يقفون فى الشرفات حوالى الثامنة صباحا ليقوموا بتمرينات رياضية للذراعين والوسط والساقين . ثم يعودوا إلى مكاتبهم ليواصلوا العمل .

ورحت خلال الأيام التى قضيتها فى المدينة الباسلة .. أرى كل ما يمكن رؤيته وأستمع إلى كل ما يمكن الاستماع إليه .

ولا أنكر أنى رأيت أشياء مفيدة عن المعركة الباهرة التى خاضها الشعب الفيتنامى خلال الزيارات التى وضعت فى برنامج زيارتى

واستمعت إلى معلومات قيمة من المسئولين الذين لقيتهم بداية من نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية ووزير الصحة الذى يعمل كرئيس لجنة تحقيق جرائم الحرب الأمريكية فى العدوان على فيتنام . ورئيس مكتب جبهة التحرير الفيتنامية والمسئولين العسكريين ..

ولقد بدأت ثورة الفيتناميين منذ عام ١٩٤٥ عندما قام الشعب الفيتنامى كله بثورة أغسطس وانتزع السلطة من قوات الاحتلال اليابانى ، وعندما عاد الفرنسيون لغزو فيتنام مرة أخرى استمر الفيتناميون يخوضون الحرب الوطنية ضد الاحتلال الفرنسى لمدة عشرة أعوام انتهت بانتصارهم فى معركة دين بيان فو .

وفى مؤتمر جنيف عم ١٩٥٤ تم الاعتراف بفيتنام المستقلة . وكان المفروض أن تعقد الاتفاقية وتتم وحدة فيتنام ولكن أمريكا أصرت على استمرار تجزئة فيتنام لجعل فيتنام الجنوبية قاعدة عسكرية للسيطرة على جنوبى شرقى آسيا .

وعندما فشلت أمريكا فى أسلوب « الحرب الخاصة » بدأت مرحلة « الحرب المحلية » مستخدمة أكثر من نصف مليون جندى أمريكى ونصف مليون جندى من جيش حكومة فيتنام العميلة .وفى نفس الوقت شنوا حرب إبادة شاملة على الشمال متتبعين فى الأعوام الأخيرة تصعيد الحرب .

وقد توالت انتصارات جبهة التحرير منذ ١٩٦٠ بعد أن حرروا مناطق ريفية واسعة وهزموا الحرب الخاصة . وسحقوا هجومين مضادين فى فصل الجفاف وأصبحت الأقاليم المتحررة تمتد اليوم لتشمل معظم أراضى فيتنام الجنوبية .

كما تحولت حرب الغابات إلى الهجوم على المدن التى ترابط فيها القوات الأمريكية مع القوات العميلة . استفادت جبهة التحرير من

هجومها الأول على سايجون حتى لا تكرر بعض المشاكل الناتجة عن مثل هذا الهجوم كمشاكل تموين الأهالى ووقايتهم من التدمير الذى تنزله القوات الأمريكية بمدنهم .

ومن غير ما شك أن الهجوم الثالث فى فصل الجفاف لن يتم فقد بدأت القوات الأمريكية تتخذ موقف الدفاع وأصبحت المبادرة فى يد قوات جبهة التحرير .. بحيث بات انتصارها على قوات العدو وشيكا مؤكدا .

وفى الشمال خاض الشعب معركة باسلة ضد حرب الإبادة الشاملة وساندوا حركة التحرر الوطنى فى الجنوب واستطاعوا أن يكونوا مؤخرة صلبة بالنسبة للجبهة الشعبية فى الجنوب .. ووقفوا صامدين رغم كل الدمار الذى أنزلت به القنابل الأمريكية . ولم تكن عملية وقف الغارات على هانوى إلا وسيلة لتركيز الضرب على مناطق الحشد جنوب خط ١٧ بعد أن حققت الغارات الأمريكية غرضها فى ضرب الأهداف الاستراتيجية فى هانوى .

ذلك هو ما أعرفه عن المعركة الباسلة لشعب فيتنام .

أما الشىء الذى لم أكن أعرفه ..

الشىء الذى رسب فى أعماقى .. فهو ما أبصرته خارج الزيارات .. هو الشعب الفيتنامى نفسه .

لقد أدركت أن رحلة المطار قد خدعتنى .. فى كل ما أشاعته فى نفسى بالظلمة والصمت والملل والتوتر .. وأكدت ما سبق أن رسب فى نفسى من إحساسى بأنى قادم من مدينة حرب وضرب .. وإلى أرض أشاعت طائرات العدوان فيها الخراب والدمار ..

خدعتنى رحلة المطار فى هانوى ..

ولم تنم عن حقيقة المدينة فى أول اقتراب لى منها فى رحلة الليل .. سوى بسمة الفتاة تتلفت إلينا برأسها وهى تقوم بالحراسة ..

وترنيمة الموسيقى تنطلق فى النهر الأحمر .. لتغلب صوت الهدير ..

ذلك هو الوجه الحقيقى لفيتنام .. وجه طلق تعلو ثغره البسمة وتنطلق من شفتيه الأغنية ليغلب صوتها دوى القنابل .

انطلقت فى شوارع هانوى فى الصباح المبكر .. آلاف الدراجات تتسابق براكبيها فى الطرقات التى تشابكت فيها فروع الأشجار .. وعلى الأرض حفرت المخابئ الأسطوانية الصغيرة بأغطيتها المستديرة تستقر بجوارها .. والحوانيت يقبل الناس عليها وسلال الخضار والفاكهة مرصوصة على الأرصفة .

وأبواب دور السينما تعلق فوقها الملصقات ويتزاحم حولها الناس .. والمرح على الوجوه .. والابتسام على الثغور .. والتحيات للغريب بلا خوف ولا تشكك .. وكأنهم شعب بلا أعداء ..

وخرجنا من المدينة إلى المزارع ..

ووقف الأطفال يتطلعون إلينا فى نظراتهم مزيج من الدهشة والترحيب .. وأحسست أن علىّ أن أبادل الناس شيئا غير النظرات والابتسامة .. وكان علىّ أن أتعلم كلمتين بدا لى أنهما أقصر ما يمكن أن أستعمله فى لقاءاتى الخاطفة مع الناس وهما « أهلا ، وشكرا » (تشاو) و (كامون) .

وقلت للصبية والفتيات الذين ينظرون إلينا باسمين (تشاو) وتحولت الابتسامة على شفاه الصبية إلى قهقهة والابتسامة على ثغور الفتيات إلى (سخسخة) وهبطنا إلى المزارع وخضنا طريقنا فى الأرض اللزجة من الأمطار .. ورأينا المحرات يحرث الماء .. ماء المطر يغطى الأحواض فيجعلها بركا تغوص فيها السيقان إلى الركب وتخوض الدابة التى تجر المحراث حتى بطنها .. ويقلب سن المحراث باطن الأرض ليعوم وسط الماء .

وعلى الطريق صادفنا الفتيات يحملن السلال المزدوجة على أكتافهن ويحملن نصيب الأُسَر من اللحم .. ورأينا الصبية فى المدارس ..

وتجربة المزرعة التعاونية فى فيتنام تستحق الدراسة .. فهى تقيم المجتمع على أساس القرية .. وتنظم القرية تنظيما يضمن سلامة المجتمع من القاعدة ..

والمزرعة تضم قرابة ألف أسرة أى بمعدل خمسة آلاف شخص تمنح كل أسرة مساحة من الأرض كملكية خاصة لها تزرعها ما تشاء كما تشاء وتتصرف فى نتاجها بالبيع الحر أو بالاستعمال الشخصى حسبما تشاء وعلى كل فرد أن يقوم بعمله فى الأرض التى تملكها المزرعة لمدة ٢٦٠ يوما على أن يبقى له مائة يوم للعمل الخاص .. ولا يحدد عمله فى اليوم بعدد من الساعات بل بقدر من العمل .. على أن يحدد أجره حسب قدرته فى العمل وإنتاجه منه .. مع ضمان قدر من الغذاء الضرورى لكل فرد مهما كانت ظروفه .. وبذلك يضمن لكل فرد الحد الأدنى من سبل المعيشة مع فتح الباب لزيادة الأجر حسب الكفاءة فى العمل .

وتقوم المزرعة التى يتولى أمرها مجلس منتخب بالتصرف فى نتاج المزرعة بالبيع .. بعد الاحتفاظ بما تحتاج إليه المزرعة من المحاصيل .. وشراء كل ما تحتاج إليه المزرعة من أدوات زراعية والصرف على ما تريده المزرعة من خدمات .. وكان آخر ما قرر مجلس المزرعة عمله هو إقامة مصنع للطوب لتشييد بيوت المزرعة ..

وتضم المزرعه مدارس للمرحلة الابتدائية والثانوية تقوم هى على الإشراف عليها على أن تتولى وزارة التربية والتعليم دفع أجر مدرسى المرحلة الثانوية .. ويذهب بعض خريجى المدارس الثانوية لتكملة التعليم فى الجامعة .. ويبقى البعض لاستكمال التعليم الفنى فى مراكز التدريب الفنى بالمزرعة أو يواصل العمل فى المزرعة .

وليس هناك مشكلة التزاحم على الجامعـة .. لسبب بسيط قالـه لى المسئول السياسى فى المزرعة هوأنه ليس هناك ميزة لخريج الجامعـة علـى زميلـه الـذى بقـى فـى المـزارع .. لا مـن الناحيـة المعنويـة أو الماديـة .. وبالتالى ليس هناك مشكلة عمل لخريجى الجامعة لأن أى خريج يسـتطيع ببساطة أن يعود ليعمل فى المزرعة دون أن يشعر أنه فقد شيئا أو تنازل عن ميزة .

ومن غير ما شك فإن تلك هى عقدة التعليم عندنا .. وهو أنه ليـس مجرد وسيلة للعلم .. أو حتى وسيلة للارتزاق .. بل هو نقلـة مـن طبقـة إلى طبقة .

فابن الفلاح أو العامل الذى يقفز فى التعليم مـن مرحلـة إلى مرحلـة حتى يدخل الجامعة ويتخرج فيها .. ينتقـل بشـهادته الجامعيـة إلى طبقـة تختلف اختلافا كليا فى مجتمعنا عن طبقة أبيه .. بحيث يصعب أن يندمج مرة ثانية فى أصله .

ورغم أن أجر العامل قد ارتفع فى كثير من الأحيان عن أجر خريجى الجامعة .. بحيث لم تعد هناك ميزة مادية لخريـج الجامعـة إلا أن الفـارق المعنوى الناتج عن فارق مستوى الثقافـة (رغـم أنـه فـارق موهـوم فـى كثير من الأحيان) جعل فارق المستويين ما زال موجودا .

والوسيلة التى لا بديل لها لفك هذه العقدة .. هى ـــ بعـد التقريـب بين أجور العاملين فى شتى الميادين ـــ أن نفتـح أبـواب الثقافـة والعلـم للجميع ..

بحيث يحصل عليه ليزداد قدرا من الثقافة أو لتزداد كفاءته فـى عملـه دون الربط بين الشهادة والأجر .. بل يربط بين الكفاءة والأجر ..

وفى المزرعة التعاونية فى فيتنام لا تضيع الفرصة أمام التحاق مواطـن بالجامعة بانتهاء مرحلة معينة .. بل هو يسـتطيع بعـد عملـه فـترة مهمـا

طالت فى المزرعة أن يواصل الدراسة .. مما ينفى معنى الشهادة الجامعية كصك للتوظيف ويجعل القدرة والكفاءة فى العمل هما العنصر الحقيقى الفعال المؤهل للعمل .

وهكذا تتخذ المزرعة أو القرية مكانها كنواة للمجتمع وتقوم اللامركزية فى التنفيذ بدور فعال فى تشييد قاعدة متينة للمجتمع .

ولا شك أننا نستطيع أن نستفيد من تجربة المزرعة التعاونية إلى حد كبير ولا سيما فى اتخاذ القرية كقاعدة للعمل وفى النزول بلا مركزية الحكم المحلى إلى مستوى القرية .

وانتهينا من شرب الشاى المعطر بلا سكر على مائدة مجلس المزرعة .. والأطفال يقفون بنوافذها وأبوابها يتطلعون إلينا كما يتطلع الأطفال فى كل قرية إلى كل زائر ويعدون وراءنا فى زفة كما يفعل أطفال كل قرية ويضحكون كلما قلت لهم (تشاو) .

وأقبلت الفتاة بابتسامتها العريضة تصب مزيدا من الشاى .. ومد أحد مضيفينا يده بطبق الموز يعزم علينا فى إلحاح أن آخذ واحدا .. وأكلت الموز وشربت الشاى بلا سكر .

وخرجنا إلى الطريق اللزج ومزارع الأرز تحيط بنا وأشجار الموز تتكاثف حولنا ..

وقال محدثى وهو يشير إلى الأرض من حولنا ..

ـ زاد إنتاجنا خلال المعركة .. وبهذا نستطيع أن نواصل القتال .

وفى الطريق صادفنا جنازة .. الميت محمول على عربة .. والمشيعون يرتدون الملابس البيضاء ويسيرون فى صمت وهدوء ..

وعبرنا الجنازة .. عائدين إلى المدينة لنرى مزيدا من الشعب الباسم المكافح .

كوبرى إسنا .. فى هانوى



كل شىء فى حياة الشعب الفيتنامى يسير سيرا طبيعيا ..

يعيشون حياتهم المرحة الضاحكة .. وعندما تبدأ المعركة يثبون إلى مدافعهم فى خفة ويخوضونها بشجاعة .. ثم ينفضون يدهم منها بسرعة وتعود الابتسامة إلى وجوههم والأغنية إلى شفاههم .

فى هذا الطريق مبان دكتها القنابل .. ومن حولها العمال يعيدون تشييد الجدران .. الفتيات يضحكن .. والرجال ينشدون الأغانى ..

وسألت عن أغانيهم .. هل هى أغانى حرب ؟

وقال محدثى :

ـ ليست كلها .. إن بها أغانى حرب .. وأغانى حب .. ولكن حتى أغانى الحرب تحس فيها بالرقة والرومانسية .

ورأينا الفتيان والفتيات فى الحدائق يذهبون إليها على الدرجات ..

هو يسوق الدراجة .. هى تجلس فى المقعد الخلفى تحيطه بذراعيها ..
وعلى المقاعد بين الخمائل .. بشاطئ البحيرة .. يتناجى العشاق ..
وتضرب صفارة الإنذار .. ويهبط العاشقان إلى أقرب مخبأ أو تحت المقعد .. وتتطاير القنابل .. ويصم الدوى الآذان .. وتنتهى الغارة ..
ويخرج السليم منهم ـ ليواصل المناجاة ـ بين الزهور على شاطئ البحيرة ..
وأغانى الحب .. رقيقة .. حلوة .. أشبه بمال الهوى يامة .. أو ماشى على كوبرى إسنا .. خبطنا الهوى نعسنا .. أغنية تقول :

خرجت الحلوة تعبر النهر ..
سارت على الكوبرى إلى الخمائل والزهور .
التقت بحبيبها ..
غرد طير .. واهتزت زهرة .. ورق النسيم من همسات الحب بين العاشقين ..
وافترقا ..
وأهدت الصبية قميصها للحبيب .
وعادت تعبر النهر فوق الكوبرى .
وأقبلت على بيتها نشوى .
سألتها أمها : عدت بلا قميص يا بنيتى .. أين القميص ؟.
وأجابت الصبية نشوى :
القميص !!
سرت على الكوبرى ..
فأطاره الهوى ..
يا أماه ..
وهم يغنون للطائرات التى تقع :

رفع المدفع فوهته ..

أسقط الطائرة .. واحد .. اثنين .. ثلاثة .

ولقد عدوا حتى الآن ثلاثة آلاف .

وفى أحد مواقع أولئك الذين طبيعة عملهم إسقاط الطائرات الأمريكية ..

وقفت أمام قادة تروب المدافع المضادة للطائرات وتقدم منى رجل وحيانى تحية عسكرية .

وعدت أسترجع عسكريتى .

ووقفت انتباه .. ورفعت يدى بالتحية العسكرية .

ونظرت إلى الضابط وابتسمت .

وابتسم الجميع .

قلت « شاو » .

فضحكوا .. وصفقوا بأيديهم .

وذهبت إلى أحد المواقع ..

أشجار الموز تحيط بالموقع وبجميع المواقع .. والمكان كله يبدو فى اخضراره وزهوره كأنه قطعة من الجنة .. يصعب على المرء أن يصدق أنها يمكن فى ساعة ما أن تتحول إلى قطعة من الجحيم ..

وبجوار المدفع عشة فراخ .. وحظيرة مواشى ..

وبدأ الطابور .. تعالت الصيحات .. وانتقلت الذخيرة من يد إلى يد ودار المدفع على قاعدته بالكهرباء .

ثم بدأ الضرب جماعيا من كل المواقع .. بأوامر قائد التروب .. وكانت نماذج الطائرات الهيكلية تتحرك على حبال تجرها بكرة مشدودة إلى أعمدة .

وانتهى الطابور .

وأقبل عليّ قائد الموقع يمد يده بقطعة عريضة من الألمونيوم .. قائلا لى :

ـ هذه هديتنا لك .. قطعة من إحدى الطائرات التى أسقطناها ..

ثم كتب عليها الإهداء ..

ومددت يدى آخذ قطعة الألمونيوم وقبل أن أغادر الموقع .. تقدم قائده إلىّ يسأل فى حياء :

ـ هل نستطيع أن نسمعك قطعة من الموسيقى ؟

ـ طبعا ..

من حفرة الموقع أبصرت أحد الجنود يتناول أكورديون ثم أخذ يعزف به .. والطقم ينشد معه مرحا سعيدا .

وانتهى العزف .

وهممت بالهبوط من ربوة الموقع ..

عندما عاد يسألنى بنفس الحياء :

ـ لدينا فلاوت وطبلة .. هل تحب أن تسمع ؟.

وفى غمضة عين انقلبت حفرة الموقع إلى أوركسترا كاملة .. أحدهم بالفلاوت والآخر بالطبلة والثالث بالصاجات الخشبية ، والرابع بالأكورديون .. وهات يا عزف ..

وقال لى محدثى :

ـ ألم أقل لك .. صوت الغناء يجب أن يعلو دائما على صوت القذائف .

واتجهنا إلى مقر القيادة .. وهو يقول :

ـ زرع الجنود فى هذه المنطقة عشرة آلاف شجرة موز .. لتظلهم .. وتخبئ موقعهم من الطائرات .. وليأكلوا ثمارها.

وصمت .. فأردفت أتساءل ضاحكا :

ـ ويطعمون ضيوفهم ؟

وتناولت أصبع موز ومعه فنجان الشاى وواصلت الإنصات .

ـ وزرعوا مشتلا للزهور .. وأقاموا حظائر الماشية .

ورد قائد الموقع مؤكدا :

ـ نحن نكره الحرب .. ولكنه لا مفر لنا منها للدفاع عن أنفسنا .. إن كل ما نفعله اضطررنا إليه .

ولقد رأيت فى أحد الأفلام التسجيلية جنديا أمريكيا أسقطت طائرته عقب غارة على هانوى .. رأيته يرقد جريحا وقد أخذ صدره يعلو ويهبط وأنفاسه تتلاحق .. واندفع إليه الأهالى الفيتناميون ليضمدوا جرحه ويدفعوا إلى شفتيه بالماء ملعقة إثر أخرى :

وروى لى أحدهم عن طيار أمريكى حلق فوق إحدى القرى وأخذ فى ضربها بالقنابل حتى دمر معظم بيوتها وقتل الكثير من مواطنيها . وأخيرا أصابته طلقة مدفع وأسقطت طائرته .. وهوت الطائرة إلى الأرض وهبط هو بالمظلة .. وتجمع حوله الأهالى ، واندفعت إليه عجوز ثائرة تمسك بالسكين فى يدها .. لتجهز عليه .

وأسرعت إليه ورفعت السكين فى يدها .. والتقت عيناها بنظراته الجزعة المستسلمة . وأحست بأنه إنسان له أم تنتظره أو زوجة وأولاد يتلهفون على دخوله إلى البيت . وبدا لها أنه منفذ لجرائم أولئك الذين لا يعرفون ميدان القتال ولا يتعرضون للموت .

وألقت العجوز بالسكين من يدها وأدارت رأسها إلى من حولها هاتفة .

ـ أعطوه كوب ماء !

من نافذة الفندق أبصرت على الأسطح المجاورة طوابير التدريب للفتيات .. طوابير جادة شاقة .. تمحى خلالها الابتسامة من الشفاه ..

وتختفى حركات التثنى والدلال من مشيتهن . وتصبح حركاتهن وثبات عنيفة .

وعلمت أن ٢٥ من الطائرات المغيرة قد أسقطتها بنادق الفتيات ؟

وحضرت إحدى غارات الاستكشاف الأمريكية .

بدأت الغارة بطلقات المدافع تدوى فى الجو .. ثم أعقبتها زمارات الإنذار ..

وقال لى مرافقى :

ـ هيا إلى المخبأ .

وسرت وإياه وبعض الرفاق .. وزمارات الإنذار تتابع والطلقات تدوى .

سرت الهوينى .. وسألنى مرافقى بأدب جم :

ـ هيا نعدو يا سيدى ؟

ولم أعرف الصواب . هل يعدو هذا الشعب إلى المخبأ أم يسير .. ماذا يفعل هذا الشعب الذى يواجه الموت فى كل حين كما يواجه شروق الشمس وطلوع القمر .

وقلت له بنفس الأدب :

ـ إذا كنتم تعدون .. أستطيع أن أعدو .. وإذا كنتم تسيرون فسأسير معكم ..

وقال لى بمنتهى الأدب وهو ينطلق جاريا :

ـ نحن نعدو .. يا سيدى .

وانطلقت أعدو وراءه حتى دخلنا المخبأ .

ووجدنا المخبأ نظيفا متسعا أبيض السقف والجدران صفت المقاعد على جانبيه .. فى سقفه لمبة كهربائية .. وبعد لحظة وجدت أحد المواطنين يدخل بمروحة كهربائية ووضع الفيشة داخل البريزة وشغل المروحة .

والمدافع تدوى فى الخارج . ونحن نجلس فى هدوء داخل المخبأ

والمروحة ترطب الجو . وزميلى فى الرحلة .. الصديق ماكيوانى من مناضلى جنوب إفريقيا . يروح فى المخبأ ويغدو ثم يقف فجأة .. ويسير فيه بالعرض محركا قدما أمام قدم ثم ينحنى ويحرك يده مفتوحة فوق الجدران من أسفل إلى أعلى .

وهتفت به فى دهشة :

ــ ماكيوانى .. ماذا تفعل ؟

وبهدوء أجاب وهو يواصل حركاته :

ــ آخذ قياس المخبأ .

وصمت برهة ثم أردف :

ــ ذات يوم .. سنحتاج إلى مخابئ مماثلة فى بلادنا ..

واستقر على مقعد بجوارى وهو يقول :

ــ لقينى أحد المستوطنين البيض فى أحد بلاد أوربا .. وسألنى أن أحتسى معه كأسا .. وقال لى إنه عرف أنى من جنوب إفريقيا .. وسألنى ماذا نريد . فأجبته نريد حقنا فى بلادنا .. فقال ليس قبل أن تقتلوا الثلاثة ملايين البيض فى جنوب إفريقيا .. وأجبته ببساطة : سنفعل .. إذا كانت تلك هى الوسيلة الوحيدة .

ولجنوب إفريقيا .. حكاية أخرى ..

فلنعد إلى المخبأ فى فيتنام .

نظرت إلى المروحة تدور فى المخبأ لترطب الجو وأحسست أنها نوع من الرفاهية لا لزوم له ..

قلت لمرافقى ..

ــ لماذا المروحة !

ورد على بأدبه الجم :

ــ لترطب الجو .

ـ ولكنها فترة .. يمكن أن تحتمل على أى وضع ..

ـ ولماذا لا نجعلها .. محتملة بخير الأوضاع ..

وبابتسامته الرقيقة أردف قائلا :

ـ لقد أضحت هذه الفترة جزءا من حياتنا .. فلكى تصبح محتملة .. ولكى نستطيع الصبر عليها يجب أن نحولها إلى جزء طبيعى من حياتنا .

وبتلك الفلسفة استطاع الفيتناميون أن يصمدوا فى المعركة . نستطيع أن نجعل الإنسان يحتمل المشقة لبعض الوقت . ولكن لكى نجعله يحتملها كل الوقت يجب أن نحولها إلى جزء من حياته الطبيعية .

وهكذا حول الشعب الفيتنامى مشقة الحرب التى يخوضها إلى حياة طبيعية بكل ما يملك من جهد ..

إن الحرب ستطول .. والغالب فيها هو الأكثر صبرا .. ولكى يستطيع الفيتناميون الصبر .. يجب أن تتحول إجراءات الحرب .. إلى جزء طبيعى من حياتهم ..

يجب ألا يحرموا من أى مظهر من مظاهر الحياة التى تعودوا أن يحيوها .. بقدر ما نستطيع إمكانياتهم ..

الابتسامة على الوجوه .. والأغنية على الشفاه .. والحب بين الخمائل .. والزهور تفترش الحدائق .. والجدران التى هدمتها القنابل .. تشيد بقدر ما يستطيعون من جهد وقدرة ..

والمخابئ على أجناب الطريق .. والمدافع تفترش الروابى .. والطوابير على أسطح الدور .. والمحاريث تقلب الأرض .. والبذور تلقى فى الحقول فتخضر الحقول وتتمايل العيدان بالسنابل ..

وحيث تستحيل الحياة فوق الأرض ..

بعد أن ينشر الدمار أجنحته .. وينشب مخالبه ..

تحفر الجحور ..

وتنتقل الحياة بكل معالمها إلى باطن الأرض ..

وعلى الأرض الدمار والقبور ..

وفى باطنها الحياة .. الضحكات والبسمات ..

يهبط الإنسان إلى الجحور .. ليمارس حياته ..

الأولاد فى الفصول ..

والنساء يطهين الطعام في القدور ..

وفى الجحور .. حجرات للضيافة .. ومكتبات للقراءة ..

ولا تعود الجحور .. أماكن انتظار .. أو مخابئ للأمان .. ولكنها تصبح دورا أخرى فى باطن الأرض .. يمارس فيها الناس حياتهم .. بكل ما تعودوه فيها .. بغير قلق .. ولا ضيق .. ولا ملل ..

ليضرب العدو الأرض بطائراته كما يشاء ..

فلم يعد عليها إلا فوهات مدافع تتلهف على لقائه .. لتجذبه صريعا إلى الأرض ..

ولتطل المعركة .. كما شاء ..

فالناس فى الجحور صامدون ..

وعيون المدافع لا تنام ..

والقذائف فى جوفها .. تتوق إلى التحرر لتنطلق إلى السماء .

تلك هى معركة فيتنام .

معركة عجيبة ..

بين الإنسان على الأرض .. يدفع عنها الأذى .. والعدوان فى السماء يصب منها الحمم .

معركة بين الإنسان .. والطائرة ..

معركة طويلة مريرة .. تحتاج إلى صبر طويل مرير ..

ولقد ملك الفيتناميون القدرة عليه ..

بالابتسامة على الشفاه والأغنية تنطلق من الحناجر ليعلو صوتها على صوت القنابل .

والشعب الفيتنامى .. حريص دائما .. على أن يؤكد أصالته عبر التاريخ .

أذكر فى لقاء لنا فى بنوم بن على مائدة القائم بالأعمال المصرى فى كمبوديا الصديق شكرى فؤاد ، أن حدثت مناقشة بين رئيس لجنة الرقابة الدولية الهندى وبين سفير فيتنام الشمالية فى كمبوديا .

بدأت المناقشة حول العلاقات الهندية الفيتنامية وضرورة توثيقها وإزالة كل ما يمكن أن يكون قد اعتراها من شوائب.

وعتب الرجل الهندى على السفير الفيتنامى أن فيتنام لم تتخذ موقفا محايدا فى معركة الهند والصين .

وابتسم السفير الفيتنامى فى أدب وقال :

ـ نحن لا نحب أن ننظر إلى الماضى .

وأردف الهندى قائلا :

ـ لقد كان بيان الحكومة الفيتنامية هو نفس وجهة النظر الصينية .

ورأيت وجه الرجل يتجهم ورد فى حدة :

ـ فيتنام هى فيتنام .. والصين هى الصين ..

وأجاب الهندى :

ـ لا أقصد أن فيتنام تخضع لتأثير الصين .. وإنما قلت إن البيان جاء معبرا عن وجهة نظر الصين .

ورد الفيتنامى فى حزم :

ـ إنه يعبر عن وجهة نظر فيتنام .

ـ لكنه بالضبط وجهة نظر الصين .

وعاد الفيتنامى يقول فى غضب لم يستطع أن يكبحه :

– ما نقول فى بياناتنا .. إنما يعبر عن وجهة نظرنا نحن .. وقلت لك .. إن فيتنام هى فيتنام .. والصين هى الصين .

وفى هانوى .. وجدت كل شىء .. حريصا على أن يؤكد أن فيتنام هى فيتنام وأن ألف سنة من استعمار الإقطاع الصينى .. لم تستطع أن تمحو الشخصية الفيتنامية ..

فى كل متاحفهم ومعارضهم .. كان كل شىء يشير إلى استقلال الشخصية الفيتنامية .. على مدى التاريخ ..

وكان خير ما قدم به نفسه القائم بالأعمال المصرى الجديد .. الصديق زكريا طاهر .. هو دراسة كاملة لتاريخهم .. ومعاركهم ضد الاستعمار ..

إن الشعب الفيتنامى .. هوالشعب الفيتنامى .

وهو حريص على وجوده واستقلاله وحريته .

حريص على أن يردد دائما كلمة زعيمه وقائده هو شى منه :

« لا شىء فى الحياة .. يعادل الحرية والاستقلال » .

حريص على أن يجعل مقوماته فى الحياة ، الدفاع عن الوطن .. وزيادة الإنتاج .

ومن العجب أن تواصل الولايات المتحدة غاراتها المدمرة على هذا الشعب ..محاولة أن تنشر الخراب والدمار فى ربوعه .

ومن العجب أن تتهم الفيتنامى فى الشمال بأنه يشكل عدوانا على الفيتنامى فى الجنوب .. فى الوقت الذى يعتبر عدوان الولايات المتحدة على الأرض الفيتنامية .. دفاعا عنها ضد النفوذ الشيوعى ..

إن فيتنام كانت وما زالت وستبقى أرضا واحدة وبلدا واحدا .

والشعب الفيتنامى أحرص على استقلاله .. وعلى حريته ضد أى غاصب .

لأنه كان دائما .. حريصا على هذا المصير .. حريصا على حريته .. حريصا على تأكيد شخصيته الفيتنامية عبر التاريخ والتخلص من كل نفوذ أجنبى أيا كان .. حريصا على أن يؤكد ما قاله السفير الفيتنامى فى كمبوديا .. بأن فيتنام هى فيتنام .

ومن البلد الذى صمد طوال هذه السنوات فى معركته المريرة ضد الاستعمار .. حتى قارب على الانتصار نستطيع أن نستفيد الكثير من الدروس .

وأولها .. الصبر .. الطويل ..

وأن نروض أنفسنا على حياة حرب طبيعية .. لانملها .. ولا نقلق من الصبر عليها .. وألا يمنعنا خوضها .. من ممارسة حياتنا الطبيعية بكل ما نملك من قدرة .. وأن نخوض بجوارها معركة إنتاج .. بغيرها لا نستطيع أن نواصل معركة القتال ..

وأن تعلو الابتسامة وجوهنا .. وتنطلق الأغنية من شفاهنا .. لنواصل بهما معركة مهما مرت وطالت .. فإننا قادرون عليها .. وعلى السير فيها حتى النصر .

لطيفا كوجهه .. نضرا كشبابه



رأيته أول مرة منذ بضعة أعوام ..

كانت الساعة قد بلغت العاشرة مساء وجلسة المؤتمر الآسيوى الإفريقى فى قاعة مجلس الشيوخ أوشكت على الانتهاء .. والإرهاق قد بلغ بى أشده .. وعينى ترقب عقارب الساعة والمطرقة فى يدى أحاول أن أضع بها حدا لتجاوز المتحدثين الدقائق العشر المخصصة لكل منهم .

وبدأت أحرك ساقى وأفرد ذراعى بعد خمس ساعات متواصلة من الجلوس لأتاكد أنهما ما زالتا تملكان القدرة على التحرك وأخذت أنصت إلى كلمات المتحدث الأخير فى شىء من الاسترخاء .. عندما اقترب منى أحد المشرفين على الاجتماع وهمس فى أذنى أن مندوب أوغندا قد وصل .

ولم تكن حالتى تسمح لى بالإحساس بالسعادة الواجبة نحو حضور مندوب أوغندة .. وهززت رأسى وقلت :

ـ حاضر .. دعوه ينزل فى الكونتننتال ..

ـ إنه يريد أن يلقى كلمة .

وهنا بدأت أعصابى تتوتر مرة ثانية .. لقد كنت أستطيع أن أحتمل أى شىء إلا أن أسمع مزيدا من الخطب وقلت لمحدثى وأنا أنظر إلى الساعة :

ـ لقد انتهى الوقت ..

ورد صاحبى هامسا :

ـ أنه أحد الزعماء السياسيين وقد بذل جهدا كبيرا من أجل الحضور وألقى عليه القبض فى الطريق ثم هرب ..

وأحسست من غير المعقول أن يفعل الرجل كل هذا ، ثم لا يتحدث إلى المؤتمر ..حتى ولو كان الوقت قد انتهى ، ونظرت إلى المقاعد التى بدأ أصحابها يستعدون لإخلائها ووجدت أن واجبى هو أن أبذل كل ما فى وسعى حتى استبقيهم للاستماع إلى كلمة مندوب أوغندة ..

وقلت لصاحبى :

ـ دعه يتفضل إلى المنصة .

وكان المتحدث قد انتهى .. وقبل أن يخلى المنصة أمسكت الميكروفون ورجوت المجتمعين الانتظار لأن مندوب أوغندة قد نجح فى الوصول إلى المؤتمر بعد أن تخطى ما وضعه الاستعمار أمامه من عقبات ..

ورأيت شابا صغيرا أسود لطيف الملامح يقبل على المنصة وقدمته إلى المؤتمر قائلا :

ـ جون كالى .. مندوب أوغندة

وحياه أعضاء المؤتمر بحرارة .

وبدأ حديثه .. بالإنجليزية .. وكانت الساعة قد جاوزت العاشرة بخمس دقائق .

واستمر يتحدث والمؤتمر ينصت إليه .. وكان المفروض أن أدق له بالمطرقة بعد عشر دقائق حتى ينهى حديثه .

ولكنى ظللت أصغى .. دون أن التفت إلى الساعة .. وعندما أنهى حديثه .. وضج المؤتمر بالتصفيق .. تذكرت أن الساعة فى يدى .. ونظرت إليها فإذا بها قد جاوزت الحادية عشرة !!

وضعت الساعة والمطرقة .. ، ومددت يدى أشد بها على يد الشاب الأسود الوسيم .. وقلت له :

ـ اهنئك على الخمسين دقيقة التى سرقتها منى دون أن أشعر ..

وانفرجت شفتاه عن ابتسامته اللطيفة التى تملأ الإنسان إحساسا بالثقة فيه ..

ومضت مدة دون أن أراه .. وسمعت أنه عجز عن العودة إلى بلده بعد أن حاكموه غيابيا .. ومرت بى الأيام .. وكدت أنساه .. حتى ضمت أوغندة إلى هيئة سكرتيرية التضامن فى القاهرة .. ووجدت نفسى أهتف بالأمنية التى جاشت فى نفسى .

ـ يا ليتهم يرسلون لنا .. جون كالى ..

وبعد أيام حقق الله لى الأمنية .. ووجدت الشاب الباسم اللطيف الذى يملأ النفس ثقة ومحبة .. يحضر إلى مكتبى ليقول لى إنه مندوب أوغندة فى السكرتيرية ..

وكان أكثر ما يخذلنى .. فى حركة التضامن .. أن أجد تيارا .. ما .. قد جذبها .. وطواها ليجعل منها .. مطية لقدوة معينة ..

وكنت أشعر أن واجبى الحقيقى هو أن أصون هذه الحركة .. لكى تبقى فى وضعها الأصيل .. وهو التضامن بين الشعوب الآسيوية الأفريقية من أجل تحقيق الحرية والمساواة والسلام .. فلا تنحرف عن واجبها أو تضل طريقها ..

وأثبتت لى التجارب التى خضناها .. أن جون كالى .. خير عون فى دفع حركة التضامن فى طريقها الحقيقى .

فقدكان على رقته وطيبته شديد الاعتزاز بنفسه وبوطنه وبإفريقيته وكان يعرف كيف يضع الناس فى أماكنهم ويعلمهم أن كرامة الشعوب لا تقاس بمقاييس مادية .

وذات يوم وصلت إلى سكرتيرية التضامن دعوة إلى موسكو لحضور محاكمة الجاسوس الأمريكى .

وسألنى عبد الرشيدوف مندوب الاتحاد السوفيتى فى السكرتيرية ، أن أذهب ، فاعتذرت بمشاغلى .. وعاد يلح .. وعدت أعتذر .. وسألت جون :

ـ لماذا لا تذهب يا جون ؟

ـ أنا أيضا لدى أعمال كثيرة .. لا بد أن أبقى للمعاونة فى إنشاء مكتب جنوب إفريقيا .

ـ ما زالت أمامك فرصة لإنشاء المكتب ثم الذهاب .. يجب أن يذهب واحد منا .

وفى اليوم التالى أقبل على قائلا :

ـ لقد قررت الذهاب .

وكانت قد وصلتنا دعوة من فيتنام للمشاركة فىعيد الاستقلال وكان المفروض أن يذهب خمسة منا .

وقلت لجون :

ـ ألديك مانع من أن تتجه من موسكو ، بعد المحاكمة إلى فيتنام ؟

وأجاب جون :

ـ أرجو إعفائى من هذا .. لابد أن أعود بسرعة .

وبعد بضعة أيام عاد إلى جون ليقول شاكيا :

ــ الجوازات عطلت تأشيرة الخروج .. وهذا إجراء غير سليم .. وأخشى أن يتكرر مع أحد السكرتيرين الأخرين فيحدث لنا أزمة ..

وأجبته :

ــ لا تخش شيئا سأستعجلهم فى الجوازات .. لابد أنها إجراءات روتينية ...

وأردف مرسى سعد الدين قائلا :

ــ أنت تعلم أننا فى موسم إجازات .. الموظفون قليلون واستعجلت إجراءات السفر .

وسافر جون إلى موسكو .. وسافرت إلى الإسكندرية ..

وبعد أيام دق جرس التليفون .. الساعة الثالثة بعد منتصف الليل وأنا أكره دائما دقات جرس التليفون التى توقظنى فى سكون الليل .. وسمعت صوت عاملة التليفون تقول لى :

ــ مصر عايزاك ..

ورد على صوت صلاح عبد المتجلى ليخبرنى فى كلمات قلائل أن جون كالى مات .. وسألته كالمذهول :

ــ كيف ؟

ــ احترقت به الطائرة !!

ووضعت السماعة .. وعدت فى الظلمة إلى الفراش .. وأنا أحس أنى عاجز عن التفكير ..

وأشرقت الشمس .. ونهضت لأقرأ خبر مصرعه فى الصحف .. ومرت بى الساعات وأنا جامد الحس .. أبحث ترتيبات جنازته الصامتة وحفل تأبينه .. دون أن يختلج فى وجهى عصب .. أو تذرف دمعة ..

وانطلقت أتحدث مع الناس وأفعل كل ما تعودت أن أفعله .. وأنا أحاول أن أنسى الحادث حتى أويت إلى الفراش فى آخر اليوم وأنا أشعر بثقل صدرى يكتم أنفاسى .

وعاد جون إلى ذاكرتى .. يلح على ببسمته اللطيفة .. وهو يضمنى إليه قبل أن يسافر .. وذكرت رحلاتنا معا .. وذكرت أوقاتنا العصيبة فى كوناكرى وفى تونس وفى القاهرة .. وصراعنا جنبا إلى جنب من أجل ما آمنا به وذكرت قولى له .. متى ينتهى هذا الكفاح وتستقل بلادك وتصبح وزيرا لخارجيتها حتى آتى إليك لنستمتع بأوقاتنا ؟

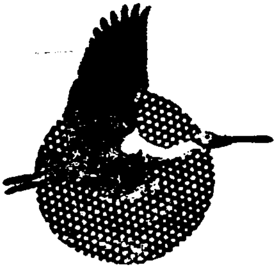
وتذكرت قوله ضاحكا : « سأجعلك ترى منابع نيلكم العظيم فى بلدنا » .

وأحسست بالشىء الذى يثقل صدرى يذوب .. ويتصاعد إلى مقلتى ليهبط منها دموعا ساخنة .

فى يوم ما عندما يستقل شعب جون كالى .. سأزور أوغنده .. لأرى فيها جون .

سيكرمه شعبه الذى كافح من أجله وسيعمل له ضريحا مورقا أخضر ..لطيفا كوجهه .. نضرا .. كشبابه .

فى بنوم بن .. على المحرق



خلال أيام سألتقى بالأمير سيهانوك مع وفد آسيوى إفريقى لتقديم دعم التضامن لشعب كمبوديا بقيادة سيهانوك فى معركته ضد الاستعمار وعملائه ..

وكفاح الشعب الكمبودى يتميز عن معارك الشعوب الأخرى .. بأن الذى يقوده أمير وصاحب سمو وسليل أسرة مالكة ..

ولقد قضيت ـ خلال حكم سيهانوك ـ أسبوعا فى انتظار طائرة الأمم المتحدة التى ستحملنا إلى فيتنام الشمالية ..

وأحسست وأنا هناك .. أن الأمير .. زعيم شعبى .. وأنه لا يمثل قوة حاكمة رجعية .. وإنما يمثل قوة تقدمية يقود بلده فى طريق التحرر القومى والبناء الاجتماعى .

والأمير سيهانوك مخرج سينمائى .. ومؤلف موسيقى ... وابنته

الجميلة راقصة باليه ممتازة .. ولعلها كانت بطبيعتها الفنانه .. ومشاعرها المرهفة من أسباب متاعب الأمير الحاكم ..

فقد كانت الأميرة الجميلة المرهفة ـ إلى جانب هوايتها للرقص ـ من هواة الحب .. وكانت قصص حبها .. شهيرة ومعروفة .. وكان على الأمير .. عندما تندفع الأميرة الحلوة فى قصة حب جديدة .. أن يعالج خسائر قصة الحب القديمة ..وأن يتولى أمر الحبيب السابق .. ويأخذ بيده .. ويضمد جراحه ..

والأمير فنان أصيل .. ولعل العالم لم ينس الفيلم الذى أخرجه فى القصر الملكى .. وقامت الأسرة الملكية بالأدوار الرئيسية فيه ..

ولقد قاوم سيهانوك بشدة كل محاولة لفرض النفوذ الخارجى على بلده .. وأغضب الولايات المتحدة أمريكية .. عندما أصر على ألا يجعل بلده منطقة نفوذ أمريكية فى هذه المنطقة المليئة بالصراع .. وأن يقف إلى جانب المناضلين الفيتناميين فى كفاحهم ضد العدوان الأمريكى .

ولأول مرة يطيح انقلاب رجعى بأمير حاكم .. ليلقيه خارج بلده قائدا لكفاح شعبه .. ضد النفوذ الاستعمارى وعملائه .

وبنوم بن البلد الذى نسمع بين آونة وأخرى .. بهجوم الثوار على قوات الرجعية فيه بلد قائم على عمدان .. فالدور معلقة على المياه والأعشاب . والجو فيه رطب حار .. ووسيلة المواصلات الشعبية هى العربة الصغيرة المحملة على الدراجة ذات العجلات الثلاث . ولعلها بديل للعربة التى كان يجرها رجل يعدو بها فى الطريق .

وعلى شاطئ النهر العريض تتناثر الأفران التى يشوى عليها الطعام الشعبى ويخرج الكمبوديون فى العطلات للنزهة على الشاطئ ولتناول هذا الطعام .. شىء أشبه بالسمك الذى يشوى على شاطئ دجلة فى بغداد أو الذرة على شاطئ النيل فى القاهرة .

ومن المعالم التى يقصدها الزائر فى بنوم بن .. المقابر .. ولعل حفاوة الإنسان بمضجعه الأخير فى كل الأجيال والأوطان .. تجعل من المقابر دائما .. متحفا يقصده الزوار .. فالأهرامات والمعابد الفرعونية .. بما ضمت من الأجساد والتحف هى أخلد آثار الفراعنة وأشدها جاذبية ..

وفى جنوا .. عندما توقفت الباخرة بى بضع ساعات .. قال لى طبيب المركب « إياك أن تفوتك زيارة مقابر جنوا » ولم آبه للرجل ، فلم يخطر لى ببال وأنا أهبط إلى جنوا بضع ساعات أن أقضيها فى المقابر مهما كانت .

ولكنى عندما عدت إلى المركب بعد أن أنهيت جولتى فى المدينة .. أصر الرجل على اصطحابى إلى المقابر .. ولم أجدها عندما أخذت أجول بينها .. مقابر .. بل تحفا مبهجة .. ووجدت النقش على الرخام يصل إلى حد الشك فى أن تكون الجدران رخامية فعلا .. وليست دانتلا .

وبعد جولة على الشاطئ بين الشواء والأسر الكمبودية التى خرجت للنزهة .. لم يكن أمامى سوى أن أذهب إلى المقابر .ولم أجد هناك شيئا مثيرا سوى المحرق .. الذى تحرق فيه جثث الموتى .

ووقفت أستمع إلى شرح العملية ..

لم تكن وقفة مبهجة .. فقد كان مفزعا أن يستمع الإنسان إلى التفاصيل الدقيقة لعملية حرق جسد إنسان .. حتى ولو كان ميتا .. وشرد منى الذهن .. فى هذا الشيء المحير الذى يشكل أهم ما فى الكون .

جسد الإنسان ..

مهما قيل عن الروح .. وعن أشياء أخرى مبهمة مجهولة تشكل هذا الكون .. فلا جدال .. أن هذا الوعاء الإنسانى هو أخطر ما فى الكون .

هذا الخليط من العظم والأنسجة والسوائل بكل ما ينبع منه ويصدر عنه .. هو الذى يشكل الحياة .. على الأقل فى الكرة الأرضية .. وهو فى حد ذاته مشكلة الحياة .. بنسيجه المادى الهش .. باحتياجاته وتطلعاته وتركيبه الخلقى المعقد .. بالتناقض بين ما يطلبه لنفسه .. وما يسمح به للغير .. بحب البقاء .. ورغبة التدمير .. بالرقة والقسوة .. بالاستغناء والجشع .

هذا الخليط من العظم والأنسجة .. القوى الضعيف .. الذى يفنى عالما .. وتصرعه شكة إبرة ..

الخليط من العظم والأنسجة والدماء .. بكل ما به من غرور وخيلاء .. ومذلة وخوف .. سعيد بتركيبه .. حريص على بقائه .. وعلى سلامته .. تجزعه الإصابة .. ويخيفه المرض ... ويظل يرمم فى مجموعة العظام والأنسجة حتى تحل لحظة .. تفقد قيمتها .. تذهب عنها القوة المحركة .. فإذا هى مجرد كوم من عظم ولحم .. ويحتار فيما يفعله بها .. بعد أن فقدت قدرتها على أن تبت فى شىء أوتغير شيئا .. ولا تعود أكثر من مجرد شىء عاطل تالف .. يؤذى وجوده الغير .. بالعفن .. والنتانة والتحلل .. وتعود مشكلته هى كيفية الخلاص منه .. بالإخفاء فى التراب .. ليصبح نوعا من الطعام لكائنات أحقر .. ولكنها أكثر قدرة على التصرف .. لمجرد أنها على قيد الحياة .. كائنات لها حق الأكل والحركة .. كائنات ذات إرادة .. مجرد دودة .. أو حشرة .. ولكنها .. بقوانين الحياة .. أقيم من رمته وأقدر .. وأعظم ..

وسمعت محدثى يواصل الشرح .. ويصل إلى نهاية الحديث عن حرق الجسد الإنسانى بقوله :

ـ عندما يصل الحريق إلى نهايته .. يسمع صوت انفجار شديد .. فنعرف أن الرأس قد احترق والمخ قد انفجر ..

الرأس المغرور .. الذكي .. الخبيث .. الأحمق .. بكل ما يملك من صفات .. قد طقطق.. تحت حرقة النار .. ولم يبق منه .. من كل ما به من عظم وشعر .. ومخ .. وعروق .. ووسامة أو قبح .. ونضارة شباب أو تجاعيد شيخوخة .. سوى شيء يطقطق فى النار .. كحبة الذرة ..

الرأس المختال فوق كتفيه .. الشامخ بأنفه .. المعجب بذكائه .. الفرح بتفوقه .. المذل لغيره .. الواهم فى قدرته على الاستعباد والإذلال .. المتطلع إلى السلطة .. الطامع فى السيطرة .. انتهى إلى مجرد فقاعة تطقطق فى النار .. كقطرة ماء فى زيت مغلى ..

الرأس المفكر .. الذى ظن نسيجه .. أبقى على الزمن .. قد صار بعد غلوه .. إلى حفنة .. تراب .. أو هباب ..

وسرت وصاحبى .. الإفريقى .. والعراقى .. وقد بدا على كل منهما الشرود .. كل منهما يتصور .. رأسه يطقطق ..

وسألت ماكيوانى ضاحكا :

ـ ما رأيك .. الدفن .. أم الحرق ؟

ورد وهو يشوح بيده :

ـ كله زفت ..

ووصلنا إلى الفندق ..

كنا ننزل نحن الثلاثة فى أحد الأكواخ الملحقة بالفندق الكبير ، فقد كان علينا أن نقضى أسبوعا فى المدينة فى انتظار الطائرة إلى هانوى ، وأجر الحجرة فى الفندق وثمن وجبة الطعام غير معقول .. ولم يكن ما نملك من بدل السفر يسمح لنا بالفنجرة .. فاتفقنا على أن نهبط إلى أحد الأكواخ الذى يضم ثلاث حجرات وحماما ومطبخا بثلاجة .. بحيث نتشارك فى إيجار الكوخ وندبر أمر طعامنا بواسطة شراء أطعمة نضعها فى الثلاجة .

وخرجنا إلى السوق .. اشترينا جبنا وبيضا ومربى وسردينا ولحوما محفوظة .. وذهبنا إلى سوق الفاكهة فحملنا ما استطعنا من الفاكهة الكمبودية .. أشياء نعرفها وأشياء أخذناها على سبيل التجربة ..

وملأنا الثلاجة ..

وعندما حانت ساعة الغداء نظر إلىّ عبد الوهاب السلوم وسألنى :

ـ هيا يا أبو إسماعيل حا ناكل فى المطعم .

ونظر إليه ماكيوانى قائلا :

ـ اذهب لوحدك .. أنا لست على استعداد لأدفع ٣ استرلينى فى الغدوة .. سآكل من أطعمة السباعى .

ومددنا السماط .. وأكلنا حتى شبعنا .. وغسلنا الأطباق وحمدنا ربنا .

ولم يكن الطعام شيئا يشغل بال ماكيوانى بقدر ما كان يشغله الشراب .. وأعنى بالشراب .. الويسكى .. كانت الزجاجة التى حملها قاربت على الانتهاء ..

لم تحتمل منه سوى سهرة واحدة ثم فرغت .

وقل لى ببساطة :

ـ مستر سباعى ..

ـ نعم .

ـ أريد ويسكى .

ـ وأنا مالى .

ـ ألست مسئولا عن إطعامنا ؟

ـ عن إطعامك فقط .

ـ وانا لا أستطيع الطعام بدون شراب .

ـ لا تقلق .. سندعى على العشاء اليوم وعلى الغداء غدا .. ولا بد يكون هناك ويسكى .

ــ وإذا لم يوجد ؟

ــ نفكر ..

ولم يكن الوسكى يهمنى بقدر ما يهمنى اللبن فأنا أشرب فى الفطار كوبا أو كوبين من اللبن المثلج . وكانت مشكلة اللبن هى أن أدبر له زجاجة حتى أضعه فى الثلاجة .

وكانت زجاجة الوسكى قد فرغت . لم أجد خيرا منها لتثليج اللبن فأخذتها وغسلتها ووضعت فيها اللبن ثم وضعتها فى الثلاجة .

واستيقظت مبكرا قبل أن يصحو أحد من الزميلين . وأخرجت برطمان العسل والبسكويت والجبن وغمست البسكويت فى برطمان العسل وجلست أتناول إفطارى الطبيعى .. ثم تناولت الزجاجة آخذ منها جرعة لبن ..

ووجدت ماكيوانى يقف أمامى مشدوها وهو يشير إلى :

ــ تشرب من الزجاجة .. وعلى الريق .. وتخفى الزجاجة عنا ..

ــ أشرب ماذا ؟

ــ ويسكى .

وابتسمت ..

لم يخطر ببال ما كيوانى أنى عبأت زجاجة الوسكى باللبن .

وأمسكت بالزجاجة وقلت فى لهجة اعتذار :

ــ لقد وصلتنى ليلة أمس من السفارة .. وكنت أنوى أن أخبرك بمجرد أن تستيقظ .. أتأخذ جرعة ؟

وبدا التهلل على وجه ماكيوانى وقال فى سعادة :

ــ اصبر علىّ .. هذه تحتاج إلى رواقة .. سأغسل وجهى وأحلق ذقنى وأعود إليك ..

وأردف وهو يتجه إلى الحمام ويهز رأسه مرددا :

ـ برافو عليك مستر سباعى .. كنت دائما أقول إنك قادر على كل شىء ..

والتفت إلىّ وتساءل فجأة :

ـ ولكن لماذا تشرب من الزجاجة ؟.

ـ كنت أتذوقها .

وعاد يهز رأسه وهو يتساءل :

ـ وكنت أظنك لا تشرب ..

واغتسل ماكيوانى .. وحلق .. وعاد يصفر طربا .

وسألته :

ـ بالصودا أم بالماء ؟

ـ أريده سك .

ـ إذن فلماذا لا تجرب الزجاجة ؟.

ـ أسهل .. حتى لا أضطر إلى غسيل الكوب .. إن أكثر السبل راحة للعازب .. هو الأكل من الحلل .. والشرب من الزجاجات .. هات .

وتناول الزجاجة .. ورفعها إلى فمه ..

وزم شفتيه .. ونظر متسائلا :

ـ ما هذا ؟

ـ ويسكى ..

ـ باللبن ؟!

ـ لماذا ؟

ـ طعمه لبن .

ـ جائز .

ـ كيف ؟

ـ ويسكى الصباح .. يأخذونه باللبن .. كالشاى ..

وضحك ماكيوانى قائلا :

ـ عرفت كيف تخدعنى .. لقد ظننت حقيقة أنه ويسكى .. وقلت لنفسى .. أمعقول أن يشرب السكرتير العام ويسكى على الريق .. وبالزجاجة .. ثم قلت لنفسى .. ولم لا .. لعله فى الرحلات الخطرة .. وهوذاهب إلى فيتنام .. يجب أن يفرفش نفسه .. ولكنى كنت واهما .

ووضع الزجاجة جانبا ثم قال فى لهجة جادة :

ـ اسمع يا مستر سباعى .. أنا لم آت معك إلى فيتنام .. لتعلمنى الرضاعة .. أنا أريد ويسكى .. أو لن أذهب معك إلى فيتنام ..

وقلت له مهدئا :

ـ ستشرب الليلة كما تريد فى عشاء السفارة .

ـ سنرى ..

واستعان ماكيوانى على طول النهار وعلى الرطوبة والحر بالبيرة ..

ورحت أنا أغطس جسدى فى حمام السباحة .. أمام الكوخ .. ثم أغلقت على نفسى الحجرة .. وجلست أكتب فصلا فى «نحن لا نزرع الشوك» .

كان الفصل الخاص بسيدة وهى فى وجه البركة .. بدأته فى بنوم بن .. وأتممته فى هانوى .. وسط أفواه المدافع .. ودوى القنابل المضادة للطائرات .

وعندما أخذت أكتب عن رحلتى فى هانوى .. وعن كفاح الشعب الفيتنامى .. كنت أجلس فى حجرتى فى بيروت بفندق تشارلز .. فى حى النوادى الليلية ..

تناقض عجيب .. بين ما يكتبه الكاتب والجو الذى قد يوجد فيه ..

وفى المساء ذهبنا إلى السفارة ..

وأكلت .. وشرب ماكيوانى ..

شرب وحده زجاجة كاملة ؟؟

ولم يسكر بالطبع ..

لم يتغير به شيء غير أن عينيه الحمراوين ازدادتا احمرارا .

أغلب ظني أن السائل الذى يجرى فى عروقه .. لم يكن دما .. لقد تحول بمرور الوقت إلى ويسكى ..

وعندما فرغت زجاجة الويسكى نظر إليها ماكيوانى قائلا :

ـ خسارة .. هذه الزجاجات دائما تفرغ بسرعة .

ونظرت إليه قائلا :

ـ قم بنا ماكيوانى .

ـ إلى أين ؟

ـ إلى الفندق ..

واشاح برأسه قائلا :

ـ بت أكره هذا الكوخ .. من أجل زجاجتك المليئة باللبن .

ـ ألم تشرب ما يكفيك ؟

ولمح زجاجة أخرى ما زالت مليئة حتى نصفها على منضدة مجاورة وقال لى وهو يمسح شفتيه بطرف كمه :

One for the road

وعلمت أن التقاليد تسمح بكأس أخيرة للطريق ..

وجذب زجاجة الويسكى ولهف كأسا .

وانتظرت أن يقوم فلم يقم .

وكأسا ثانية .. وثالثة .. ورابعة ..

وقلت له فى غيظ :

ـ ماكيوانى ..

ورد علىّ وهو يرفع الخامسة ويفرغها فى جوفه .

ـ قلت لك كأسا للطريق ..

- أى طريق .. الطريق إلى الفندق .. أم الطريق إلى القاهرة .. هذه خامس كأس :

وهمس ماكيوانى فى أذنى :

- يا أخى دعنى أفرغ بقية الزجاجة .. ألا يكفيك اللبن الذى سقيته لى فى الصباح ..

وهكذا أمضينا الأيام السبعة فى بنوم بن .. نحسب دعوات العشاء .. والغداء ..

ماكيوانى .. للشرب ..

وأنا والسلوم .. للطعام ..

وبين آونة وأخرى .. يتأمل كل منا جسد صاحبه .. ويحملق فى رأسه ..

ولم أشك فيما كانا يفكران .. فقد كنت أفكر مثلهما .. الجسد على المحرق ..

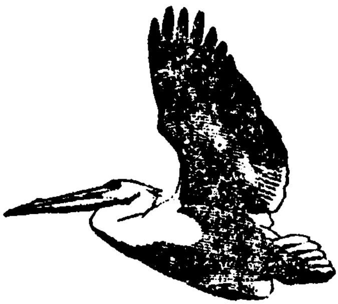
رائحة الشواء تتصاعد منه .

وفجأة يطرقع شىء ..

إنه الرأس .. قد طقطق ..

رأسك ورأسى ورأس ماكيوانى ورأس السلوم .. كل على المحرق سواء .. لتضحك أو تحزن .. لتسد وتغتر .. ولتتبختر من الخيلاء على رءوس الناس .. فالنهاية واحدة .. جسد يذوب فى الثرى .. ورأس يطقطق على النار .

فطار .. فى طائرة



قبيل المغرب فى مطار دمشق ..
والطائرة على وشك القيام ..
وأنا مرهف الحس ، مكدود الذهن ، عقب يوم حافل بالعدو بين الوزارات .. والبحث فى شوارع دمشق عن شقة خالية لاستئجارها مقرا لمجلس الفنون ، والصيام جفف حلقى ونشف ريقى ، وصداع ثقيل قد أخذ يطرق رأسى مستأذنا في الدخول .. وذيول الشفق الأحمر تجرها الشمس على أبنية المطار الخلفية .. فى مغيبها وراء الأفق .

ومددت ساقى فى استرخاء ، وأسندت رأسى على كفى أصد عنها طرقات الصداع ، وأخذت أرقب أحد ضباط المطار وهو يرفع إبريق الشاى من فوق مدفأة المازوت بجوار مقعدى ويضع مكانه طاسات العمود التى حوت طعام إفطاره .

ورأيت سيدتين عجوزين تغدوان وتروحان .. ورجلا أجنبيا ينفخ دخان سيجارة .. وكوما من الصناديق الخشبية قد رص بجوار الحائط في المدخل الذى جلست به .. والباب الزجاجى المتحرك المؤدى إلى المطار قد طار زجاجه فأضحى بابا هيكليا .. لا يفتأ يتذبذب أمام كل عابر .

والجميع فى انتظار أذان الإفطار .. وأنا حائر لا أعرف أين أفطر ، فقد كان الوقت بين مدفع الإفطار وقيام الطائرة أضيق من أن يسمح بإفطار على الأرض .. وإفطار السماء إن قدموه – لن يبدأ إلا بعد قيام الطائرة بفترة لا تقل عن نصف ساعة أى بعد انطلاق المدفع بما يقرب من الساعة .

واستعد الأخ صلاح عبد المتجلى ، زميلى فى الرحلة بقطعتين من الساندويتش فى يده .. اشتراهما من بوفيه المطار ، ولم يكد يعلو صوت المؤذن حتى مد يده إلى بواحدة منهما .

واعتذرت .. فقد كان الساندويتش بالمربى ، وأن أحب المربى بلا خبز ، وأكره أن أبدأ إفطارى بعد يوم حافل بالجوع والتعب بقطعة من ساندويتش تصد نفسى عن أكلة ساخنة شهية كنت أتوقعها فى الطائرة .

وأخذت أنظر فى ساعتى متعجلا قيام الطائرة .

وفى السادسة والربع علا صوت المذيع فى الميكرفون .

ـ المسافرون إلى دمشق على طائرة شركة مصر للطيران رقم .. يتوجهون إلى الطائرة بعد أخذ جوازاتهم أو هوياتهم « أى البطاقة الشخصية » .

وبعد بضع دقائق كنت أجلس مسترخيا فى مقعدى بالطائرة .. أتعجل قيامها وأتعجل معه طعام الإفطار .

وتحركت الطائرة ..

وبدأت الأضواء تتضاءل أسفلنا .

وأنا أحس دائما براحة عجيبة كلما حلقت بى فى الجو طائرة .. أو شقت بى عباب اليم باخرة .

أحس دائما أنى تركت متاعبى - وهى كثيرة - فى الأرض ، وأنى تخلصت من همومى وأنى أستطيع أن أجلس لفترة بلا عمل . ولا جهد .. وأنى قد أصبحت غير مسئول عن شىء وأنى أستطيع أن أجلس مع نفسى ، واسبح ببصرى فى فراغ لا حدود له .. وأن أتمتع بحرية السرحان ، دون أن أضيع على نفسى شيئا من درر المتحدثين إلىّ أو أفقد شيئا من كنوز أقوالهم .

ولكنى فى هذه المرة .. لم يكن بى ميل إلى السرحان إذ لم تكد تطفأ اللافتة التى تحذرنا من التدخين وتطلب منا شد الحزام ، والتى يؤذن انطفاؤها بأن عملية الصعود قد تمت ، وأن الطائرة تشق طريقها فوق السحاب .

أقول لم تكد تطفأ اللافتة حتى بدأ بصرى يعلق بالباب حيث أتوقع أن تخرج صوانى الطعام .

وفتح الباب .. وخرجت المضيفة تحمل طبقا به « ملبس » تمر به على الركاب ، وتناولت واحدة وضعتها فى جيبى ، فأنا لم أترك ساندوتش المربى لأبدأ إفطارا « بملبسة » ..

وعدت أتطلع إلى الباب .

وقبل أن يفتح الباب علا صوت الميكرفون يحمل إلينا تحية قائد الطائرة :

- مساء الخير .. قائد الطائرة الكابتن طعمة يحييكم .. بدأنا رحلتنا إلى القاهرة .

ولم أستطع تتبع بقية حديثه .. فقد كنت أكثر لهفة إلى الطعام منى إلى معلومات الكابتن طعمة عن الرحلة .

وعدت أتطلع إلى الباب ..

وفتح الباب .. وخرج منه الكابتن طعمة نفسه .. يحيينا بابتسامته الرقيقة .

وفزعت فى أول الأمر ، فقد تخيلت الطائرة تسير بغير الكابتن طعمة ، كأنها دراجة قد رفع سائقها يديه عن الجادون ، وأخذ يحيى من حوله .. ولكنى تذكرت أن هناك طاقما للقيادة ، وأن أحد زملائه لابد أن يكون قد حل محله فى قيادتها .

وأحسست بشيء من الطمأنينة .. وعدت مرة أخرى أتطلع إلى باب الفرج الذى ستخرج منه الصوانى الحافلة بطعام الأفطار .

ووصل الكابتن طعمة إلى مقعدى وألقى علىّ تحية معرفة ، وأحسست بالارتياح لبشاشة وجهه وابتسامته ، فرددت له التحية بأحسن منها .. وسألنى الكابتن :

ـ هل دخلت إلى كابينة القيادة ؟

وهززت رأسى بالنفى .. فدعانى إلى الدخول ، ولكنى كنت مصرا على أن آكل أولا وأنا أرى عقارب الساعة تتقدم حتى تصل إلى السابعة والنصف .. وأحس بالصداع يزداد طرقا على رأسى .. والإرهاق يزداد إطباقا على جسدى .

وأخيرا أقبلت المضيفة بالإفطار .. فنجان من الشاى ، وقطعتين من الساندوتش لا تزيد القطعة على الأصبع .

وكانت فرصتى الأخيرة فى الإفطار .. فجرعت فنجان الشاى ، والتهمت قطعتى الساندوتش فى قضمتين ، وحمدت اللّه وشركة مصر للطيران .

وقمت أتمشى إلى كابينة الطائرة .

ولأول مرة وجدت نفسى بين مئات العدادات والآلات وكل ما حولى مكشوف .. وفنار بورسعيد يلمع على بعد عشرات الأميال .

وحلا لى ـ كما يحلو لى دائما كلما ركبت طائرة ـ أن أتصور

الطائرة قد سقطت وتحطمت ، احترقت ، وأننا بتنا وإياها .. رمادا كبقايا سيجارة فى كوب من الماء .

ولم أنزعج مطلقا .

وأنا لا أنزعج أبدا من فكرة الموت .. لأننى أحس دائما أن الموت هو خير ما يمكن أن يصيب الشخص نفسه ، وأنه رقدة هينة ناعمة مريحة تخلصنا من كل متاعب الحياة ومنغصاتها .

وتواترت على ذهنى متاعبى وأحزانى وهى ـــ كما قلت ـــ على الأرض كثيرة ، رغم ما يبدو من مرحى ونجاحى وسعادتى .

وتملكنى إحساس بالراحة .. لحظة واحدة .. تحترق فيها الطائرة .. وبعدها الراحة التامة .

لا مجلس فنون، ولا مؤتمر آسيوى إفريقى ، ولا يوميات ، ولا كتابة قصص .. ولا غيرة ولا بغض ولا غدر ولا حسد ، ولاضغائن ، ولا إنكار معروف .. ولا سخافات آدميين ولا غرورهم .. ولا .. ولا ..

بل خروج من كل سلطان للأذى والتعب .. والضيق .. والألم .. ورقى بالشعور عن كل شعور .

وانتهى إحساسى بالراحة من فكرة سقوط الطائرة ، ثم عدت أفكر .

وبعد هذا .. ماذا سيكون تأثير الموت علىّ !

وعلى الآخرين ؟

لا شىء ..

ستنشر الصحافة نبأ موتى .. كخبر مثير .. ليس لأنى مت .. بل لأن موتى سيقترن بحادثة مثيرة .

ولست أظن أن هناك فى الطائرة أشخاصا معروفين يمكن أن يشاركونى المانشيت الذى سينشر به خبر سقوط الطائرة .

ثم « كمال الملاخ » .. لا جدال فى أنه سيجعل من موتى موضوعا فى صفحته « بلا عنوان » لأنه سيعتبر من حسن الطالع وجمال الصدفة

أنه لقينى وأنا أركب الطائرة .. عندما كان يهبط من نفس الطائرة عند حضوره إلى دمشق مع حسنين هيكل أى قبل موتى ببضع دقائق .

وقد سألنى « كمال » عن آخر ما كتبت .. وقلت له بعض الكلام الفارغ الذى أقوله فى‌حياتى .. ولكن هذا الكلام « الفارغ » لا شك سيصبح أقوالا مأثورة بعد موتى سيكتبه « كمال » بعنوان « آخر ما قال يوسف السباعى » .

وسيقول طبعا : إن الحزن أو المرح .. أو أى شىء غير عادى كان يبدو علىّ ، وأنى كنت أحس أن شيئا ما على وشك أن يحدث لى .

ثم أخذت أتصور ماذا يمكن أن يكتب عنى فى الصحف . وماذا يمكن أن يقال عن نبوغى وعبقريتى .

والنقاد الذين كانوا يشتموننى ، بمناسبة وبغير مناسبة .. سيقولون إنى ــ رحمة الله علىّ ــ كنت .. وكنت ..

كل هذا سيصحب موتى ..

كلها أشياء ممتعة ..

وبعد .. ماذا أيضا ؟

وتذكرت صبيا صغيرا .. يتدلى شعره الأصفر على جبينه وتنفرج شفتاه فى ابتسامة تبرز سنتين جميلتين كبيرتين .

تذكرت أنه ينتظرنى دائما .. كما كنت أنتظر أبا لى منذ عشرات السنين .

وتذكرت أنه سيفتقدنى كما افتقدت أبى ..

وتذكرت أحزانى .. ووحدتى فى الحياة .. وكرهت أفكارى وأنانيتى ..

وأحسست بالخوف من سقوط الطائرة .. ومن الموت .

إن قيمة حياتنا .. كائنة فى نفوس الآخرين .

فى نفوس أولئك الذين يحتاجون إلينا .. وينتظروننا دائما .

المحبة وحدها هى التى تشدنا بهذه الأرض ، ولولاها .. ما كانت لحياتنا قيمة .

إياكم وهذا المصير



زرت معسكر الاعتقال فى « بوخن والت » فى ألمانيا الشرقية ..

واندفع مرافقى يصف لى أنواع التعذيب فى المعسكر .

وبدا لى حديث مرافقى نوعا من الهذيان .

وكدت أوقفه خلال الشرح لأوضح له أننى لست طفلا حتى يضحك على عقلى بمثل هذه الأحاديث غير المعقولة .

ولكنى قلت لنفسى :

ــ صهين .. خده على عقله .

ووقف محدثى بقامته الطويلة ورأسه الأصلع يتمم شرحه ، والمترجم ينقل إلىّ أقواله .

وكنا نقف فى حجرة متسعة ذات سقف منحدر .. قد توسطتها

أربعة أفران مستطيلة متوازية .. على اليمين بدا باب مصعد متسع أشبه بمصاعد المستشفيات .

وأشار محدثى إلى « الأسانسير » قائلا :

ـ من هنا ترفع الجثث من البدروم .. ثم تنقل لترص داخل هذه الأفران .

وهززت رأى متسائلا :

ـ لم بنيت هذه الأفران .. للطهو أو للخبز ؟

ونقل المترجم سؤالى إلى محدثى فبدت عليه الدهشة وأجاب :

ـ إنها أفران لحرق جثث الآدميين .

وعدت أتساءل :

ـ قبل أن يحرقوا فيها جثث الآدميين .. فيم كانت تستعمل ؟

ـ لقد بنيت خصيصا لأجل الجثث الآدمية .. ألا ترى فى استطالتها أو حجمها أنها جعلت بحجم الجسد الآدمى ؟

وصمت الرجل برهة ثم أردف قائلا :

لقد كانت هذه هى خير وسيلة للتخلص من أكداس الجثث .. التى يزخر بها المعتقل .

وهززت رأسى موافقا .. ولكنى لم أصدق أبدا أن هذا يمكن أن يكون حقيقة واقعة .. وقلت لنفسى :

ـ لابد أن يكون هذا من باب التشنيع بالنازية .

واستمر محدثى يقول :

ـ لقد كانت بعض الجثث تسلخ قبل حرقها .. لأن زوجة قائد المعسكر كانت تهوى عمل الأباجورات من الجلود التى بها وشم .

ولم أشك فى أن محدثى قد سرح بى ، وأنه يحاول أن يثير فى نفسى أقصى ما يستطيع من الذعر والأشمئزاز .

وعدت أسأله :

ـ السيدة زوجة القائد .. كانت تصنع الأباجورات من جلود المعتقلين ؟

ـ أجل ..

ـ ومن أنبأكم ؟

ـ رأينا الأباجورات .

وهززت رأسى فى تشكك .. فلم أكن أتصور قط .. أن جلودنا يمكن أن تحول إلى أباجورات .

وسرنا فى طريقنا ،واتجهنا إلى الحجرة التى كان المعتقلون يساقون فيها إلى القتل .. ووقفت أمام حائط به مقياس للطول ووجدت المقياس به تجويف قريب للعنق والرأس وأخذ محدثى يشرح لى:

ـ كان المعتقلون يساقون إلى هذا المبنى بحجة الكشف الطبى عليهم ، وكانوا يتجمعون فى حجرة فى أول المبنى ، بينها وبين المبنى حوائط مزدوجة تمنع من وصول الصوت ، وكان هناك ميكروفون تذاع فيه أغان راقصة تحول بينهم وبين سماع ما يمكن أن ينفذ إليهم من صوت الطلقات أو صرخات القتلى ، وكانوا يساقون واحدا واحدا حيث يجرى الأطباء الكشف عليهم وينقلون من حجرة إلى أخرى حتى يصلوا إلى هذه الحجرة حيث يقف المعتقل أو الأسير أمام مقياس الطول .. ووراء هذا المقياس حجرة صغيرة وضعت بها بندقية مصوبة من الفتحة الموجودة بالمقياس ، فلا يكاد المعتقل يستقر أمامه حتى تنطلق الرصاصة فى مؤخرة رأسه .

وهبطنا إلى البدروم فوجدنا مزيدا من وسائل للقتل بخطافات معلقة فى الحائط .

وهززت رأسى وأنا أنظر إلى محدثى فى دهشة وسألته قائلا :

ـ ولماذا كل هذا التفنن فى القتل ؟ لماذا لا يقتلونهم كلهم زرافات رميا بالرصاص ؟

ـ لقد كان كما تقول تفننا لإرضاء نوازع الشر التى تأصلت فى نفوس الحراس والمسيطرين على المعسكرات .. الذين أصيبوا بالساديزم .. نتيجة للتربية ولوسائل الدعاية الموجودة فى هذا الوقت .

وخرجنا من البدروم ، ومناظر الجثث ورائحة الدم تملؤنى بالغثيان ، وسرنا فى المعسكر ومررنا بجرارة ثقيلة وبمكدام أشبه « بوابور الزلط » وأنبأنى محدثى طبعا أن الأسرى كانوا يشدون إليه حتى يسقطوا صرعى وهم يجلدون بالكرابيج .

وأخيرا وقف بى محدثى أمام بناء كتب عليه « المتحف » واجتزنا بابه .

ووقفنا أمام فاترينة زجاجية .

ولم يتحدث مرافقى .. ونظرت إلى محتوى الفاترينة ، فإذا بى أجد أباجورا جميلا سمنى اللون رسم عليه وشم أخضر .. وأشار مرافقى فى صمت إلى نقطة سوداء بجوار الوشم وقال شيئا بالألمانية .. وقبل أن ينقل إلى المترجم قوله .. استطعت أن أميز منها « حلمة ثدى » .

ومن جديد عدت أشعر بالغثيان .

أحقا .. يمكن أن تصل البشرية إلى هذا الدرك ؟

أيمكن أن تحول دعايات الحرب .. أبناء الأرض .. التى أنبتت جيته وشيلى وموزار أيمكن أن تحول الإنسان الرقيق .. إلى مثل هذه الهمجية البشعة ؟

وبعد كل هذا نقف ببساطة .. لنساق مرة أخرى .. إلى حرب جديدة ، تصنع منا نحن الآدميين ، المسالمين ، وحوشا ضارية .

أيها الناس .. قاوموا الحروب .. وتشبثوا بالسلام .. افعلوا كل ما تستطيعون حتى لا تساقوا مرة أخرى إلى مثل هذا المصير .

سيدة بلا إله



لقيتها فى العالم المتسع بين المحيطين ..

يابانية رقيقة حلوة البسمة .. لا تعترف بوجود اللّه .

كان إلههم قبل الحرب هو الإمبراطور .. فلما انتهت الحرب طار الإمبراطور ، وطار معه الإله .

ونظرت إلى السيدة الذكية وسألتها فى دهشة :

ــ ألا تؤمنين بشىء فى هذه الحياة ؟

ــ أؤمن بنفسى .

ــ إذا آمنت بنفسك .. فأنت تؤمنين باللّه ، لأن اللّه فى داخلك .

وهزت اليابانية رأسها غير مقتنعة .

عدت أسألها :

ــ إذا عجزت عن شىء ووجدت فى غيرك القدرة عليه . ألا تعترفين به وتؤمنين بقدرته ؟

ــ أجل .

ـ ألا ترين فى حياتك ظواهر يعجز عنها الإنسان ، وتقدر عليه قوة فوق قوته ؟

وهزت رأسها فى شك قائلة :

ـ لا أظن العلم أبقى على شيء يعجز عنه الإنسان .. ويتوهم فيه قدرة فوق قدرته .

وصمتت برهة تفكر ثم استطردت :

ـ كنا فيما مضى نعبد الرعد .. حتى اكتشفنا أنه تصادم كتلتين من الغاز ، وكنا نظن الإله فى آخر الأرض ، حتى اكتشفنا أن الأرض كروية ، وأنها بلا آخر .

ـ ألم تبق أشياء .. يعجز عنها علم الإنسان ؟

ـ لا أظن ..

ـ وإذا كان هناك أشياء يعجز عنها ، وتقدر عليها قوة فوق قدرته .. ألا تؤمنين بتلك القوة ؟

ـ ربما .

ـ حبة القمح التى تنبت السنبلة .. هل يستطيع الإنسان أن يخلقها ؟

وصمتت اليابانية الرقيقة التى لا إله لها .

وعدت أقول :

ـ هذا القلم .. هل يستطيع الإنسان أن ينبت له براعم وزهور ، كما ينبت فى فرع هذه الشجرة ؟

وهزت رأسها فى نفى .

واستطردت قائلا :

ـ هذه الورقة البيضاء .. هل يمكن أن ينفخ فيها من الحياة ما يجعلها تخضر وتينع وتثقل بالثمار ؟

وعادت تهز رأسها قائلة :

ـ لا .

ولم أكد أعاود الحديث .. حتى قاطعتنى قائلة :

ـ ولكنه قد يفعل هذا ، فى المستقبل .

وأجبتها فى تشكك :

ـ حتى يفعل هذه ، حتى يهب الحياة ، وحتى يقدر على الخلق ، حتى يصنع البذرة ، ويخلق الجنين ، ويحيى الموتى ... لابد أن يؤمن بالقوة التى فوق قوته ، والقدرة التى فوق قدرته .. لابد أن يؤمن بخالق لا يشرك به أحدا .

وهزت السيدة الرقيقة رأسها فى حيرة .

وعدت أسألها :

ـ هل آمنت بجود إله ؟

وفى عناد هزت رأسها قائلة :

ـ لا .

ـ إذا كنت تصرين على عدم الإيمان .. كتقليد موروث ، وعادة لابد منها .. فمن العبث مناقشتك .. أما إذا كنت تريدين المناقشة للفهم ولمحاولة الاقتناع ، فإنى على استعداد لمواصلة المناقشة .

وابتسمت السيدة وأجابت :

ـ نحن بلا دين ، ولكننا نحترم الأديان ، وأنا على استعداد لمواصلة المناقشة ، وعلى استعداد لمعرفة المزيد من دينكم .. من أجل الاقتناع .

وأحسست من قولها أنى أوشك أن أضع على كاهلى عبئا جديدا .. هو عبء إدخال الإيمان فى قلب السيدة الرقيقة التى لا إله لها ..

شبيهة ثريا .. الفخورة بالأصل الأسود



كوناكرى ..

مدينة الرجل الذى قال لديجول لا .. نفضل الحرية على كل شىء .. الرجل الذى صد عن بلده موجات غزو الاستعمار .. الموجة تلو الموجة .. والذى واجه بصلابة كل مؤامرات الاستعمار على بلده .

مدينة الخضرة تنبت فى كل مكان ، على جذوع الشجر .. على الأرصفة .. على الأحذية .. إذا تركت ليلا خارج الشرفة .

الشوارع متسعة نظيفة .. يغسلها المطر والندى .. والأشجار الباسقة الممتدة الغصون .. المتكاثفة الأوراق ... تتشابك فروعها لتسقف الطرقات وتحجب عنها حرقة شمس الاستواء ..

والمدينة تبدو مهجورة .. بعد أن هجرها المستوطنون الفرنسيون .. وأخذوا معهم كل شىء حتى أسلاك التليفون .. ونحن نتوجه إلى القصر

الأبيض على المحيط .. الذى كان مقرا للحاكم الفرنسى .. فأضحى مقرا لرئاسة غينيا المستقلة .

ولقينا الرجل الطويل الطويل الأسود الوسيم .. الذى يبدو فى خفة مشيته وتوثبه كالفهد أو كأحد أبطال الوثب والعدو .. وجلسنا حوله على المقاعد المريحة فى الصالة الرحبة المطلة على الحديقة التى تتلاطم وراءها أمواج المحيط ..

ومر علينا الساقى بالحلوى .. والبندق .. واللوز .. والزيتون ..

ووجدت سيكوتورى يتجاوز عن بقية الأطباق .. فلا يتناول سوى الزيتون .. وأحسست أن من الكياسة أن أتبعه .. فكانت النتيجة أنى لم آكل فى قصر سيكوتورى .. سوى الزيتون المخلل ..

وحدثنا .. عن إيمانه بعبد الناصر .. وكيف علمته وقفته ضد العدوان الثلاثى أن الاستعمار على قوته يمكن أن يواجه وأن يقاوم وأن تنتصر عليه الشعوب المستعمرة .. ولم يصعب عليه بعد هذا .. عندما وقف ديجول يخيره بين الانضمام إلى المجموعة الفرنسية .. والاستقلال .. أن يقول فى حزم » إنه يختار الاستقلال ..

وتحدثنا عن المؤتمر المزمع عقده وعن الاستعداد له .. والتقينا بزعماء الحزب ثم عدنا أدراجنا إلى مقرنا بالفندق المطل على المحيط .

وفى مدخل الفندق كانت تقف كريستين فى المكتبة الكائنة أسفل الدرج .. بغير وعى .. قادتنا أقدامنا إليها .

كانت حجتنا واضحة .. إننا نحتاج إلى الصحف لنقرأ آخر الأنباء .. والصحف موجودة فى المكتبة .. وغير الصحف توجد آخر الكتب السياسية والأدبية .. وتوجد التماثيل الخشبية والتحف التى يمكن شراؤها من كوناكرى .

لم يكن الأقبال على المكتبة إذا بالأمر غير الطبيعى .. وكان من الممكن أن نذهب إليها .. حتى ولو لم تكن كريستين موجودة ..

ولكن عندما تكون كريستين هذه .. صورة طبق الأصل من ثريا إمبراطورة إيران السابقة .. تزداد أهمية الصحف والكتب والتحف .. إلى الحد الذى .. يجعل مكتبة الفندق .. أهم مكان فى كوناكرى كلها .

ورحنا نتناول الأناناس بشراهة .. ونقطف جوز الهند المعلق على الشجر على شاطئ المحيط .. ونزور كريستين فى المكتبة .. ونعد للمؤتمر .

وحل موعد المؤتمر .. افتتحه سيكوتورى .. وبعد أن أتم خطابه .. وودعناه وجلسنا ننصت إلى كلمات الوفود .. لمحت عينى فجأة الأمبراطورة ثريا تجلس فى أحد كبائن الترجمة .

ولم أكن أعرف أنها مترجمة ولا توقعت أن أراها فى كبائن المترجمين .. ولكنى أحسست أنها يمكن أن تمنحنا شيئا يعاوننا على الساعات الطويلة التى سنقضيها فى الإنصات إلى كلمات الوفود ..

ورأيتها تبتسم فابتسمت .

وفى نهاية الجلسة علمت أنها تعمل فى إذاعة كوناكرى إلى جانب وقفتها فى المكتبة التى تمتلكها أمها ..

والتقيت بها فى حديث للإذاعة .. وعلمت منها أن أباها فرنسى وأمها خليط من أم غينية وأب كونجولى ..

ولم أشك فى أن الفتاة البيضاء تعانى من عقدة الأم السوداء فلقد رأيت من قبل فيلما أمريكيا يدور حول فتاة من أم سوداء وأب أمريكى وكانت الابنة تخفى فى المدرسة علاقتها بأمها السوداء حتى لا تتنكر لها زميلاتها .. وحاولت أمها دائما أن تتجنب الظهور معها .. وكانت تبذل كل جهدها حتى تجنب ابنتها سيئات أمومتها السوداء فى مجتمع عنصرى .. ولكن أمرها يكشف فى النهاية وتصرخ الابنة فى وجه أمها

التى تعبدها والتى حاولت كل جهدها أن تجنبها متاعب أمومتها السوداء .. وتحس الأم أنها كانت برغمها .. عقبة فى سبيل سعادة ابنتها ..

وفى يوم سألتنى الفتاة الجميلة أن أزورها فى بيتها لتعرفنى بجدتها .. ولم أشك فى أنى سأذهب إلى بيت فرنسى .. لأرى أباها وأمه الفرنسية .. شىء يمكن أن تفاخر بها الفتاة بعد إصرارها على زيارتى لأهلها .

وسارت العربة تخترق طرقات كوناكرى حتى غادرنا الدور واتجهنا إلى الأحراش .

وظللنا نلف وندور بين الأشجار والأدغال .. والفتاة يبدو عليها المرح والسعادة وهى ترشد السائق حتى توقفنا أخيرا أمام البيت ..

ووجدته بيت إفريقى بسيط ..

ووثبت الفتاة من العربة وهى تشدنى ..

وصعدنا بضع درجات خشبية وعبرنا الباب .. وسألتنى الجلوس حتى تخبر جدتها بوصولى ..

ولم تكد تخطو إلى الداخل حتى هتفت صائحة :

ـ ماذا بك ؟

وسمعت حوارا بلغة لم أفهمها .. ولم ألبث حتى رأيت الفتاة تعود وقد بدا على وجهها الحزن وهى تقول لى :

ـ إن جدتى مريضة .. هل تحب أن تراها ؟

وهتفت فى حماس :

ـ طبعا ..

ودخلت لأرى الجدة الفرنسية المريضة .. التى تصر الفتاة على أن أدخل لزيارتها فى فراش المرض .

على مقعد كبير .. وجدت الجدة تجلس ..

شيء سمين أسود تشد رأسه بعصابة سوداء وقد بدا أحمر العينين منتفخ الوجه غليظ الشفتين ..

وأقبلت على السيدة السوداء أشد على يدها وأقول لها سلامتك ..

وردت عليّ بلغة لم أفهمها وأشارت لى بالجلوس إلى جوارها .

وعرضت كريستين على جدتها أن تعطيها قرصين أسبرو ولكن السيدة رفضت وطلبت منها أن تحضر لها فص ليمون تضعه على جبينها .. ورأيت كريستين تسرع بإحضار الليمون ثم تنزع العصابة عن الرأس الأسود وتضع فص ليمون ثم تشد عليه العصابة برفق وتضم الجدة إليها وتقبلها فى حنان ثم تنظر إلىّ وتسألنى فى حماس :

ـ أليست جدتى جميلة ؟

قلت لها بنفس الحماس :

ـ هذه أجمل جدة رأيتها ..

وبعد لحظة دخلت المفاجأة الثانية .. طفل أسود غطيس مفلفل الشعر يعدو نحو كريستين ثم يقفز فيحيط عنقها بذراعيه وترفعه إلى صدرها لتضمه إليها فى حنان ثم تقدمه إلىّ مفاخرة :

ـ أخى ..

هذه الفتاة عجيبة .

أين العقد التى ظننتها تملؤها .. وأين ما تخيلته من محاولة تجنبها للأصل الأسود الذى تنتسب إليه .. كما رأيت فتاة الفيلم الأمريكى .

أمن أجل هؤلاء قد ألحت علىّ الفتاة لزيارة بيتها ..

أمن أجل الجدة الغينية السوداء .. والأخ الغينى الأسود ..

لماذا تصر على أن تشد نفسها وهى البيضاء الجميلة إلى هذه السلالة السوداء ..

وبكل هذا الفخر .. والحب والاعتزاز ..

ألأنها تشعر بالانتماء الغينى .. الانتماء إلى الأصل الإفريقى الأسود ؟..

أم لأن حب جدتها وأخيها .. أغلب على أى إحساس بتفرقة اللون ..

وأحسست أن عليّ أن أعود .. وقالت لى الفتاة إنها ستعود معى .

ونهضت أشد على يد جدتها بحماس .. ورفعت الطفل الأسود أضمه إلى صدرى .

وفى الطريق نظرت إلى الفتاة الرائعة .. وقلت أسائلها :

ــ ألم تضيقى بأصلك الأسود ؟

ونظرت إلىّ فى دهشة وتساءلت :

ــ ولماذا أضيق به ؟

ــ لأنك بيضاء ..

ــ لم أفكر فى ذلك مرة واحدة ..

وصمتت برهة ثم أردفت :

ــ أنا غينية .. وإذا كان لى أن أضيق بشىء .. فهو لونى الأبيض ..

ــ وهل تضيقين به ؟

ــ وهل يمكن أن يؤثر لون بشرتنا فينا ..

ــ مطلقا ..

وعدنا إلى الفندق .. وفى المساء كان علينا أن نذهب لحضور الاحتفال فى قصر سيكوتورى ..

وجلسنا فى حديقة القصر نرقب العرض الراقص الواقف الذى تقدمه فتيات غينيا .

وبدأ العرض .. وصعدت إلى المسرح ما يربو على الخمسين فتاة .. يرقصن عاريات الصدور..

وشدت الأبصار فى أول الأمر إلى الصدور العارية .. التى يعج بها المسرح .. واحتارت العيون على أيها تركز وهى تترجرج خلال القفز والوثب ..

وبعد لحظة اعتادتها الأعين .. وبدت شيئا طبيعيا فوق المسرح .. ليس به ما يثير الدهشة أو الانتباه .. وأخذت الحركة الراقصة والموسيقى السريعة تشد الانتباه أكثر من رجرجة الصدور.

في اليوم التالى خرجنا إلى اجتماع شعبى ..

ركبت مع الرئيس سيكوتورى فى عربته .. وقد احتشدت الجماهير فى الطرقات لتحية الرئيس ..

وكانت وسيلتهم فى التحية الرقص .. كان الشعب كله يرقص على جانبى الطريق .. ووصلنا إلى ميدان الاجتماع .. وصعدنا إلى المنصة .. وانطلق سيكوتورى يتحدث إلى الشعب .. الذى وقف ينصت صامتا .

وبدت قدرة سيكوتورى على شد الجماهير إليه .. واستحوازه على اهتمامهم وبدا تعلقهم به .. كان الانجذاب المتبادل بين الزعيم والشعب واضحا ..

وبهذه الخيوط الذى تشده إلى الشعب وتشد الشعب الغينى إليه استطاع سيكوتورى أن يقهر موجات الغزو الاستعمارى التى ما فتئت يقذفها إليه المحيط من المحترفين والعملاء ..

ورحلنا من غينيا بعد أن أكلنا كل ما بها من أناناس .. وقطعنا كل ما بها من جوز الهند .. واشترينا كل الكتب والصحف والتحف التى كانت فى مكتبة الفندق عند شبيهة الإمبراطورة ثريا .. الفخورة .. بأصلها الأسود ..

الأقوال بالنيات



ذهبت لزيارة السيدة « رامشوارى نهرو » .. وهى تنزل فى القصر الجمهورى للرئيس سيكوتورى ..

وقفزتُ الدرج بالصندل والقميص والبنطلون ، وعبرت حجرة الصالون ووقفت فى حجرة المائدة .

لم يقل لى أحد إلى أين ، ولا من أنت .

ووقفت مترددا أنظر حولى فى حيرة .. حتى مر بى أحد الخدم وسألته عن مسز « نهرو » فأشار إلى أحد الأبواب .

وطرقت الباب ، ووصل إلى مسمعى صوتها الرفيع يقول :

ـ ادخل ..

وشددت على يد السيدة ذت الثمانين عاما .. التى طارت من نيودلهى إلى غينيا من أجل التضامن الآسيوى الإفريقى الذى تؤمن به

إيمانا عجيبا .. تؤمن بأهدافه الحقة .. الحرية والمساواة والسلام .

وجلسنا نتحدث ..

وبعد برهة .. دق الباب ، وأذنت السيدة للطارق بالدخول كما أذنت لى .

وفتح الباب ، وأبصرت برجل وسيدة يتقدمان فى حياء ، وكان الرجل .. سيكوتورى ، والسيدة زوجته .

وحيانا رئيس الجمهورية ، وقدم إلينا زوجته .. ثم استأذن وانصرف .

ونهضت بدورى مستأذنا فى الانصراف .. حتى ادع السيدتين على حريتهما .

ووجدت السيدة « نهرو » تتشبث بيدى قائلة :

ـ اجلس ..

ـ سآتى فى فرصة أخرى ، حتى لا أزعجكما بوجودى .

ـ ليس هناك إزعاج ، اجلس .

ـ ولكن .. ربما ..

ـ اجلس .. قلت لك .. لأنى لا أعرف كلمة واحدة فرنسية ، والسيدة سيكوتورى لا تعرف الإنجليزية .. ولعلك تكون واسطة التفاهم بيننا .

ـ أنا .. ولكنى لا أعرف الفرنسية مطلقا ..

ـ لا .. لا .. لقد سمعتك تنطق بضع كلمات فرنسية عندما دخل الرئيس « سيكوتورى » .

ـ ولكن .. هذه هى الكلمات الوحيدة التى أعرفها .

وخيل إلى السيدة « نهرو » أنى أتواضع .. فابتسمت وجذبتنى من يدى قائلة :

ـ اجلس .. اجلس .. إنها تكفى .

وأحسست كأنى وقعت فى فخ ، وبدت لى كأن مؤامرة دبرت

ضدى ، وأن دخول السيدة سيكوتورى .. فى ذلك الوقت .. كان عمدا ، وليس من باب المصادفات .

وبدأت السيدة « نهرو » تتحدث .. ببساطة وطلاقة .

ثم صمتت ، وتتطلعت إلى السيدة « سيكوتورى » فى ابتسامة بريئة ، وهى تنتظر أن أنقل لها ما قالت السيدة « نهرو » .

وقلت شيئا بالفرنسية .. لست أدرى ما هو بالضبط .

قد تكون به بضع كلمات مما قالته السيدة « نهرو » ، وقد لا يكون به شىء مطلقا .

المهم أن السيدة « سيكوتورى » .. هزت رأسها وابتسمت . وتنفست الصعداء .

هذه المرة .. مرت على خير .

وبدأت السيدة « سيكوتورى » دورها فى الحديث .

قالت كلاما كثيرا .. فهمت بعضه .

أو بتعبير أدق .. فهمت «طراطيش » منه .

وصمتت .. وتطلعت إلى السيدة « نهرو » بنفس الابتسامة البريئة ، التى منحتنى إياها السيدة « سيكوتورى » ، وهى تنتظر منى أن أنقل إليها قول مسز « نهرو » .

ونظرت إلى مسز « نهرو » .

لماذا فعلت بى هذا ؟

أنا أعمل مترجما ؟. فرنسى إنجليزى .

وأين ؟ .. فى قصر جمهورى ، ومع زوجة رئيس الجمهورية .. لا ، هذا لا يعقل أبدا .

ومع ذلك كان علىّ أن أتحدث .. حتى لا أوقف الحديث .

وكانت المسألة هذه المرة أسهل .. ولم أدع مسز « نهرو » تنتظر كثيرا .

لقد انطلقت أتحدث بالإنجليزية .. عما ظننت أن السيدة « سيكوتورى » تريد أن تتحدث عنه للسيدة « نهرو » .

كان كل ما أملك .. هو حسن النية ، والأقوال .. بالنيات . ولكل امرئ .. ما نوى أن يقول .

وانتهيت من الحديث ، وعلت وجه السيدة « نهرو » ابتسامة رضاء وهزت رأسها فى إعجاب .

وابتسمت السيدة « سيكوتورى » .

وبدا لى أن التفاهم بينهما على أشده .

وحمدت اللّه ..

هذه المرة .. عدّت .

ومرة أخرى بدأت السيدة « نهرو » الحديث .

ونظرت إليها .

هذه السيدة إما أن تكون حسنة النية جدا ... فتظن أنى فعلا أنقل كل ما تقول .. أو أنها تريد إيقاعى فى شر أعمالى .. أو على الأصح ، فى شر أقوالى .

وقبل أن تسترسل فى حديثها .. رفعت إليها كفى متضرعا وقلت فى توسل :

ـ مسز نهرو .. أرجوك .. أنا فعلا لا أعرف الفرنسية .. إن المسألة ليست كما تظنين .. مسألة تواضع ، ولكنها جهل حقيقى .. أنا لا أزيد عنك مطلقا فى معرفتى بالفرنسية .

ـ ولكنك تحدثت بها فعلا .

ـ ربما ، ولكنى لا أعرف بالضبط .. ماذا قلت .

ـ ولكنك جعلت كل منا يفهم الآخر .

ـ مطلقا .. لقد جعلت كلا منكما تفهم شيئا ، ولكنى

لا أستطيع أن أجزم مطلقا .. بصلة هذا الشىء بما أرادت كل منكما أن تقوله .

ــ ولكن ..

ــ أرجوك ... مسز نهرو .. هذه المحاولة .. جت سليمة ، ولكن المحاولة القادمة .. لا أعرف بالضبط كيف ستنتهى .. يحتمل جدا .. أن تنتهى بطردى .

وضحكت السيدة « نهرو » .

وتطلعت إلينا السيدة « سيكوتورى » مبتسمة وكان علىّ أن أنقل إليها ما قلته للسيدة « نهرو » ، بكل ما أملك من وسائل التهتهة الفرنسية .. المصحوبة بالإشارات .

ولا جدال أنى نجحت فى إفهامها .. فقد ضحكت ثم قالت فى رقة ما معناه : إنى أعرف الفرنسية ، وشكرت لها حسن ظنها ، وفرط ذوقها .

ونهضت مصرا على أن أنصرف .

ونهضت السيدة « سيكوتورى » وودعتنا ضاحكة وهى تقول للسيدة « نهرو » إنها ستعود فى فرصة أخرى .

وانطلقت من القصر .. بعد أن أقسمت ألا أدخل إلا وفى يدى مترجم .

فى سمرقند

تحركت بنا الطائرة مع شروق الشمس من طشقند إلى سمرقند .

لم تستغرق الرحلة أكثر من ساعة هبطنا بعدها إلى الفندق لنغتسل ونتناول الإفطار ثم ننطلق فى جولة بالمدينة ذات المآذن والقباب والوجه الإسلامى المشرق .

وساقنا الدليل ليشرح لنا ما نمر من معالم المدينة .

والدليل فتاة سمرقندية حلوة ترتدى الثياب الوطنية الملونة المخططة والطاقية على رأسها تتدلى منها جدائل سوداء تصل حتى وسطها .

ووقفت تشرح لنا تراث علم الفلك فى سمرقند بطريقة ميكروفونية سريعة وتعبيرات وجه جامدة كأنها شريط مسجل .

وبعد برهة من الحديث المسجل المنطلق من الشفاه الجميلة توقفت الفتاة تلتقط أنفاسها قبل أن تنطلق فى الشرح مرة أخرى .

وانتهزت فرصة صمتها وسألتها فى أدب :

ــ أهناك ضرورة لكل هذا الشرح .

ونظرت إلىّ فى شىء من الدهشة وأجابت :

ــ أظن هذا .

ــ أخشى أن تتعبى .

وتسللت الابتسامة إلى شفتها لأول مرة وردت :

ــ لقد تعودت على ذلك .. إن هذا عملى .

ــ ولماذا لا تجربى الراحة اليوم ؟

ــ كيف ؟

ــ بالصمت .

ــ ومن يشرح لكم ؟

ــ سنتأمل ما حولنا وعندما نجد ما يحتاج إلى تفسير سنسألك .. وعندما تحسين أنت بأن هناك ما تودين أن تلفتى نظرنا إليه .. حدثينا عنه .

ولم يبد عليها الارتياح .. كانت هناك أسطوانة فى باطنها .. تفضل أن تفرغ لنا ما فيها بغير عناء ولا تفكير .. ثم تستريح .

وحاولت الفتاة أن تجادل فقالت :

ــ ولكن لابد أن أشرح لكم كل شىء .

ــ إنى لن أفهم أى شىء .. لأن الدروس الطويلة المفروضة على ذهنى .. تجعله يشرد ويسرح .. إنه لاينصت إلا إلى مايريد أن يعرف ولا يلتقط إلا ردا على استفسار يحتاج إليه .

وبدا كأنها قد أخذت تقتنع بمنطقى ولكنها هزت رأسها فى شىء من التردد وأجابت :

ــ ولكن واجبى كدليل يحتم على ..

وقاطعتها قائلا :

– نحن لا نريدك كدليل .. نريدك كإنسانة .. فأنت أفضل كثيرا من الشريط المسجل الذى فى باطنك .

وضحكت الفتاة وانقشعت من وجهها سمات الجمود التى كست قسماته .. وقالت فى مرح :

– وأنا أفضل هذا ..

ورحنا نتأمل ما حولنا .. من آثار إسلامية .. كتب عليها آيات قرآنية ونظرت الفتاة إلى الكتابة العربية قائلة :

– تعودت أن أفسرها للزوار لكنى لا أشك أنكم تعرفون تفسيرها خيرا منى .

وقلت لها :

– نختبرك ..

وبدأت قراءة الآية وشرحها وسبب كتابتها . وبقدر ما أعرف أصابت الفتاة .

وقبل أن نهبط الدرج الطويل قالت الفتاة مازحة :

– حاول أن تعد الدرجات ..فإذا أخطأت العدد فأنت مذنب وإذا أصبت فأنت برىء .

ولم أسأل مذنب بماذا .. ولا برىء من ماذا .. فلم يكن عد الدرجات بالمسألة الصعبة ولم يكن هناك بالتالى طريقة لإثبات براءة الإنسان – مهما كان ذنبه – أسهل من هذه الطريقة .

وبدأت العد وأنا أهبط الدرج .. واحد .. اثنين ..ثلاثة ..حتى وصلت فى نهاية الدرج إلى خمسين .

ورفعت وجهى إلى الفتاة التى وقفت تنظر إلىّ باسمة وقلت فى حماس :

– خمسين درجة .

وهزت رأسها وقالت ضاحكة :

– لا ..

ورددت في إصرار :

- بل .. خمسون .

- قلت لك لا .. أنت مذنب .

وهممت بالصعود ولكنني ترددت برهة ..

هذه الفتاة تنوى أن تقطع نفسي في صعود السلم .. وتضيع يومي في سمرقند في عد درجاته لأثبت أني برىء ..

من ماذا .. لست أدرى ..

ولاحظت ترددى فقالت في تحد :

- اعترف بأنك أخطأت .

وبدأت الصعود قائلا :

- سنرى ..

رحت أعد السلم صاعدا .. بتأني وروية .. وصلت إلى الدرجة الخمسين فإذا بي لم أكمل الصعود وإذا هناك ما زالت أمامي درجة لم تعد ووجدت نفسي أقف أمامها مترددا .. ثم أقول مرغما وأنا أسند قدمي عليها :

- واحد وخمسين .

واندفعت الفتاة الحلوة تضحك في غير كلفة .. بعد أن نفضت عنها الجمود الميكروفوني الذى بدأت به حديثها معنا . وقالت :

- أرأيت ؟.

- ولكنيعددتها في النزول خمسين .

وقالت الفتاة مفسرة وهي مستغرقة في الضحك :

- عندما ننزل .. نبدأ العد بأول درجة نهبط عليها .. دون أن نحسب البسطة التي نقف عليها .. ونظل نعد حتى آخر درجة نهبط منها .. فلا نحسب الأرض التي نزلنا عليها .. ولكن عندما نصعد نحسب أول درجة نضع قدمنا عليها .. ثم نحسب آخر درجة نصعد

إليها وهى التى أغفلناها عند النزول . وهكذا دائما تنقص الدرجات فى الصعود درجة واحدة عنها فى الهبوط .

وعلمت أنها لعبتهم المفضلة فى هذا المبنى الأثرى يقطعون بها نفس الزوار .. ويؤكدون لهم أنهم مذنبون .

وزرنا قبر تيمورلنك .. صندوق فى قبو .. يعلم اللّه ماذا يحوى من بقايا القائد الأعرج الذى اكتسح الممالك والأمصار .

أيا كانت بقاياه .. لا أظنها تختلف عن بقايا أى صعلوك فى عصره .. لم يمسك سيفا .. ولا أمتطى فرسا .. ولا اكتسح الجيوش وقهر الملوك .

وهو قد كسب الخلود .

كسب وقفتنا هذه لنشاهد صندوقا يحوى بقاياه .

ولكن .. هل تعنيه وقفتنا فى شىء ..

وهل يختلف الأمر عنده .. وعند من ليس لبقاياه صندوق .. نقف أمامه ؟

كلاهما خرج من الحياة بلا شىء .

وكلاهما يرقد فى الأرض دون أن يعنيه منا شىء .

وخرجنا من قبر تيمورلنك .. لنجد جنازة تقبل علينا .

وكانت الجنازة أشبه بجنازاتنا .. لا تختلف إلا فى أن الصندوق له أرجل طويلة بحيث يبدو عندما يوضع على الأرض كعربة اليد .. والمشيعون يهرولون وراءه .. بخطوات أسرع من خطواتنا .. كأنهم فى عجلة من أمرهم .

وذهبت بعد ذلك إلى معهد الفراء .. حيث تجرى البحوث والدراسات على تربية الخراف التى يتخذ منها الفرو الاستراكان .

ويعتبر الاستراكان أحد موارد الثروة فى هذه المنطقة . ومن أكبر موارد العملة الصعبة فى الاتحاد السوفييتى .

وأول من أدخل تربية خراف الاستراكان فى أزبكستان هو أحد

المهاجرين من أفغانستان .. الذى بدأ عمله ببضعة خراف .. ثم انتهى إلى أكبر مورد للاستراكان فى العالم .

ومن أعجب ما سمعت من مدير المعهد هناك .. أن مصر ممكن أن تكون من أكبر مواطن الاستراكان .. وأن صحاريها من أصلح المناطق لتربية خراف الاستراكان وأننا لو عنينا بهذه العملية لوفرت لنا من الدخل ما يعادل ما يدخل لنا من قناة السويس .

والخراف التى يؤخذ منها الاستراكان خراف عادية .. يمكن تربيتها فى الصحارى التى تعيش فيها الجمال وعلى الأعشاب التى يمكن إنباتها فى هذه الصحارى .

وخراف الاستراكان تذبح بمجرد ولادتها حتى يمكن الحصول على فروه المعروف بجلد الاستراكان ذى الشعر القصير المجعد الملتف حول نفسه وأن الخروف إذا نما طال شعره وأصبح فروه عاديا .

وأجود أنواع الاستراكان هو الذى يؤخذ من نتاج نعجة حامل قبل أن تلد حيث يكون شعر الخراف فى بطنها لم يكمل نبته بحيث لا يمنح فرصة الالتفاف والتجعد بل يكون الشعر ما زال فى منابته .

وتؤخذ هذه الخراف التىلم تولد بعد من النعاج المعمرة التى يعرف أنها وصلت إلى آخر عمرها وأنها لم تعد صالحة للحمل بعد هذا فتذبح قبل أن تلد ويؤخذ الجنين من بطنها لينزع عنه جلده قبل أن يخرج إلى الحياة .

ولست أدرى مدى صحة حديث مدير المعهد عن قدرتنا على إنتاج الاستراكان ولا أدرى هل أجريت محاولات لهذه التجربة .. ولكنها بلا جدال مسألة تستحق البحث ؟.

وذهبنا للغداء .. وكان أهم ما فيه طبق الأرز الكبير المخلوط باللحم وبقطع الجزر .. والعيش المستدير المنتفخ الشبيه بالكماج الصعيدى .. !

وفى مسرح فى الهواء الطلق بجوار أجمل الآثار الإسلامية الموجودة

في المنطقة بدأنا نشاهد الرقص الوطنى .. ومسرحية عن على شير نوائى الذى كان يحتفل بذكراه الخمسمائة .

وسمعنا قصة القصر الذى بناه مهندس عشق الأميرة ولست أظن هناك بلدا خلا من أسطورة عشق .. مما يؤكد أن أجدادنا فى كل مكان أحفل بالحب وأكثر انفعالا به . ولا أظن مجتمعاتنا الحديثة يمكن أن تورث من بعدها .. أية أساطير للحب يمكن أن تتناقلها الأجيال القادمة .. إن عصر السرعة والانطلاق إلى الفضاء لا يمكن أن يمنح لأى شىء فى مجتمعنا فرصة التمهل .. حتى الحب .

وأنهت دليلتى الحلوة قصة الأميرة والأمير والقصر والمهندس العاشق ثم ضحكت قائلة :

ــ كلام يقال .

ــ على أية حال إنه بضاعتك .. إنه يمنحك شيئا تروينه للزوار ..

وهزت رأسها وعادت تضحك قائلة :

ــ وهل صدقته ؟

ــ ولم لا .. فى عصورهم .. كانت تحدث هذه الأشياء بسهولة ..

ــ واليوم ؟

ــ لا يمنحنا الزمن فرصة التمهل حتى نفعلها .

ــ أهى مجرد حاجة إلى الوقت ؟

ــ الوقت يفرض نوع التصرف .

ــ وشعورنا الداخلى ؟

ــ يضيق عليه الزمن الخناق .

ونظرت إلى ثوبها المخطط الفضفاض .. وإلى الطاقية المزركشة على رأسها تتدلى منها الضفائر وقلت مازحا :

ــ على أية حال أنت تنتمين إلى عصر الأساطير .

ــ لا تخدع فىّ .. إننا نرتدى المينى جيب فى غير أوقات العمل

الرسمية .

وقلت مازحا :

ـ خسارة ..

ـ ألم تقل إنك تفضل عصر الأساطير ؟

ـ عندما يدخل المينى جيب فى الموضوع تصبح المسألة فيها نظر .

وبدا على الفتاة سيماء التفكير ثم قالت :

ـ لقد تحررنا من عصر الأساطير .. تحررنا من كل شىء إلا من الواقع .

ـ ما دينك ؟

ـ أبى مسلم ..

ـ وأنت ؟

ـ بلا دين ..

ـ ألا تؤمنين بشىء ؟

وصمتت برهة ثم بدأت تتحدث بطريقتها الميكروفونية وكأنها عاودت إدارة شريط التسجيل الذى فى داخلها عن المادة والتخطيط وإرادة الإنسان ..

وعندما أفرغت شريطها المسجل .

سألتها ببساطة :

ـ أترين كل شىء يخضع للتخطيط وإرادة الإنسان ؟

وشردت برهة قبل أن تجيب فى صوت خافت .. كأنه يتسلل من وراء الشريط المسجل :

ـ أحيانا .. تفرض على إرادتنا أشياء ممتعة .. أو مريرة .. ولكن يجب أن نخلص منها حتى لا تغير حساباتنا فى الحياة .

وصمتت برهة ثم أردفت :

ـ نحتاج لبعض الجهد .. ولكنه شىء واجب .

رقم الايداع ٨٨/٤٤٢٨
الترقيم الدولى : x ــ ٠٤٢٥ ــ ١١ ــ ٩٧٧

الناشر
مكتبة مصر
سعيد جودة السحار وشركاه
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة
ت: ٥٩٠٨٩٢٠

طائر بين المحيطين - يوسف السباعي
6 221037 002728
ADUS٠٠٢٠ السعر ٧,٠٠ جنيهات